

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله



قسم علوم اللسان

كلية اللغة العربية وآدابها واللغات الشرقية

محاضرات في المدارس اللسانية

مطبوعة بيداغوجية موجهة لطلبة السنة الثانية ليسانس

السداسي الثالث (ل م د)

تخصص: لسانيات تطبيقية ولسانيات عامة

إعداد الأستاذة: قريعة بركاهم



أ. د. هوراد رشيد

رئيس المجلس العلمي

اللجنة العلمية
لقسم اللسان



السنة الجامعية: 2025-2026

Université Alger 2
Abou El kacem Saad Allah
Faculté de Langue et Littérature
Arabes et Langues Orientales



جامعة الجزائر 2
أبو القاسم سعد الله
كلية اللغة العربية وآدابها
واللغات الشرقية

Le président de conseil scientifique

رئيس المجلس العلمي

مستخرج من محضر اجتماع المجلس العلمي للكلية

يوم 29 أفريل 2026

القرار رقم 2026/193:



صادق المجلس العلمي للكلية على المطبوعة البيداغوجية بعنوان: "محاضرات في علم أصول الفقه" للشيخ
اللسانية، تخصص: لسانيات عامة ولسانيات تطبيقية، طلبة السنة الثانية ليسانس، للاحتفاد:
تريعة بركاهم، وذلك بعد عرضها للخبرة (قسم علوم اللسان).

توقيع العميد الكلية

توقيع رئيس المجلس العلمي

عميد كلية اللغة العربية
واللغات الشرقية
د. د. بورقيسة علي



د. كوراد رشيد
رئيس المجلس العلمي للكلية





مقدمة:

تندرج هذه المطبوعة البيداغوجية الموسومة بـ «محاضرات في مقياس المدارس اللسانية» ضمن الجهود الرامية إلى دعم التكوين الجامعي لطلبة السنة الثانية ليسانس، وتمكينهم من استيعاب الأسس النظرية للدرس اللساني الحديث. وقد أعدت هذه المحاضرات وفق التصور البيداغوجي المعتمد في نظام ل.م.د، بما يراعي التدرج المعرفي والانسجام بين الأهداف التعليمية والمحتويات العلمية. تسعى المطبوعة إلى تقديم عرض منظم لأبرز المدارس اللسانية التي أسهمت في بناء الفكر اللغوي المعاصر، مع التركيز على مفاهيمها ومناهجها وروادها. كما تهدف إلى تنمية القدرة التحليلية والنقدية لدى الطالب، وربط المعارف النظرية بالتطبيقات اللسانية المختلفة. وقد روعي في إعدادها الوضوح والدقة العلمية، مع تبسيط المفاهيم دون إخلال بعمقها الأكاديمي. وتُعد هذه المطبوعة أداة بيداغوجية مساعدة للأستاذ والطالب على حد سواء، تساهم في تحسين الفهم، وتدعم التحصيل العلمي، وتُهيئ الطلبة لمواصلة دراستهم في المستويات اللاحقة.

وفي هذا الإطار، هذه مجموعة من المحاضرات موجهة بصفة خاصة إلى طلبة السنة الثانية ليسانس من نظام ل.م.د. وفق المقرر الوزاري المتضمن مفردات مقياس المدارس اللسانية، حيث تضمن المقرر الموضوعات الآتية:

المحاضرة 01: مدخل الحلقة، المدرسة، النظرية

المحاضرة 02: اللسانيات دي سوسير Ferdinand de Saussure

المحاضرة 03: حلقة موسكو اللغوية

المحاضرة 04: مدرسة براغ (1)

المحاضرة 05: مدرسة براغ (2)

المحاضرة 06: مدرسة كوبنهاغن أو المدرسة الغلوسيماتية

المحاضرة 07: المدرسة الوظيفية الفرنسية

المحاضرة 08: النظرية السياقية

المحاضرة 09: المدرسة التوزيعية

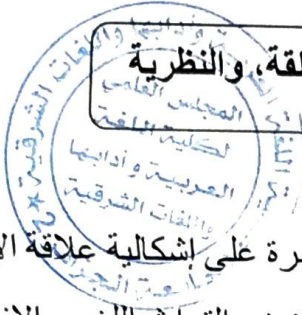
المحاضرة 10: المدرسة التوليدية التحويلية (1)

المحاضرة 11 : المدرسة التوليدية التحويلية (2)

المحاضرة 12 : المدرسة الوظيفية الأمريكية

المحاضرة 13 : مدرسة أكسفورد

المحاضرة 14 : المدرسة الخليلية



المحاضرة الأولى: مدخل إلى المدرسة، الحلقة، والنظرية

تمهيد

إن البحث في قضية اللغة، مهما كان منهجه ومرماه، يحيلنا مباشرة على إشكالية علاقة الإنسان بالظاهرة اللغوية في أصل اتصاله بها ومدى انحصاره فيها. ويزخر التراث اللغوي الإنساني، والعربي منه خاصة، بتساؤلات مبدئية تمحورت حول ديمومة هذا اللقاء منذ المبتدأ. فالعلاقة التي تربط الإنسان باللغة هي علاقة بالطبع والاختصاص، لا بالعرض والاتفاق، ومعنى ذلك أن الإنسان في كينونته الجوهرية موجود متكلم (العبادي، 2022). هذه الأهمية المحورية التي تحتلها اللغة في حياة الإنسان جعلت من دراستها مركز الجاذبية في كل البحوث الإنسانية، فاللسانيات أصبحت في حقل البحوث الإنسانية مركز استقطاب بال منازع، إذ إن كل العلوم أصبحت تلتجئ إليها في مناهج بحثها وتقدير حصيلتها العلمية (العبادي، 2022).

في سياق هذا الاهتمام المتزايد بالدراسات اللغوية، تتعدد المقاربات والمصطلحات التي تصف التجمعات الفكرية والمنهجية. فتختلف العبارات من حيث العموم والخصوص، وتتنوع من حيث اشتقاق التسمية لتدل على جانب تاريخي أو تصور تسعى للترويج له. ومن أبرز هذه المصطلحات التي تحتاج إلى تحديد وتمييز: "المدرسة"، و"الحلقة"، و"النظرية". قد يتسامح البعض في إطلاق هذه المصطلحات بعضها على بعض، لأن الحدود الاصطلاحية غير واضحة المعالم تمامًا، لكن المعول في كل ذلك هو معرفة السياق التاريخي لنشوء كل منها، وتمثل المنهج المتبع، واختبار نجاعة مخرجاتها التطبيقية (لطرش، 2020). تهدف هذه المحاضرة إلى تفكيك هذه المفاهيم الأساسية، وتوضيح الفروق الدقيقة بينها، وتأسيس مفهوم "النظرية" باعتباره حجر الزاوية في بناء المعرفة العلمية.

مفهوم الحلقة (Circle)

أولاً: الحلقة لغةً

كلمة "حَلَقَة" في اللغة العربية مشتقة من الجذر (ح ل ق)، وتدل على كل شيء استدار. والحَلَقَة من الناس هي الجماعة المستديرة. ويقال: "تحلَّق القوم" أي جلسوا حَلَقَةً حَلَقَةً. فالمعنى اللغوي يدور حول الاجتماع والالتفاف والاستدارة حول محور أو مركز معين، سواء كان هذا المحور شخصاً أو فكرة.

ثانياً: الحلقة اصطلاحاً

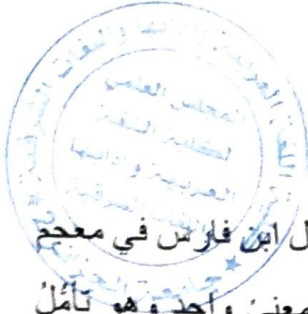
في الاصطلاح العلمي والأكاديمي، تكتسب "الحلقة" معنى أكثر تحديداً، خاصة في حقل الدراسات اللسانية والإنسانية. فالحلقة هي تطور لمفهوم "المدرسة" الفكرية، حيث تنضاف إلى الخصائص الأساسية للمدرسة (كوحدة الموضوع والمنهج ووجود قائد فكري) جوانب تنظيمية وإنتاجية محددة. يعرفها لطرش (2020) بأنها "المدرسة إذا انضاف لها الجانب التنظيمي في عقد لقاءات المناقشة -من قبل الأعضاء- دورياً، وصحبها نشاط إنتاجي من قبيل المؤتمرات والنشرية البحثية".

بهذا المعنى، تتميز الحلقة بالديناميكية والتفاعل المستمر بين أعضائها، وبالإنتاج المعرفي المنظم والموثق. لم تعد مجرد تجمع غير رسمي لأتباع فكرة ما، بل أصبحت مؤسسة مصغرة لها اجتماعات دورية، وأهداف بحثية مشتركة، ومنشورات علمية تعبر عن توجهاتها. ومن أبرز الأمثلة التاريخية على ذلك في مجال اللسانيات:

. **حلقة براغ اللسانية: (Prague Linguistic Circle)** تأسست عام 1926، وتعتبر مثلاً نموذجياً للحلقة العلمية. لم تكن مجرد مدرسة تتبع أفكار شخص واحد، بل كانت ملتقى تفاعلياً لعدد من العلماء البارزين مثل فيلم مائيسوس، ورومان ياكبسون، ونيكولاي تروبيتسكوي. عقدت الحلقة اجتماعات منتظمة، وأصدرت أعمالاً جماعية شهيرة (Theses of the Prague Circle) كان لها أثر عميق في تطوير اللسانيات الوظيفية والبنوية.

. **حلقة كوبنهاغن: (Copenhagen Linguistic Circle)** تأسست عام 1931 على يد لويس هيلمسليف وفيغو برونдал. كانت هذه الحلقة أيضاً نشطة في عقد الاجتماعات وإصدار المنشورات، وطورت نظرية لسانية خاصة بها عُرفت بـ "الغلوسيماتيك" (Glossematics)، والتي سعت إلى جعل اللسانيات علماً صورياً مجرداً على غرار الرياضيات والمنطق.

إذن، الحلقة هي بنية تنظيمية واجتماعية للمعرفة، تتجاوز مجرد الانتماء الفكري لتصبح آلية للإنتاج العلمي الجماعي والمناقشة النقدية المستمرة، مما يمنحها حيوية وقدرة على التطور والتأثير أكبر من المدرسة التقليدية.



مفهوم النظرية (Theory)

أولاً: النظرية لغة

تُعرف "النظرية" لغة بأنها مصطلح مشتق من الفعل الثلاثي "نَظَرَ". وقال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: "النون والظاء والراء أصلٌ صحيح يرجع فروعه إلى معنى واحد وهو تأمل الشيء ومعاينته". ففعل "نظر" لا يعني مجرد الرؤية البصرية، بل يتضمن التأمل والتفكير والتدبر العقلي. ومن هنا، ارتبطت كلمة "نظرية" بالنشاط الفكري والتجريدي الذي يتجاوز الملاحظة السطحية إلى محاولة الفهم العميق وإدراك العلاقات بين الأشياء.

ثانياً: النظرية اصطلاحاً

اصطلاحاً، يتخذ مفهوم النظرية أبعاداً أكثر تعقيداً وتحديداً. يمكن تعريفها بشكل عام بأنها مجموعة من القواعد والمبادئ المترابطة منطقياً التي تستخدم لوصف ظاهرة ما وتفسيرها والتنبؤ بها (ليلي، 2016). إنها نسق فكري متكامل يتألف من مفاهيم وافتراضات وقضايا، يهدف إلى تقديم فهم منظم وممنهج لجزء من الواقع.

في السياق العلمي، النظرية هي مجموعة من الفروض المتماسكة يراد بها شرح ظواهر معينة. وهي ليست مجرد تخمين أو رأي، بل هي بناء عقلي محكم يخضع لشروط صارمة، ويستند إلى الأدلة والملاحظات، ويكون قابلاً للاختبار والتحقيق. ويفرق لطرش (2020) بينها وبين المدرسة والحلقة بقوله: "إذا غلب على المقاربة اللسانية، التصدر المنهجي، والمثابرة الإجرائية، كانت التسمية جانحة إلى النظرية". وهذا يعني أن النظرية تتمحور حول قوة المنهج ودقة الإجراءات التحليلية التي تقترحها، مثل "النظرية الخيلية" أو "نظرية التوليدية التحويلية" لتشومسكي.

إذن، النظرية هي الإطار التفسيري الأعلى في العلم، فهي لا تصف فقط "ماذا يحدث"، بل تشرح "لماذا وكيف يحدث". وهي أعم من القانون العلمي الذي يصف علاقة ثابتة بين متغيرين، حيث إن النظرية غالباً ما تفسر وتضم تحتها عدة قوانين.

تاريخ مفهوم النظرية

إن تتبع تاريخ مفهوم "النظرية" هو في جوهره تتبع لتاريخ الفكر البشري نفسه، ورحلته من التفسيرات الأسطورية إلى البحث المنهجي عن الحقيقة. يمكن تقسيم هذا التاريخ إلى مراحل رئيسية:

1- المرحلة الفلسفية اليونانية:

يعود أصل المفهوم إلى الفلسفة اليونانية القديمة، حيث كانت كلمة (Theoria) تعني المشاهدة والتأمل العقلي. بالنسبة لأفلاطون وأرسطو، كانت النظرية هي أسمى أشكال المعرفة، لأنها تتعلق بالحقائق الكلية والمجردة والثابتة (عالم المثل عند أفلاطون)، في مقابل المعرفة الحسية المتغيرة والجزئية. كانت النظرية في هذه المرحلة نشاطاً فلسفياً تأملياً بحتاً، يهدف إلى فهم طبيعة الوجود والواقع من خلال العقل وحده، دون ارتباط ضروري بالتجربة أو التطبيق العملي.

2- العصور الوسطى والفكر الإسلامي:

في العصور الوسطى، استمر الطابع الفلسفي التأملي للنظرية، مع ارتباطه الوثيق باللاهوت. وفي الحضارة الإسلامية، شهد الفكر النظري تطوراً ملحوظاً، خاصة في مجال فلسفة العلم والمنهج. فقد أسس علماء مثل ابن الهيثم لمبادئ المنهج التجريبي، مؤكدين على أهمية الربط بين الاستدلال العقلي (النظرية) والملاحظة والتجربة (التطبيق). ومع ذلك، ظل هناك نقد للفلسفة النظرية البحتة، كما يظهر في أعمال الغزالي، مما أثر على مسار البحث الفلسفي لاحقاً.

3- الثورة العلمية والعصر الحديث:

شهد القرن السابع عشر تحولاً جذرياً في مفهوم النظرية مع بزوغ الثورة العلمية. فلاسفة وعلماء مثل فرانسيس بيكون، ورينيه ديكارت (1596-1650)، وإسحاق نيوتن، أرسوا أسس المنهج العلمي الحديث. لم تعد النظرية مجرد تأمل مجرد، بل أصبحت فرضية قابلة للاختبار التجريبي. أعاد ديكارت الحيوية للعقل والفكر الفلسفي من خلال البحث عن منهج علمي صارم. وأصبحت النظرية العلمية الناجحة هي تلك التي لا تفسر الملاحظات الموجودة فحسب، بل تتنبأ أيضاً بنتائج جديدة يمكن التحقق منها تجريبياً. هذا التحول ربط النظرية بالواقع بشكل لم يسبق له مثيل، وجعلها أداة قوية لفهم العالم والسيطرة عليه.



4- فلسفة العلم المعاصرة:

في القرنين العشرين والحادي والعشرين، أصبح مفهوم النظرية نفسه موضوعاً للبحث الفلسفي العميق في إطار "فلسفة العلم". فلاسفة مثل كارل بوبر وتوماس كون وإيمري لاكلاتون قدموا رؤى مختلفة حول طبيعة النظريات العلمية وكيفية تطورها. طرح بوبر معيار "القابلية للتكذيب" (Falsifiability) كخط فاصل بين العلم واللاعلم، بينما رأى كون أن العلم يتقدم عبر "ثورات علمية" يتم فيها استبدال "نماذج إرشادية" (Paradigms) "بنماذج أخرى". هذا النقاش المستمر يوضح أن مفهوم النظرية لا يزال مفهوماً حياً ومتطوراً، يقع في قلب السعي الإنساني للمعرفة (روزنبرج، 2015).

أنواع النظريات

تتنوع النظريات بتنوع حقول المعرفة التي تنتمي إليها، وتختلف في طبيعتها ومنهجها ومستوى تجريدها. يمكن التمييز بين عدة أنواع رئيسية، أبرزها النظرية الفلسفية، والنظرية العلمية، والنظرية السياسية.

1- النظرية الفلسفية

النظرية الفلسفية هي الإطار المفاهيمي الذي يسعى إلى فهم المبادئ الأساسية والأسئلة الكبرى المتعلقة بالوجود (الميتافيزيقا)، والمعرفة (نظرية المعرفة أو الإبستمولوجيا)، والقيم (الأخلاق والجمال). على عكس النظرية العلمية، لا تكون النظرية الفلسفية قابلة للاختبار التجريبي المباشر في العادة. أدواتها الرئيسية هي التحليل العقلي والمنطقي والجدل والحجة. إنها تتعامل مع أسئلة مثل: ما هو الواقع؟ ما هي الحقيقة؟ كيف يمكننا أن نعرف؟ ما هو الصواب والخطأ؟ تاريخياً، كانت الفلسفة هي أم العلوم، والعديد من النظريات العلمية نشأت من رحم التساؤلات الفلسفية. على سبيل المثال، تطورت نظرية التطور من أفكار فلسفية قديمة حول التغير والتحول في الطبيعة. ورغم استقلال العلوم، لا تزال النظرية الفلسفية تلعب دوراً حيوياً في نقد الأسس والمناهج والافتراضات الكامنة وراء النظريات العلمية، وهو ما يعرف بـ "فلسفة العلم" (روزنبرج، 2015).

2- النظرية العلمية

تمثل النظرية العلمية التفسير الأكثر قوة وموثوقية للظواهر الطبيعية في المنهج العلمي. إنها إطار تفسيري شامل، مدعوم بمجموعة واسعة من الأدلة، وقابل للاختبار والتكذيب. تتكون النظرية العلمية من مجموعة من الفرضيات التي تم اختبارها بنجاح مراراً وتكراراً من الأمثلة الشهيرة: نظرية النسبية لأينشتاين، ونظرية التطور عن طريق الانتقاء الطبيعي لداروين، ونظرية الخلية في علم الأحياء.

السمة الجوهرية للنظرية العلمية هي علاقتها الوثيقة بالواقع التجريبي. فهي ليست مجرد بناء منطقي، بل يجب أن تكون قادرة على تقديم تنبؤات دقيقة حول العالم يمكن التحقق منها من خلال الملاحظة والتجربة. والنظرية العلمية ليست "حقيقة" نهائية مطلقة، بل هي أفضل تفسير متاح لدينا في الوقت الحالي، وهي دائماً مفتوحة للمراجعة والتعديل أو حتى الاستبدال في ضوء أدلة جديدة.

3- النظرية السياسية

النظرية السياسية هي فرع من فروع العلوم السياسية يركز على دراسة المفاهيم والأفكار والمبادئ الأساسية المتعلقة بالحياة السياسية. إنها تتناول أسئلة جوهرية حول الدولة، والسلطة، والعدالة، والحرية، والمساواة، والحقوق، والواجبات. يمكن القول إن النظرية السياسية الغربية بدأت كنظرية سياسية تقليدية في العصر اليوناني، حيث كانت مرادفاً للفلسفة السياسية (عادل، 2025).

يوجد جدل حول العلاقة بين النظرية السياسية والفلسفة السياسية. يرى البعض أنهما متكاملتان، بينما يفرق آخرون بينهما على أساس المنهجية، حيث يعتبرون الفلسفة أكثر تجريداً ومثالية ومعيارية (تبحث فيما "يجب أن يكون")، بينما النظرية السياسية قد تكون أكثر ارتباطاً بالواقع التجريبي وتحليل الظواهر السياسية القائمة (تبحث فيما "هو كائن").

تتنوع النظريات السياسية بشكل كبير، فمنها النظريات المعيارية (مثل نظريات العدالة لجون راولز)، والنظريات التفسيرية (مثل نظرية الواقعية في العلاقات الدولية التي تفسر سلوك الدول على أساس المصلحة الوطنية والقوة)، والنظريات النقدية (مثل نظريات مدرسة فرانكفورت التي تسعى إلى نقد الأيديولوجيات السائدة وكشف علاقات القوة في المجتمع).

وبذلك، توفر النظرية السياسية الأدوات المفاهيمية اللازمة لتحليل وفهم ونقد وتقييم الواقع السياسي.

في السياق الإسلامي، توجد أيضاً أطر نظرية لفهم السياسة، تركز على مبادئ مثل التوحيد والعدل والشورى، وتقدم رؤية مختلفة للعلاقة بين الدين والأخلاق والسياسة، على عكس بعض التقاليد الغربية التي فصلت بين هذه المجالات، كما في فكر مكيافيلي.

4- شروط النظرية

لكي ترقى مجموعة من الأفكار إلى مستوى "النظرية" المقبولة في الأوساط العلمية والأكاديمية، يجب أن تستوفي مجموعة من الشروط والمعايير الصارمة. هذه الشروط تضمن للنظرية قوتها التفسيرية ومصداقيتها. تختلف تفاصيل هذه الشروط قليلاً بين حقول المعرفة، لكن يمكن إجمال أهمها فيما يلي:

1. القابلية للاختبار والتحقق (Testability/Verifiability): تعد هذه من أهم شروط

النظرية العلمية. يجب أن تكون النظرية قابلة للتحقق أو التكذيب من خلال الملاحظة أو التجربة. أي أن النظرية يجب أن تقدم تنبؤات يمكن مقارنتها بالواقع. النظرية التي لا يمكن اختبارها بأي شكل من الأشكال تقع خارج نطاق العلم.

2. الاتساق الداخلي (Internal Consistency): يجب أن تكون أفكار ومبادئ

ومفاهيم النظرية مترابطة ومتكاملة، بحيث تخلو من التناقضات المنطقية الداخلية. فلا يجوز أن يؤدي جزء من النظرية إلى استنتاج يناقض استنتاجاً آخر مشتقاً من جزء آخر منها.

3. الشمولية والقدرة التفسيرية (Explanatory Power & Scope): يجب أن

تكون النظرية شاملة، قادرة على تفسير مجموعة واسعة من الظواهر المتعلقة بموضوعها، وليس مجرد حالات فردية أو خاصة. كلما زاد نطاق الظواهر التي يمكن للنظرية تفسيرها، زادت قوتها.

4. القدرة التنبؤية (Predictive Power): لا تكتفي النظرية الجيدة بتفسير ما حدث

بالفعل، بل يجب أن تكون قادرة على التنبؤ بظواهر أو نتائج لم تلاحظ بعد. هذه التنبؤات، إذا تم التحقق من صحتها لاحقاً، تقدم دعماً قوياً للنظرية.

5. البساطة والإيجاز: (Parsimony/Simplicity) يُعرف هذا المبدأ بـ "نصل أو كام" (Occam's Razor). عند وجود نظريتين متنافستين لهما نفس القدرة التفسيرية، يُفضل اختيار النظرية الأبسط، أي التي تفترض أقل عدد من الكيانات أو العمليات.
6. الأصالة والتجديد: (Originality) يتعين على النظرية أن تتميز بروى فريدة وأصيلة لا تتداخل بشكل كامل مع نظريات أخرى قائمة. يجب أن تقدم إضافة جديدة للمعرفة، سواء بتفسير ظاهرة جديدة، أو تقديم تفسير أفضل لظاهرة معروفة.
7. الملاءمة والارتباط: (Relevance) ينبغي أن تكون النظريات والمفاهيم المعتمدة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمشكلة البحث وأهدافه. يجب أن تخدم النظرية كإطار موجه للبحث، وليس مجرد استعراض للمعلومات.
- إن استيفاء هذه الشروط هو ما يمنح النظرية مكانتها المرموقة في هرم المعرفة، ويجعلها أداة فعالة في يد الباحثين لفهم العالم وتطوير المعرفة الإنسانية.

5- خلاصة

تناولت هذه المحاضرة التمهيدية تفكيك ثلاثة مفاهيم محورية في الدراسات الأكاديمية، وهي: المدرسة، والحلقة، والنظرية. بدأنا بالتمييز بين هذه المصطلحات، حيث أوضحنا أن "المدرسة" الفكرية تشير إلى تجمع حول فكر ومنهج معين، وتتطور لتصبح "حلقة" عندما تكتسب طابعاً تنظيمياً وإنتاجياً من خلال اللقاءات الدورية والمنشورات المشتركة، كما في حلقتي براغ وكوبنهاغن. أما "النظرية"، فهي تمثل المستوى الأعلى من التنظيم المنهجي والإجرائي، وتهدف إلى تقديم نسق تفسيري متكامل لظاهرة ما.

بعد ذلك، تم التعمق في مفهوم "النظرية" من خلال تتبع أصوله اللغوية المرتبطة بالتأمل والنظر العقلي، وصولاً إلى معناه الاصطلاحي كبناء فكري متماسك وقابل للاختبار. كما استعرضنا المسار التاريخي لتطور المفهوم، بدءاً من التأمل الفلسفي المجرد في اليونان القديمة، مروراً بإسهامات الحضارة الإسلامية، وصولاً إلى التحول الجذري مع الثورة العلمية التي ربطت النظرية بالتجربة والتحقق، وانتهاءً بالنقاشات المعاصرة في فلسفة العلم التي جعلت من طبيعة النظرية ذاتها موضوعاً للبحث.

كما تم التمييز بين أنواع النظريات الرئيسية: الفلسفية التي تعتمد على التحليل العقلي للإجابة على الأسئلة الكبرى، والعلمية التي تركز على الدليل التجريبي لتفسير العالم الطبيعي، والسياسية التي توفر أطراً مفاهيمية لفهم وتحليل ونقد الظواهر المتعلقة بالسلطة والعدالة. وأخيراً، تم تحديد مجموعة من الشروط الأساسية التي يجب أن تتوفر في أي بناء فكري ليُعتبر "نظرية" بالمعنى الدقيق، وتشمل القابلية للاختبار، والاتساق الداخلي، والشمولية، والقدرة التنبؤية، والبساطة، والأصالة.

في الختام، يتضح أن "النظرية" ليست مجرد كلمة، بل هي مفهوم مركزي يمثل قمة الجهد الإنساني المنظم لفهم العالم. إنها الأداة التي تمكننا من تجاوز الوصف السطحي للظواهر إلى التفسير العميق، ومن فهم الماضي إلى التنبؤ بالمستقبل، مما يجعلها حجر الزاوية في أي بحث علمي أو أكاديمي رصين.

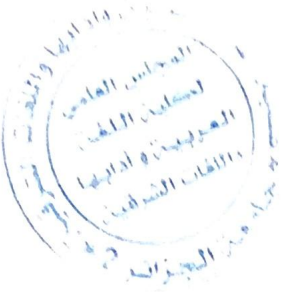
6- أسئلة حول المحاضرة للمناقشة

1. بناءً على ما تم عرضه، ما الفرق الجوهرى بين "المدرسة" و"الحلقة" و"النظرية"؟
قدم أمثلة من تخصصك لتوضيح الفروق.
2. "النظرية العلمية هي حقيقة مثبتة". ناقش صحة هذه العبارة في ضوء ما تعلمته عن شروط النظرية العلمية وطبيعتها المتطورة.
3. كيف أثرت الثورة العلمية في القرن السابع عشر على تحول مفهوم "النظرية" من التأمل الفلسفي إلى البناء العلمي؟
4. هل يمكن اعتبار نظرية سياسية (مثل الواقعية أو الليبرالية) "علمية" بنفس درجة نظرية فيزيائية (مثل النسبية)؟ علل إجابتك بالرجوع إلى شروط النظرية.
5. لماذا يعتبر شرط "القابلية للاختبار أو التكذيب" مهماً جداً للتمييز بين النظرية العلمية وغيرها من الأنساق الفكرية (كالفلسفة أو الدين)؟
6. اختر نظرية تعرفها جيداً (في اللسانيات، الأدب، علم الاجتماع، إلخ)، وحاول تقييمها بناءً على شروط النظرية التي تمت مناقشتها (الاتساق، الشمولية، القدرة التنبؤية، البساطة).

7. يرى لطرش (2020) أن التسمية تميل إلى "النظرية" إذا غلب "التصدّر المنهجي والمثابرة الإجرائية". اشرح هذه العبارة وأعطِ مثالا لنظرية لسانية ينطبق عليها هذا الوصف.

7- قائمة المراجع

- العبادي، عبد الحق. (2022). محاضرات المدارس اللسانية. جامعة ابن خلدون – تيارت. تم الاسترجاع من: <http://fll.univ-tiaret.dz/pdf/cours/%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%AF%D8%A7%D8%B1%D8%B3%20%D8%A7%D9%84%D9%84%D8%B3%D8%A7%D9%86%D9%8A%D8%A9%2003%20%D9%84%D9%8A%D8%B3%D8%A7%D9%86%D8%B3%20%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%A8%D8%A7%D8%AF%D9%8A%20%D8%B9%D8%A8%D8%AF%20%D8%A7%D9%84%D8%AD%D9%82.pdf>
- عبد الرحمن عادل. (15 يونيو، 2025). مركز الحضارة للدراسات والبحوث. النظرية السياسية بين الواحدية والتعدد والمنظور الحضاري. تم الاسترجاع من: <https://hadaracenter.com/%D8%A7%D9%84%D9%86%D8%B8%D8%B1%D9%8A%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%B3%D9%8A%D8%A7%D8%B3%D9%8A%D8%A9-%D8%A8%D9%8A%D9%86-%D8%A7%D9%84%D9%88%D8%A7%D8%AD%D8%AF%D9%8A%D8%A9-%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%B9%D8%AF/>
- لطرش، بولرباح. (2020). المدارس اللسانية. جامعة زيان عاشور بالجلفة. تم الاسترجاع من: https://flla.univ-djelfa.dz/wp-content/uploads/2024/12/book1_latreche_boulerbah.pdf
- ليلي، أحمد. (2016). علم الاجتماع وبناء النظرية الاجتماعية. مكتبة الأنجلو المصرية.
- روزنبرج، الكسندر. (2015). فلسفة العلم: مقدمة معاصرة (ترجمة عبد النور عبد المنعم السماحي وفاطمة إسماعيل الشيخ). المركز القومي للترجمة. (العمل الأصلي نشر في 2000).



المحاضرة الثانية: لسانيات دي سوسير (Ferdinand) (de Saussure)

تمهيد

يُعدّ فكر العالم السويسري فردينان دي سوسير (1857-1913) إشكاليًا بحق، ونقطة تحول جذرية في تاريخ الفكر اللغوي الحديث. فبعد أن كانت الدراسات اللغوية قبله تركز بشكل أساسي على المنهج التاريخي المقارن، جاء سوسير ليؤسس لعلم جديد، هو "اللسانيات العامة"، واضعًا له أسسًا منهجية ومفاهيمية صارمة، ومحددًا موضوعه بدقة. لقد أحدثت أفكاره، التي جُمعت بعد وفاته في كتاب "محاضرات في اللسانيات العامة" (1916)، ثورة حقيقية لم يقتصر أثرها على اللسانيات فحسب، بل امتد ليشمل مجالات معرفية واسعة كالنقد الأدبي، والأنثروبولوجيا، والفلسفة، وعلم النفس، مؤسسًا بذلك لما عُرف بالتيار البنيوي (لطرش، 2020).

استطاع سوسير بأفكاره النيرة أن ينتقل باللغة من نمطية الدراسة التاريخية المقارنة إلى الدراسة الآنية الوصفية، فكان عمله هذا بمثابة التنظير الحقيقي للسانيات التي أصبحت علمًا قائمًا بذاته (بوجلبيغ، 2024). تهدف هذه المحاضرة إلى استعراض المسار الذي مهد لظهور أفكار سوسير، ثم الغوص في نظريته اللسانية من خلال التعريف بأسسها ومفاهيمها المركزية، وعلى رأسها الثنائيات الشهيرة التي شكلت حجر الزاوية في مشروعه العلمي.

1- التعريف بـ "دي سوسير"

ولد فردينان دي سوسور في 26 نوفمبر 1857 في جنيف بسويسرا، لأسرة أرستقراطية عريقة ذات تاريخ علمي حافل (Bahethoarabia, s.d). أظهر منذ صغره شغفًا وموهبة استثنائية في دراسة اللغات، وبدأ مسيرته الأكاديمية في جامعة جنيف بدراسة الفيزياء والكيمياء، لكنه سرعان ما تحول إلى دراسة اللغات، فانتقل إلى جامعة لايبزيغ الألمانية عام 1876، والتي كانت آنذاك مركزًا للدراسات اللغوية التاريخية والمقارنة (ويكيبيديا، 2024).

في لايبزيغ، وفي عمر الحادية والعشرين، نشر عمله الهام الأول "مذكرة في نظام الصوائت الأولى في اللغات الهندو-أوروبية" (1878)، وهو العمل الذي أظهر عبقريته الفذة. بعد ذلك، انتقل إلى برلين ثم باريس، حيث حاضر لمدة إحدى عشرة سنة في المدرسة التطبيقية للدراسات

العليا، قبل أن يعود إلى جنيف عام 1892 ليدرّس السنسكريتية واللغات الهندو-أوروبية في جامعته الأم (لطرش، 2020).

بين عامي 1907 و1911، ألقى سوسير ثلاث دورات من محاضراته في اللسانيات العامة، والتي لم يكتبها أو ينشرها بنفسه. بعد وفاته في 22 فبراير 1913، قام تلميذاه شارل بالي وألبير سيشهاي بجمع وتحرير هذه المحاضرات بالاعتماد على دفاتر ملاحظات الطلاب، ونشراها عام 1916 تحت عنوان "محاضرات في اللسانيات العامة" (Cours de linguistique générale). هذا الكتاب، الذي تُرجم إلى لغات عديدة، يُعتبر "إعلان استقلال" لعلم اللسانيات، حيث حرره سوسير من هيمنة الدراسات التاريخية الصرفية، وأسس له كمجال علمي مستقل يدرس اللغة كنظام من العلامات في ذاتها ولذاتها. (Bahethoarabia, s.d.).

2- مراحل تطور البحث اللساني

لم تظهر أفكار سوسير من فراغ، بل كانت تتويجاً ونقداً في آن واحد لمسار طويل من التفكير اللغوي. يحدد سوسير نفسه في محاضراته ثلاث مراحل رئيسية مر بها البحث اللغوي قبل أن يصل إلى ما يجب أن يكون عليه (دي سوسير، 1985).

أ. المرحلة الأولى: مرحلة النحو (étude de grammaire)

بدأت هذه المرحلة مع الإغريق، الذين كانوا أول من فكر في قواعد اللغة. لم تكن دراستهم للغة بهدف دراسة اللغة في حد ذاتها، بل كانت دراسة منطقية وفلسفية. كان هدفهم الأساسي هو وضع قواعد معيارية للتمييز بين الصيغ الصحيحة والخاطئة، أي أنها كانت دراسة "معيارية" (normative) تهدف إلى تعليم فن الكتابة والتحدث السليم. يرى سوسير أن هذا المنهج يفتقر إلى النظرة العلمية والموضوعية، لأنه لا يلاحظ اللغة كما هي، بل يحكم عليها بناءً على معايير المنطق والصواب والخطأ (ملخص كتاب دي سوسير، 2024). ورغم أن هذه الدراسات كانت ممتزجة بالفلسفة والمنطق، إلا أنها وضعت الأسس الأولى لمفاهيم مثل أقسام الكلام (بوجليع، 2024).

ب. المرحلة الثانية: مرحلة الفيلولوجيا (Philologie)

ظهرت الفيلولوجيا في أواخر القرن الثامن عشر، خاصة مع فريدريش أوغست وولف في الإسكندرية. هدف الفيلولوجيا ليس اللغة نفسها، بل تثبيت النصوص القديمة وتفسيرها ونقدها.

فهي تسعى إلى فهم الحضارات من خلال نصوصها، وتستخدم اللغة كوسيلة لتحقيق هذا الهدف. لذلك، انصب اهتمامها على اللغات الكلاسيكية كالإيونانية واللاتينية. ورغم أنها قدمت خدمات جليلة للتاريخ والأدب، إلا أنها، من وجهة نظر سوسير، ظلت "خادمة" لعلوم أخرى ولم تتخذ اللغة موضوعاً مستقلاً للدراسة (العبادي، 2022). كانت الفيلولوجيا تهتم بكل ما يتعلق بالنصوص القديمة، من تاريخها وعاداتها ومؤسساتها، مما جعلها تتجاوز حدود دراسة اللغة كنظام.

ج. المرحلة الثالثة: مرحلة الفيلولوجيا المقارنة (Philologie comparée)

تمثل هذه المرحلة بداية الدراسة العلمية الحقيقية للغة، وقد بدأت في مطلع القرن التاسع عشر. كان العامل الحاسم في ظهورها هو اكتشاف اللغة السنسكريتية، لغة الهند القديمة، وإدراك التشابهات العميقة بينها وبين لغات أوروبا الكلاسيكية (اللاتينية والإغريقية) واللغات الجرمانية. أدرك علماء مثل السير ويليام جونز أن هذا التشابه لا يمكن أن يكون وليد الصدفة، بل لا بد أنه نابع من أصل مشترك (Linguistique-gafsa, 2017).

قاد هذا الاكتشاف إلى ولادة "النحو المقارن". ففي عام 1816، قام فرانز بوب (Franz Bopp) بدراسة مقارنة لنظام التصريف في السنسكريتية مع نظيره في الإغريقية واللاتينية والفارسية والجرمانية، ليثبت وجود قرابة بين هذه اللغات. ومنذ ذلك الحين، أصبحت المقارنة هي المنهج السائد، وهدف الدراسة هو إعادة بناء "اللغة الأم" (الهندو-أوروبية البدائية) وتتبع تطور اللغات المنحدرة منها. برز في هذا المجال علماء كبار مثل أوغست شلايشر وياكوب غريم (بوجليغ، 2024). كانت هذه المدرسة تاريخية بامتياز، حيث كانت ترى أن لا علم للغة إلا من خلال تتبع تاريخها وتطورها.

3- أزمة اللسانيات في أواخر القرن 19م

على الرغم من الإنجازات الكبيرة التي حققتها المدرسة التاريخية المقارنة، إلا أنها وصلت في أواخر القرن التاسع عشر إلى نوع من الأزمة. كان تركيزها الحصري على التطور التاريخي (الجانب التعاقبي) قد أدى إلى إهمال دراسة اللغة كنظام متكامل يعمل في لحظة زمنية معينة (الجانب الآني). لقد كانوا يدرسون "تاريخ" اللغة، ولكن ليس "اللغة" نفسها كبنية حية ومتماصة يستخدمها المتكلمون للتواصل.

رأى سوسير أن هذه المدرسة، رغم علميتها، لم تحدد موضوعها الحقيقي. كانت تتعامل مع اللغة ككائن يتطور عبر الزمن، متأثرة بنظرية داروين، لكنها أغفلت حقيقة أن اللغة بالنسبة للمتكلمين بها هي "نظام آني" وواقع اجتماعي. انتقد سوسير هذا التوجه قائلًا إنهم كادوا أن يهملوا اللغات المعاصرة التي تمثل الحاضر (Moodle.univ-dbkm, 2023). من هنا، نشأت الحاجة الماسة إلى منهج جديد يدرس اللغة "في ذاتها ولذاتها"، بوصفها نظامًا سكونيًا، وهو ما سيؤسس له سوسير، معلنًا بذلك عن ميلاد اللسانيات البنيوية.

4- موضوع اللسانيات والهدف منها

كانت أولى خطوات سوسير الثورية هي تحديده الدقيق لموضوع علم اللسانيات. فلكي يكون أي علم علمًا حقيقيًا، يجب أن يكون له موضوع واضح وموحد. رأى سوسير أن الظاهرة اللغوية الكلية، التي أطلق عليها اسم "اللغة" بالمعنى الواسع (Le Langage)، هي ظاهرة شديدة التعقيد والتباين، فهي تشمل جوانب فيزيائية (الأصوات)، وفيزيولوجية (أعضاء النطق)، ونفسية (المفاهيم الذهنية)، واجتماعية (التواصل)، وفردية (الكلام). هذا الخليط غير المتجانس لا يصلح، في نظره، أن يكون موضوعًا لعلم واحد (دي سوسير، 1985). لذلك، قام سوسير بالتمييز الحاسم بين ثلاثة مصطلحات: اللغة (Langage)، واللسان (Langue)، والكلام (Parole). ومن بين هذه الثلاثة، اختار "اللسان (Langue)" ليكون الموضوع الأوحد والأصيل لللسانيات.

"ولكن ما اللسان؟ إنه بالنسبة لنا، لا يختلط مع اللغة. فما هو إلا جزء محدود وجوهري، من أجزائه... إنه، في الوقت نفسه منتج اجتماعي لملكة اللغة ومجموع تواضعات ضرورية تبناها الكيان الاجتماعي من أجل السماح بممارسة تلك الملكة عند الأفراد". (لطرش، 2020، ص. 6).

فاللسان هو نظام مجرد من العلامات، وهو الجزء الاجتماعي من اللغة، والموجود خارج الفرد الذي لا يستطيع بمفرده أن ينشئه أو يغيره. إنه بمثابة "معجم" أو "قواعد نحو" مخزنة بشكل جماعي في أذهان أفراد الجماعة اللغوية. وبما أنه نظام متجانس ومحدد، فهو وحده القابل للدراسة العلمية المنهجية. أما الهدف من اللسانيات، فهو وصف هذا النظام الآني، والكشف عن



القوانين الداخلية التي تحكمه، بمعزل عن أي اعتبارات تاريخية أو خارجية (Alukah.net) (2017).

5- أسس الفكر اللساني عند دي سوسير

أ. اللغة نظام أو نسق (System)

الفكرة المحورية في فكر سوسير هي أن "اللغة نظام، لا تعرف مكوناته إلا من خلال علاقاتها". لم يستخدم سوسير كلمة "بنية" (structure) "بشكل مباشر، لكنه استخدم بكثرة مصطلحي "نظام" و"نسق" (système) ، والفضل يعود إليه في تأسيس المنهج البنوي (Alukah.net, 2017). في هذا النظام، لا تملك العناصر (الكلمات، الأصوات) قيمة في حد ذاتها، بل تكتسب قيمتها من خلال علاقاتها الاختلافية والتقابلية مع العناصر الأخرى في نفس النظام. يشبه سوسير اللغة بلعبة الشطرنج؛ فقيمة كل قطعة (الملك، الحصان...) لا تكمن في مادتها (خشب أو عاج)، بل في موقعها على الرقعة وعلاقتها ببقية القطع والقواعد التي تحكم حركتها. إذا فقدت قطعة، يمكن استبدالها بأي شيء آخر (زرر أو حصاة) طالما أنها تؤدي نفس الوظيفة وتخضع لنفس القواعد. وبالمثل، فإن قيمة كلمة "عصفور" لا تأتي من ذاتها، بل من كونها ليست "حمامة" وليست "نسرًا" وليست "شجرة". فاللغة "نظام من القيم الخالصة التي لا يحددها إلا الوضع اللحظي لأطرافها" (دي سوسير، 1985).

ب. الشكل والمادة (Form and Substance)

يرى سوسير أن اللغة "شكل وليست مادة" (une forme et non une substance). قبل ظهور اللغة، يكون الفكر عبارة عن سديم غير متبلور، كتلة غير متميزة. وكذلك الأصوات، هي مجرد مادة صوتية غير محددة. ما تفعله اللغة هو أنها تقوم بتقطيع هاتين المادتين (الفكر والصوت) بشكل متزامن واعتباطي، فتخلق وحدات (علامات لغوية) تربط بين جزء من المادة الصوتية (دال) وجزء من المادة الفكرية (مدلول). فاللغة هي التي تنظم العالم وتمنحه شكلاً. وهذا يفسر لماذا تختلف اللغات في "تقطيعها" للواقع؛ فما تعبر عنه كلمة واحدة في لغة قد يتطلب كلمتين أو أكثر في لغة أخرى (العبادي، 2022).

6- الثنائيات (Dichotomies)

بنى سوسير نظريته على مجموعة من التقابلات الثنائية التي أصبحت من أشهر مفاهيمه، وهي أدوات منهجية أساسية لفهم رؤيته للغة.

6-1- اللغة والكلام:

يعد هذا التمييز حجر الزاوية في تحديد موضوع اللسانيات. فرق سوسير بين ثلاثة مستويات للظاهرة اللغوية (Alukah.net, 2017):

- اللغة (Language / Le Langage)

هي الملكة البشرية العامة للكلام، القدرة الفطرية الموجودة لدى كل إنسان على استخدام نظام من الرموز للتواصل. هي ظاهرة كلية، متعددة الأشكال وغير متجانسة (نفسية، فيزيولوجية، اجتماعية). وبسبب هذا التباين، يرى سوسير أنها لا تصلح كموضوع مباشر لعلم مستقل.

- اللسان (Langue / La Langue)

هو نظام مجرد من العلامات والقواعد، وهو الجزء الاجتماعي من اللغة. إنه "منتج اجتماعي" و"مجموعة من التواضعات الضرورية" التي تتبناها جماعة لغوية معينة (مثل اللغة العربية، الفرنسية، الإنجليزية). اللسان هو الكنز الذي يودعه الاستعمال لدى أفراد الجماعة، وهو نظام نحوي موجود بالقوة في كل دماغ. خصائصه الأساسية هي:

• اجتماعي: مشترك بين جميع أفراد المجتمع، والفرد يتلقاه ولا ينشئه.

• نفسي/ذهني: مخزون في الذاكرة الجماعية.

• متجانس: لأنه نظام من العلامات.

• جوهري وأساسي: بدونها لا يكون الكلام ممكناً أو مفهوماً.

لهذه الأسباب، يعتبر سوسير أن "اللسان" هو الموضوع الحقيقي للسانيات.

- الكلام (Parole / La Parole)

هو التحقيق الفعلي والفردي للسان. إنه فعل إرادي وذكي يقوم به الفرد عندما يستخدم شفرة اللسان للتعبير عن فكره. الكلام هو الجانب التنفيذي، ويشمل "التراكيب" التي يختارها المتكلم و"الأفعال الصوتية" اللازمة لإنتاجها. خصائصه:

• فردي: يخص الفرد وحده.

- **لحظي وعابر:** يحدث في زمن معين ثم يزول.
 - **غير متجانس:** يتأثر بظروف المتكلم النفسية والجسدية.
- لأن الكلام فردي وعرضي، فإنه لا يمكن دراسته دراسة علمية منهجية مباشرة، بل تتم دراسته فقط كمدخل لفهم "اللسان" الذي يتحقق من خلاله.

- الفرق بين اللسان والكلام

يمكن تلخيص الفروق الجوهرية بين اللسان والكلام في الجدول التالي، استنادًا إلى تحليل سوسير (دي سوسير، 1985؛ 2017، Alukah.net):

الخاصية	اللسان (Langue)	الكلام (Parole)
الطبيعة	اجتماعي، مؤسسي	فردية، إرادية
الوجود	نفسي، ذهني، كامن (بالقوة)	فيزيائي-فيزيولوجي، متحقق (بالفعل)
التجانس	متجانس (نظام من العلامات)	غير متجانس (أصوات، تراكيب، ظروف)
العلاقة بالفرد	يُفرض على الفرد من الخارج	فعل إرادي واختياري للفرد
الثبات والتغير	ثابت نسبيًا، يتغير ببطء شديد	متغير، عابر، لحظي
موضوع الدراسة	هو الموضوع الأساسي للسانيات	موضوع ثانوي، يُدرس لفهم اللسان

العلاقة بينهما جدلية؛ فاللسان ضروري ليكون الكلام مفهومًا وينتج أثره، والكلام ضروري لتأسيس اللسان تاريخيًا. فاللسان هو الأداة، والكلام هو الاستعمال. "اللغة ضرورة للكلام ليكون مفهومًا والكلام كذلك له ضرورة لتثبيت أركان اللغة" (ملخص كتاب دي سوسير، 2024).

2-6- الآنية والزمانية (Synchronic and Diachronic)

هذه الثنائية تتعلق بمنهج دراسة اللغة. بعد أن حدد سوسير موضوع اللسانيات (اللسان)، طرح سؤالاً آخر: كيف يجب أن ندرس هذا الموضوع؟ ورأى أن هناك محورين للدراسة يجب التمييز بينهما تمامًا (Moodle.univ-dbkm, 2023):

. اللسانيات الآنية (التزامنية / الوصفية / السكونية Synchronic Linguistics):

تدرس هذه اللسانيات حالة اللغة في فترة زمنية معينة، كنقطة ثابتة. إنها تصف نظام اللغة كما هو في لحظة محددة، والعلاقات التي تربط بين عناصرها المترامنة، بغض النظر عن تاريخها أو تطورها. إنها دراسة "أفقية" للنظام اللغوي. بالنسبة لسوسير، هذه هي الدراسة العلمية الحقيقية، لأنها تدرس اللغة كنظام متكامل، وهو الواقع الذي يعيشه المتكلمون الذين لا يعون التطورات التاريخية للغتهم.

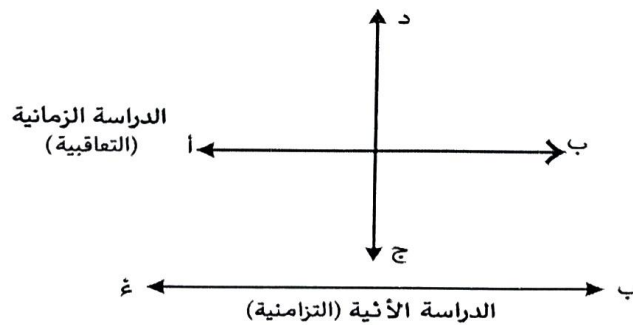
. اللسانيات الزمانية (التعاقبية / التاريخية / التطورية Diachronic Linguistics):

(Linguistics):

تدرس هذه اللسانيات تطور اللغة عبر الزمن. إنها تتبع عنصراً لغوياً واحداً (صوتاً، كلمة) وترصد التغيرات التي طرأت عليه من عصر إلى آخر. إنها دراسة "عمودية" للتطورات اللغوية. هذا هو المنهج الذي كان سائداً في القرن التاسع عشر.

لم ينكر سوسير أهمية الدراسة الزمانية، لكنه انتقد الخلط بين المنهجين، وأصر على الأسبقية المطلقة للمنهج الآني. فمن المستحيل، في رأيه، فهم التطورات التاريخية (الزمانية) دون أن نصف أولاً وبدقة الحالات السكونية (الآنية) التي حدثت بينها هذه التطورات. يشبه سوسير الأمر بقطع عرضي في جذع شجرة (آني) مقابل النظر إلى الجذع بطوله (زمانى)؛ فالأول يظهر لنا بنية الألياف في لحظة معينة، وهو ما يجب فهمه أولاً. (Lab.univ-biskra, 2013).

شكل (1): الدراسة الآنية والدراسة الزمانية



شكل (1): المحور الأفقي (أ ← ب) يمثل الدراسة الآنية (التزامنية)، بينما المحور العمودي

(ج ← د) يمثل الدراسة الزمانية (التعاقبية)



3-6- الدال والمدلول (Le signifiant / Le signifié)

هذه الثنائية هي قلب نظرية سوسير في العلامة اللغوية. (Signe linguistique) يرفض سوسير الفكرة الشائعة بأن اللغة مجرد قائمة من الأسماء لأشياء موجودة مسبقاً، ويرى أن العلامة اللغوية ليست رابطاً بين "شيء" و"اسم"، بل هي كيان نفسي ذو وجهين لا ينفصلان، كوجهي العملة (Mawdoo3, s.d.):

• **المدلول (Signifié):** هو المفهوم أو الصورة الذهنية. ليس هو الشيء المادي في العالم الخارجي، بل هو الفكرة أو التصور الموجود في الذهن.

• **الدال (Signifiant):** هو الصورة السمعية أو الأثر النفسي للصوت. ليس هو الصوت المادي الفيزيائي، بل هو "بصمته النفسية" في الدماغ، والتي تتيح لنا أن نتحدث إلى أنفسنا دون أن نصدر صوتاً.

العلاقة بين الدال والمدلول تشكل "العلامة". فمثلاً، علامة "شجرة" ليست العلاقة بين صوت كلمة [شَجَرَة] وشجرة حقيقية في حديقة، بل هي الاتحاد في الذهن بين المفهوم الذهني للشجرة (جذع، أغصان، أوراق...) والصورة السمعية لسلسلة الأصوات /ش/ج/ر/ة/.

• **اعتباطية العلامة اللسانية (L'arbitraire du signe)**

المبدأ الأول الذي يحكم العلامة اللغوية عند سوسير هو "الاعتباطية". ويعني هذا أن الرابط الذي يوحد بين الدال والمدلول هو رابط تحكمي، غير مغل، ولا يستند إلى أي علاقة طبيعية أو منطقية (Alukah.net, 2017). فلا يوجد سبب طبيعي يجعل سلسلة الأصوات /ش/ج/ر/ة/ تدل على مفهوم "الشجرة" دون غيره. والدليل على ذلك هو اختلاف اللغات؛ فنفس المدلول (مفهوم الشجرة) يقابله دوال مختلفة في لغات أخرى "tree" في الإنجليزية، "arbre" في الفرنسية، "baum" في الألمانية.

لكن هذه الاعتباطية "مطلقة" بالنسبة للرابط الأولي، وهي "نسبية" داخل النظام. فبمجرد أن يقر المجتمع اللغوي رابطاً معيناً، يصبح هذا الرابط إلزامياً وثابتاً بالنسبة للأفراد. لا يستطيع أي فرد أن يقرر من تلقاء نفسه تغيير دال معين. فاللغة موروثية وليست موضوع اتفاق فردي. إذن، العلامة اعتباطية بالنسبة للواقع، لكنها ضرورية داخل النظام الاجتماعي

للغة. (Mawdoo3, s.d.)

المبدأ الثاني للعلامة هو "خطية الدال". بما أن الدال ذو طبيعة سمعية، فإنه يتكشف في الزمن فقط، ويمثل امتدادًا له بعد واحد فقط: هو الخط. تتوالى عناصره واحدًا تلو الآخر في سلسلة كلامية، ولا يمكن نطقها في آن واحد. هذا المبدأ البسيط له نتائج هائلة، فهو أساس آلية اللغة بأكملها. (Alukah.net, 2017)

6-4- العلاقات التركيبية والعلاقات الاستبدالية

بما أن اللغة نظام، فإن قيم عناصرها تتحدد من خلال شبكة من العلاقات. يميز سوسير بين نوعين أساسيين من العلاقات التي تنظم اللغة:

- العلاقات التركيبية (Syntagmatic Relations)

هي علاقات "حاضرة" (in praesentia)، تقوم على ربط الوحدات اللغوية بعضها ببعض في السلسلة الكلامية الخطية. إنها علاقات تأليف وتجاور. فعندما نتكلم، نركب الكلمات في جمل، وهذه الكلمات المترابطة تشكل "مركبًا" (syntagme). "ففي جملة" "الطقس جميل"، هناك علاقة تركيبية بين "الطقس" و"جميل". هذه العلاقات يمكن أن تكون بين أصوات لتكوين كلمة (ق+ل+م)، أو بين كلمات لتكوين جملة. إنها تعمل على المحور الأفقي للكلام، وتخضع لقيود لغوية محددة. (Bahethoarabia, s.d.)

"فاللغة ليست مجرد رصف للعناصر ولكنها تضافر عمليتين مترامنتين هما التوزيع والاختيار المتعلقان - على التوالي - بالعلاقات التركيبية والعلاقات الترابطية". (E-learning. univ-.dbkm, s.d.)

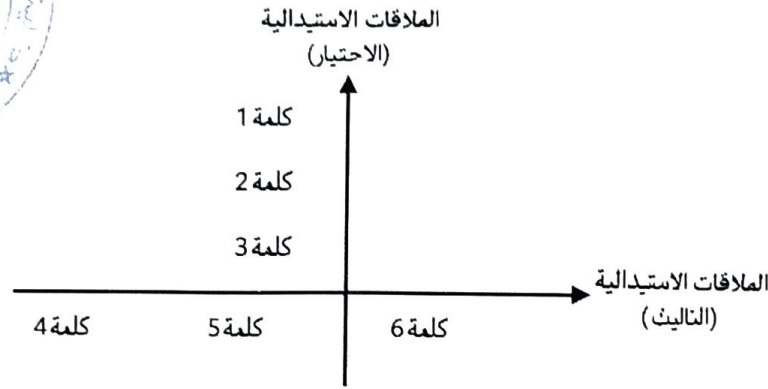
- العلاقات الاستبدالية (Paradigmatic Relations)

هي علاقات "غائبة" (in absentia)، وتقوم على أساس الارتباط الذهني بين وحدات لغوية تشترك في خاصية ما. إنها علاقات اختيار واستبدال. في كل نقطة من السلسلة الكلامية، يختار المتكلم وحدة من بين مجموعة من الوحدات الأخرى التي كان من الممكن أن تحل محلها. ففي جملة "الطقس جميل"، كلمة "جميل" تنتمي إلى مجموعة (أو جدول) من الكلمات التي يمكن أن تحل محلها مثل: "حار"، "بارد"، "معتدل"، "رائع". هذه المجموعة من الكلمات المترابطة ذهنيًا تشكل "علاقة استبدالية" (أو ترابطية كما سماها سوسير في البداية). هذه العلاقات تعمل على المحور العمودي للذاكرة والاختيار. (Bahethoarabia, s.d.)

كل فعل لغوي هو نتيجة لتفاعل هذين المحورين: المحور التركيبي (الأقفي) الذي يحدد كيفية الجمع بين العناصر، والمحور الاستبدالي (العمودي) الذي يوفر الخيارات المتاحة في كل موقع.



شكل إنا (2)، العلاقات التركيبية والملاقات الاستبدالية



- المحور الأقفي، الملاقات التركيبية (التأليف)

- المحور العمودي، الملاقات الاستبدالية (الاختيار).

شكل (2): المحور الأفقي يمثل العلاقات التركيبية (التأليف)، والمحور العمودي يمثل العلاقات الاستبدالية (الاختيار).

خلاصة

لقد شكلت أفكار فردينان دي سوسير منعطفًا حاسمًا في تاريخ الفكر اللغوي، حيث نقل دراسة اللغة من الهامش إلى المركز، ومن الوصف التاريخي المتناثر إلى التحليل البنوي المنهجي. من خلال تحديده الدقيق لموضوع اللسانيات (اللسان)، وتأكيد على أن اللغة نظام من العلاقات، وتقديمه لمجموعة من الثنائيات المنهجية (اللغة/الكلام، الآني/الزمني، الدال/المدلول، التركيب/الاستبدال)، وضع سوسير الأسس الصلبة لللسانيات الحديثة كعلم مستقل وقائم بذاته. ورغم أن بعض أفكاره قد تعرضت للنقد والتطوير لاحقًا على يد مدارس لسانية أخرى (كالتوليديّة التحويلية لتشومسكي)، إلا أن أثره لا يزال عميقًا وممتدًا. فكل من جاء بعده، إما انطلق من أفكاره لتطويرها، أو عارضها لتأسيس بديل، وفي كلتا الحالتين، كان سوسير هو نقطة الانطلاق والمحاور الأساسي. لقد فتح الباب أمام دراسة اللغة كبنية شكلية، وهو ما مهد

https://www.alukah.net/literature_language/0/123194/

- اللسانيات الحديثة مفهومها/موضوعها/مجالاتها: (الأنية والزمنية). (2023، 11 ديسمبر). UDBKM E-learning.

<http://moodle.univ-dbkkm.dz/mod/page/view.php?id=13741>

- مدارس لسانية 4. (د.ت). UDBKM E-learning. تم الاسترداد من

<http://elearning.univ-dbkkm.dz/course/view.php?id=6698>

- مزوز، د. (2013). ثنائيات اللغة – أصول النظرية اللسانية. [ورقة مقدمة]. ندوة اللسانيات: مائة عام من الممارسة، جامعة محمد خيضر، بسكرة

<https://lab.univ-biskra.dz/lla/images/pdf/nadoua/26-11-2013/2.pdf>

- ملخص كتاب دي سوسير: محاضرات في اللسانيات العام. (2024، 9 ديسمبر). ملخص كتاب

<https://mulakhaskitab.com/> / ملخص كتاب دي-سوسير-محاضرات في-اللسانيات

- موضوع. (د.ت-أ). فرديناند دي سوسير (عالم لغوي). تم الاسترداد من

<https://mawdoo3.com/> فرديناند دي سوسير (عالم لغوي)

- موضوع. (د.ت-ب). ثنائية الدال والمدلول عند دي سوسير. تم الاسترداد من

<https://mawdoo3.com/> ثنائية الدال والمدلول عند دي سوسير

- ويكيبيديا. (2024، 25 أغسطس). فردينان دو سوسور

https://ar.wikipedia.org/wiki/فردينان_دو_سوسور

المحاضرة الثالثة: حلقة موسكو اللغوية

مقدمة

تُعدّ حلقة موسكو اللغوية (Moscow Linguistic Circle)، التي تأسست في موسكو عام 1915، إحدى أهم الحركات الفكرية التي أرست دعائم اللسانيات البنيوية والنقد الأدبي الحديث في القرن العشرين. نشأت هذه الحلقة في خضم التحولات السياسية والفكرية التي كانت تشهدها روسيا، كرد فعل على المناهج النقدية السائدة آنذاك، والتي كانت تركز على العوامل الخارجية للنص الأدبي، كالسيرة الذاتية للكاتب أو السياق الاجتماعي والتاريخي، وتهمل النص بحد ذاته. تأسست الحلقة على يد مجموعة من الطلبة والباحثين الشباب في جامعة موسكو، وكان على رأسهم رومان ياكوبسون (Roman Jakobson)، الذي سيصبح لاحقاً أحد أبرز علماء اللغة والنقاد في العالم. سعت الحلقة إلى تأسيس "علم للأدب" يكون مستقلاً وموضوعياً، يركز على الخصائص الداخلية للنص التي تجعل منه عملاً أدبياً. ارتبطت حلقة موسكو ارتباطاً وثيقاً بحركة أخرى هي "جمعية دراسة اللغة الشعرية (OPOYAZ)" في سانت بطرسبرغ، وشكلتا معاً ما عُرف لاحقاً باسم "المدرسة الشكلانية الروسية" (Radunović, 2017). هدفت هذه المحاضرة إلى استكشاف المبادئ الأساسية التي قامت عليها حلقة موسكو، مع التركيز على مفهوم "أدبية الأدب" ومحورية الشكل في التحليل. كما سنتناول بالتفصيل إسهامات رومان ياكوبسون، بوصفه العقل المدبر للحلقة، من خلال تتبع مسيرته العلمية وأعماله التأسيسية، ولا سيما نظريته الشهيرة حول وظائف اللغة التي أحدثت ثورة في فهم عملية التواصل اللغوي.

1- مبادئ حلقة موسكو الشكلية:

قامت حلقة موسكو على مجموعة من المبادئ الثورية التي شكلت قطيعة مع التقاليد النقدية السابقة. تمحورت هذه المبادئ حول فكرة جوهرية، وهي أن موضوع الدراسة الأدبية ليس الأدب بمعناه الواسع، بل "الأدبية (Literariness)"، أي مجموع السمات التي تميز اللغة الأدبية عن غيرها من أشكال الخطاب.



أ- أدبية الأدب (Littérarité)

يُعد مفهوم "الأدبية" حجر الزاوية في فكر الشكلايين الروس. طرح ياكبسون في عام 1921 سؤالاً محورياً: "ما الذي يجعل من عمل ما عملاً أدبياً؟". لم تكن الإجابة تكمن في محتوى العمل أو رسالته الأخلاقية أو الاجتماعية، بل في طريقة استخدامه للغة. عرّف ياكبسون الأدبية بأنها "ما يجعل رسالة لفظية معينة عملاً فنياً". (Jakobson, 1960, p. 350) "بهذا، تحول اهتمام النقد من "لماذا قال الكاتب ما قال؟" إلى "كيف قال ما قال؟"، أي من دراسة الدوافع الخارجية إلى تحليل البنية الداخلية والتقنيات الفنية للنص.

لقد سعى الشكلايون إلى الكشف عن الأساليب الفنية التي تحوّل اللغة العادية، التي تستخدم للتواصل اليومي، إلى لغة شعرية ذات وظيفة جمالية. ففي اللغة العادية، تكون الكلمات مجرد وسائل شفافة لنقل المعنى، أما في اللغة الأدبية، فتكتسب الكلمات قيمة مستقلة وتصبح "محسوسة" في ذاتها. هذا التركيز على "محسوسة" الشكل هو ما يميز الأدب (Erlich, 1973). ومن هنا، برزت مفاهيم أساسية مثل "التغريب" (Defamiliarization) الذي صاغه فيكتور شيكلوفسكي، ويعني تقديم الأشياء المألوفة بطريقة غير مألوفة لكسر رتابة الإدراك الآلي وتجديد رؤيتنا للعالم.

ب- العناية بالشكل

انطلاقاً من مفهوم الأدبية، أولت حلقة موسكو أهمية قصوى لـ "الشكل" (Form) لم يعد الشكل مجرد وعاء للمحتوى، بل أصبح هو المحتوى ذاته. رفض الشكلايون الثنائية التقليدية بين الشكل والمضمون، مؤكدين أن المضمون في العمل الأدبي لا يمكن أن يوجد بمعزل عن شكله الفني. فالمادة الخام للعمل الأدبي (الأحداث، الأفكار، المشاعر) لا تكتسب قيمتها الأدبية إلا من خلال صياغتها في بنية شكلية محددة باستخدام تقنيات وأدوات فنية معينة (العبادي، 2022). ركزت دراساتهم على تحليل هذه الأدوات والتقنيات، مثل البناء الصوتي والإيقاعي في الشعر، وتقنيات السرد وبناء الحبكة في النثر، واستخدام الصور البلاغية. كانوا ينظرون إلى العمل الأدبي على أنه "مجموع أدواته الفنية" (Erlich, 1973, p. 630). على سبيل المثال، في تحليلهم للرواية، فرقوا بين "الحكاية" (Fabula)، أي المادة القصصية الخام مرتبة ترتيباً زمنياً، و"الحبكة" (Syuzhet)، وهي الطريقة الفنية التي تُعرض بها أحداث الحكاية في

النص. هذا التمييز يوضح أن القيمة الفنية لا تكمن في الأحداث نفسها، بل في كيفية تنظيمها وتقديمها للقارئ.

ج- الاهتمام بنظرية الأدب

كان الهدف الأسمى للشكلانيين الروس، ومن ضمنهم أعضاء حلقة موسكو، هو تأسيس "علم أدبي (Science of Literature)" مستقل وقائم على أسس موضوعية. لقد أرادوا أن تكون دراسة الأدب تخصصًا علميًا له منهجيته ومصطلحاته الخاصة، بدلاً من كونه مجرد فرع من فروع علم النفس أو الاجتماع أو التاريخ (حمداوي، د.ت.). يرى بوريس إخنباوم، أحد أبرز الشكلانيين، أن هدفهم كان "وضع نظرية للأدب والتاريخ الأدبي، انطلاقًا من رؤية شكلانية، بغية تأسيس منهج علمي لدراسة الأدب" (حمداوي، د.ت.، ص. 21).

هذا السعي نحو العلمية دفعهم إلى التركيز على القوانين الداخلية التي تحكم تطور الأشكال والأنواع الأدبية. فبدلاً من تفسير التغيرات الأدبية بعوامل خارجية (كتغير الظروف الاجتماعية)، حاولوا تفسيرها من خلال ديناميكيات داخلية خاصة بالنظام الأدبي نفسه، مثل تآكل الأشكال القديمة وظهور أشكال جديدة لتحقيق وظيفة "التغريب" من جديد.

د- استقلال الأدب وإقصاء المرجع الخارجي

كنتيجة منطقية للمبادئ السابقة، نادى أعضاء حلقة موسكو باستقلالية العمل الأدبي (Autonomy). لقد رفضوا بشدة المناهج النقدية التي تتعامل مع النص الأدبي كوثيقة تعكس سيرة الكاتب أو نفسيته أو الواقع الاجتماعي والسياسي. بالنسبة لهم، العمل الأدبي هو بنية مغلقة على ذاتها، ومكتفية بنفسها، ويجب تحليله من الداخل، بمعزل عن أي "مرجع خارجي" (Radunović, 2017).

هذا لا يعني أنهم أنكروا وجود علاقة بين الأدب والحياة، بل أكدوا أن هذه العلاقة ليست علاقة انعكاس مباشر. فالأدب لا يحاكي الواقع، بل "يشوّه" و"يغربه" عن قصد لتحقيق أثر جمالي. إن المادة الخام المأخوذة من الواقع تخضع لتحويل فني جذري يفقدها صلتها المباشرة بمرجعها الأصلي. لذلك، فإن البحث عن "رسالة" اجتماعية أو فلسفية في النص هو خروج عن مجال الدراسة الأدبية الصحيحة، التي يجب أن تنصب على "الوظيفة الجمالية" للغة (العبادي،

2022). هذا المبدأ كان ثوريًا وأسس لما سيعرف لاحقًا بالنقد البنيوي وما بعد البنيوي الذي يركز على "النص" وليس على "المؤلف" أو "العالم".

2- رومان جاكوبسون (Roman Jakobson)

يعد رومان ياكوبسون (1896-1982) الشخصية المحورية ليس فقط في حلقة موسكو، بل في تاريخ اللسانيات والنقد الأدبي في القرن العشرين. كان بمثابة جسر فكري ربط بين الشكلائية الروسية والبنيوية الأوروبية والأمريكية. تميزت مسيرته العلمية بتنقل مستمر بين البلدان والمجالات المعرفية، مما أثرى فكره وجعله أحد أكثر المفكرين تأثيرًا.

أ- مراحل حياته العلمية

يمكن تقسيم مسيرة ياكوبسون العلمية إلى ثلاث مراحل رئيسية، تعكس تنقلاته الجغرافية والفكرية:

1. المرحلة الروسية: (1915-1920) خلال هذه الفترة، كان ياكوبسون طالبًا في جامعة

موسكو، حيث شارك بفعالية في تأسيس "حلقة موسكو اللغوية" عام 1915. تأثر في هذه المرحلة بأعمال فرديناند دي سوسير، وسعى لتطبيق مبادئه البنيوية على دراسة اللغة الشعرية. ركزت أبحاثه المبكرة على الصوتيات (الفونولوجيا) والعلاقة بين الصوت والمعنى في الشعر، وساهم في إرساء المبادئ الأساسية للمدرسة الشكلائية (Radunović, 2017).

2. مرحلة براغ: (1920-1939) مع تصاعد الاضطرابات السياسية في روسيا، انتقل

ياكوبسون إلى براغ عام 1920. وهناك، لعب دورًا حاسمًا في تأسيس "حلقة براغ اللغوية" (Prague Linguistic Circle) عام 1926، بالتعاون مع لغويين بارزين مثل نيكولاي تروبيتسكوي. في هذه المرحلة، طور ياكوبسون أفكاره الشكلائية نحو ما يعرف بـ "البنيوية الوظيفية". لم يعد يكتفي بوصف البنية، بل سعى إلى فهم "وظيفة" كل عنصر داخل النظام اللغوي. من أبرز إسهاماته في هذه الفترة تطوير نظرية "السمات المميزة" (Distinctive Features) "في الفونولوجيا، والتي تقترح أن كل صوت لغوي (فونيم) يمكن تحليله إلى مجموعة من السمات الثنائية (مثل مجهور/مهموس).

3. المرحلة الأمريكية: (1941-1982) هرباً من الاجتياح النازي، انتقل ياكبسون إلى الولايات المتحدة عام 1941، بعد فترة قصيرة قضاها في إسكندنافيا. قام بالتدريس في جامعات مرموقة مثل كولومبيا، وهارفارد، ومعهد ماساتشوستس للتكنولوجيا (MIT). في هذه المرحلة، وصلت أفكاره إلى أوج نضجها وتأثيرها العالمي. قام بتوسيع نطاق أبحاثه لتشمل مجالات متنوعة مثل اضطرابات اللغة (الحبسة)، واكتساب اللغة عند الأطفال، والسيميوطيقا، ونظرية التواصل. وفي هذه الفترة، قدم نموذج الشهير لوظائف اللغة الست، الذي يعد تنويجاً لمسيرته الفكرية الطويلة التي جمعت بين اللسانيات والشعرية (Jakobson, 1960).

ب- أعماله: نظرية التواصل ووظائف اللغة

في مقالته التأسيسية "اللسانيات والشعرية" (Linguistics and Poetics)، طرح ياكبسون نموذجاً شاملاً لعملية التواصل اللغوي، محدداً ستة عوامل أساسية، تقابل كل منها وظيفة لغوية مهيمنة. هذه العوامل هي:

- المرسل (Addresser): الطرف الذي يرسل الرسالة.
- المرسل إليه (Addressee): الطرف الذي يستقبل الرسالة.
- السياق (Context): المرجع الذي تشير إليه الرسالة.
- الرسالة (Message): شكل الرسالة ومحتواها.
- قناة الاتصال (Contact): القناة المادية والنفسية التي تربط بين المرسل والمرسل إليه.

• السنن (Code): النظام المشترك (اللغة) الذي يسمح بتشفير الرسالة وفك تشفيرها. ويرى ياكبسون أن هيمنة أحد هذه العوامل في موقف تواصل معين يحدد الوظيفة الأساسية للغة في ذلك الموقف. ورغم أن كل الرسائل اللفظية قد تتضمن عدة وظائف، إلا أن وظيفة واحدة تكون هي المهيمنة (Jakobson, 1960). وفيما يلي شرح لهذه الوظائف:

1- الوظيفة التعبيرية أو الانفعالية (Emotive Function)

تتركز هذه الوظيفة حول المرسل، وتهدف إلى التعبير المباشر عن موقفه أو مشاعره أو حالته النفسية تجاه ما يتحدث عنه. لا تهدف هذه الوظيفة إلى نقل معلومات موضوعية، بل إلى إظهار

ذاتية المتكلم. تتجلى هذه الوظيفة بوضوح في استخدام التعابير الانفعالية (مثل "أه!", "يا للروعة!"), وفي نبرة الصوت، وفي اختيار مفردات معينة تعكس شعوراً ما على سبيل المثال، جملة "هذا الطقس رائع!" لا تصف فقط حالة الجو، بل تعبر بشكل استثنائي عن شعور المتكلم بالرضا والسعادة (حمداوي، د.ت.).

2- الوظيفة الإفهامية أو التأثيرية (Conative Function)

تتركز هذه الوظيفة حول المرسل إليه، وتهدف إلى التأثير فيه أو توجيه سلوكه. تتجلى هذه الوظيفة في صيغ الأمر والنداء والطلب. الهدف هنا هو دفع المتلقي للقيام بفعل معين أو اتخاذ موقف ما. الأمثلة الأكثر وضوحاً هي الجمل الأمرية مثل "أغلق الباب!" أو "استمع جيداً!". كما تظهر في الخطاب الإعلاني والسياسي الذي يسعى إلى إقناع المتلقي والتأثير في قراراته.

3- الوظيفة المرجعية (Referential Function)

تتركز هذه الوظيفة حول السياق أو المرجع، وهي الوظيفة الأكثر شيوعاً في التواصل اليومي. هدفها الأساسي هو نقل معلومات موضوعية وحقائق عن العالم الخارجي. تتميز هذه اللغة بالحياد والموضوعية والوضوح، وتهيمن على الخطاب العلمي والأكاديمي والأخبار الصحفية. مثال على ذلك جملة "الماء يغلي عند درجة حرارة 100 مئوية"، حيث يكون التركيز كاملاً على المعلومة الواقعية المنقولة (Jakobson, 1960).

4- الوظيفة الانتباهية أو الحفاظ على التواصل (Phatic Function)

تتركز هذه الوظيفة حول قناة الاتصال، وهدفها ليس نقل المعلومات، بل إنشاء الاتصال أو إبطائه أو التحقق من استمراريته. إنها اللغة التي نستخدمها "للتأكد من أن الخط لا يزال مفتوحاً". تشمل هذه الوظيفة عبارات التحية والوداع (مثل "مرحباً"، "كيف حالك؟")، والعبارات التي نستخدمها أثناء محادثة هاتفية للتأكد من أن الطرف الآخر لا يزال يسمع (مثل "ألو؟"، "هل تسمعي؟")، أو حتى همهمات الاستماع (مثل "نعم"، "أها"). في بعض الأحيان، قد تكون المحادثة بأكملها ذات وظيفة انتباهية، حيث يكون الهدف هو مجرد التفاعل الاجتماعي وليس تبادل المعلومات (حمداوي، د.ت.).

5- وظيفة ما وراء اللغة (Metalingual Function)

تتركز هذه الوظيفة حول السنن (Code) نفسه. نستخدم هذه الوظيفة عندما نتحدث عن اللغة باستخدام اللغة. هدفها هو التأكد من أن المرسل والمرسل إليه يستخدمان نفس الشفرة اللغوية ويفهمانها بنفس الطريقة. تتجلى هذه الوظيفة في الأسئلة عن معنى كلمة (مثل "ماذا تقصد بكلمة 'بنيوية'؟")، وفي التعريفات والشروحات اللغوية والقواعد النحوية. كلما احتجنا إلى شرح اللغة أو توضيحها، فإننا نستخدم الوظيفة الما وراء لغوية.

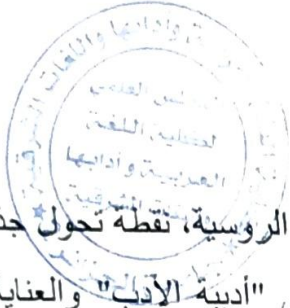
6- الوظيفة الشعرية (Poetic Function)

تتركز هذه الوظيفة حول الرسالة ذاتها، من أجل ذاتها. هنا، لا يكون الاهتمام بالمرسل أو المتلقي أو السياق، بل بشكل الرسالة نفسها، بجمالياتها، وبنيتها الصوتية والتركيبية والإيقاعية. يرى ياكبسون أن هذه الوظيفة ليست حكرًا على الشعر، بل يمكن أن توجد في أي خطاب، لكنها تكون الوظيفة المهيمنة في الفن الأدبي (Jakobson, 1960).

يعرف ياكبسون الوظيفة الشعرية بأنها "إسقاط مبدأ التكافؤ من محور الاختيار على محور التوزيع". بعبارة أبسط، في اللغة العادية، نختار الكلمات من مجموعة من المترادفات (محور الاختيار) ونرتبها في جملة (محور التوزيع). أما في اللغة الشعرية، فإننا نختار الكلمات ونرتبها ليس فقط بناءً على معناها، بل أيضًا بناءً على أوجه التشابه والتكافؤ بينها في الصوت والإيقاع والوزن. هذا الاهتمام بشكل الرسالة هو ما يخلق "الأدبية" ويجعل اللغة محسوسة وملموسة، بدلاً من أن تكون مجرد أداة شفاف لنقل المعنى (العبادي، 2022).

تتجلى هذه الوظيفة في الشعر من خلال الوزن والقافية والجناس والطباق والتوازي وغيرها من الأدوات التي تلفت الانتباه إلى بنية النص اللغوية. كما تظهر في النثر في السجع، والإيقاع، والجمال المتوازنة، وفي الشعارات الإعلانية التي تستخدم الجناس والتورية لتكون سهلة الحفظ وجذابة (مثل شعار "Enjoy Coca-Cola").

"على الرغم من أننا نميز ستة جوانب أساسية للغة، إلا أننا نادرًا ما نجد رسائل لفظية تحقق وظيفة واحدة فقط. يكمن التنوع ليس في احتكار وظيفة واحدة، بل في الترتيب الهرمي المختلف بينها. البنية اللفظية للرسالة تعتمد في المقام الأول على الوظيفة المهيمنة (Jakobson, 1960, p. 353).



خلاصة

مثلت حلقة موسكو اللغوية، بوصفها النواة الأولى للشكلانية الروسية، نقطة تحول جذرية في تاريخ الدراسات اللغوية والأدبية. من خلال تركيزها على "أدبية الأدب" والعناية الفائقة بالشكل، نجحت في تحرير الدراسة الأدبية من هيمنة المناهج الخارجية (النفسية والاجتماعية والتاريخية)، وأسست لـ "علم أدبي" مستقل يدرس النص بوصفه بنية لغوية مكتفية بذاتها.

كان رومان ياكبسون، العقل المحرك لهذه الحركة، هو الذي ضمن استمرارية وتطور هذه الأفكار عبر مراحل حياته المختلفة، من موسكو إلى براغ ثم إلى الولايات المتحدة. لقد طور المبادئ الشكلانية الأولية إلى نظرية بنيوية وظيفية متكاملة، توجت بنموذجه الشهير لوظائف اللغة الست. هذا النموذج لم يقدم فقط أداة تحليلية قوية لفهم تعقيدات التواصل البشري، بل نجح أيضًا في تحديد مكانة "الوظيفة الشعرية" ضمن إطار لساني شامل، مؤكدًا أن دراسة الشعرية (Poetics) هي جزء لا يتجزأ من علم اللسانيات.

إن إرث حلقة موسكو وياكبسون لا يزال حيًا ومؤثرًا حتى اليوم. فمفاهيم مثل "الأدبية"، و"استقلالية النص"، والتركيز على البنية الداخلية، والوظائف المتعددة للغة، قد شكلت الأساس الذي قامت عليه مدارس نقدية لاحقة كالبنويوية، والسيميوطيقا، ونظريات التلقي، ولا تزال تمثل أدوات منهجية أساسية لأي باحث في مجال اللغة والأدب.

أسئلة حول المحاضرة لمناقشتها مع الطلبة

1. ما هو الفرق الجوهرى بين مفهوم "الأدب" ومفهوم "الأدبية" عند الشكلانيين الروس؟ وكيف غير هذا التمييز مسار النقد الأدبي؟
2. "الشكل هو المحتوى". ناقش هذه المقولة في ضوء مبادئ حلقة موسكو. هل يمكن بالفعل فصل الشكل عن المضمون في العمل الأدبي؟ قدم أمثلة.
3. لماذا أصر الشكلانيون على "استقلال" الدراسة الأدبية وإقصاء المرجع الخارجى؟ ما هي إيجابيات وسلبيات هذا الموقف المنهجي؟
4. تتبع مسيرة رومان ياكبسون الفكرية. كيف تطورت أفكاره من "الشكلانية" في موسكو إلى "البنويوية الوظيفية" في براغ؟

5. اختر نصًا قصيرًا (إعلانًا تجاريًا، بيت شعر، محادثة يومية) وحاول تحليله باستخدام نموذج ياكبسون لوظائف اللغة. ما هي الوظيفة المهيمنة؟ وما هي الوظائف الثانوية الموجودة؟

6. يشرح ياكبسون الوظيفة الشعرية بأنها "إسقاط مبدأ التكافؤ من محور الاختيار على محور التوزيع". حاول تبسيط هذا التعريف وشرحه بكلماتك الخاصة مع تقديم أمثلة توضيحية.

7. هل يمكن اعتبار الوظيفة الشعرية حكرًا على الأدب فقط؟ أين يمكن أن نجد تجليات للوظيفة الشعرية في حياتنا اليومية خارج نطاق الشعر والرواية؟

8. ما هو الأثر الذي تركته حلقة موسكو وأفكار ياكبسون على الدراسات اللسانية والنقدية العربية المعاصرة؟

قائمة المراجع

- العبادي، عبد الحق. (2022). محاضرات المدارس اللسانية. جامعة ابن خلدون/تيارت.
- حمداوي، جميل. (د.ت.). النظرية الشكلانية في الأدب والنقد والفن. منشورات نظرية المنهج الشكلي.
- Jakobson, R. (1960). Linguistics and Poetics. In T. A. Sebeok (Ed.), Style in Language (pp. 350-377). MIT Press.
- Erlich, V. (1973). Russian Formalism. Journal of the History of Ideas, 34(4), 627-638. <https://doi.org/10.2307/2708893>
- Radunović, D. (2017). The Emergence of Modern Scientific Communities in Late Imperial and Early Soviet Russia: The Case of the Moscow Linguistic Circle. The Slavonic and East European Review, 95(1), 1-29. <https://doi.org/10.5699/slaveasteurorev2.95.1.0001>

المحاضرة الرابعة: مدرسة براغ (1)

مقدمة: المنهج البنيوي الوظيفي في مدرسة براغ

تُعد مدرسة براغ اللسانية، أو كما تُعرف بـ "حلقة براغ اللسانية (Prague Linguistic Circle)"، إحدى أهم المدارس اللسانية التي ظهرت في أوروبا خلال النصف الأول من القرن العشرين. تأسست الحلقة رسميًا في براغ عام 1926 على يد مجموعة من اللغويين التشيكيين والروس، وكان على رأسهم فيلم ماثيسوس (Vilém Mathesius) الذي يُعتبر مؤسسها ورئيسها الأول (Britannica, 2025a). شكلت هذه المدرسة نقطة تحول حاسمة في تاريخ علم اللغة، حيث نجحت في بناء جسر متين بين البنيوية الشكلية التي أرسى دعائمها فردينان دي سوسير، وبين التحليل الوظيفي الذي يركز على الغاية التواصلية للغة.

استفادت حلقة براغ من آراء سوسير، خاصة فيما يتعلق بالنظر إلى اللغة كنظام (System) متكامل من العلامات، ودراسة اللغة دراسة أنية (synchronique) تصف حالتها في فترة زمنية محددة. لكنها لم تقف عند هذا الحد، بل تجاوزت الشكلانية الصرفة لتضيف بُعدًا جديدًا هو "الوظيفة (Function)" فبينما ركز سوسير على العلاقات الداخلية بين عناصر النظام اللغوي، اهتم أعضاء حلقة براغ بالكيفية التي يُستخدم بها هذا النظام لتحقيق أغراض تواصلية محددة (Galan, 1985). من هنا، وُصف منهجها بأنه "بنيوي-وظيفي" (Structural-Functionalism)، وهو ما يُعد السمة الأكثر تمييزًا لها (Britannica, 2025b).

لقد نظر علماء براغ إلى اللغة باعتبارها "نظامًا من وسائل التعبير الهادفة"، أي أن كل عنصر في البنية اللغوية، سواء كان صوتًا، أو كلمة، أو تركيبًا، لا يكتسب قيمته من مجرد وجوده داخل النظام، بل من الوظيفة التي يؤديها في عملية التواصل. هذا التوجه جعلهم يوجهون أنظارهم إلى ميادين بحثية جديدة لم تكن تحظى باهتمام كبير من قبل، مثل الفونولوجيا (علم الأصوات الوظيفي)، ووظائف اللغة، واللغة الشعرية، والأسلوبية. لقد كان إسهامهم بمثابة

برنامج عمل جديد لأهداف النظرية اللسانية، حيث ربطوا بدقة بين البنية والوظيفة، وفتحوا المجال واسعاً أمام اللسانيات المعاصرة لدراسة اللغة بشكل منهجي وعلمي متكامل. كانت الحلقة بمثابة بوتقة انصهرت فيها أفكار متنوعة؛ فقد جمعت بين التقاليد اللسانية التشكيكية المحلية، والإسهامات النظرية الثرية للمهاجرين الروس الذين تأثروا بالشكلانية الروسية، بالإضافة إلى الانفتاح على أفكار من أوروبا الغربية وأمريكا (Galan, 1985). هذا التنوع الفكري أثرى نقاشات الحلقة وجعلها مركزاً حيوياً للبحث اللساني في فترة ما بين الحربين العالميتين، وأسس لإرث نظري لا يزال تأثيره ممتداً في مختلف فروع اللسانيات حتى يومنا هذا.

مبادئ مدرسة براغ

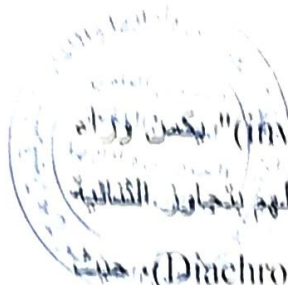
قامت مدرسة براغ على مجموعة من المبادئ الأساسية التي شكلت إطارها النظري والمنهجي، وميزتها عن غيرها من المدارس اللسانية. يمكن تلخيص هذه المبادئ في النقاط التالية:

1- الجمع بين البنيوية والوظيفية:

يُعد هذا المبدأ حجر الزاوية في فكر مدرسة براغ. ففي حين تبنت المدرسة المفهوم البنيوي للغة كنظام متكامل من العلاقات، فإنها رفضت دراسة هذه البنية ككيان مجرد ومعزول. بدلاً من ذلك، أصرت على أن البنية اللغوية لا يمكن فهمها فهماً حقيقياً إلا من خلال ربطها بالوظائف التي تؤديها (Britannica, 2025b). فكل عنصر لغوي له وظيفة محددة تخدم الغاية النهائية للغة، وهي التواصل. هذا الربط المنهجي بين الشكل والوظيفة هو ما يُعرف بـ "البنيوية الوظيفية"، وهو ما جعل من الممكن تحليل الظواهر اللغوية ليس فقط من حيث تركيبها الداخلي، ولكن أيضاً من حيث غايتها التواصلية.

2- اللغة نظام وظيفي ديناميكي:

نظراً لتركيزها على الوظيفة، رأت مدرسة براغ أن اللغة ليست نظاماً ثابتاً ومغلقاً (static)، بل هي نظام ديناميكي مرن يتكيف باستمرار لتلبية الاحتياجات التواصلية لمستخدميه. أشار فيلم ماثيسوس، مؤسس الحلقة، في محاضراته المبكرة "حول إمكانية الظواهر اللغوية" (1911)، إلى أن الظواهر اللغوية تظهر تبايناً، لكن هذا التباين ليس عشوائياً،



بل يميل نحو اتجاه معين، مما يسمح باكتشاف "نمط" أو "ثابت" (invariant) "يضمن وراثة الاستعمالات المتعددة (Nekula, 1999). هذا الفهم الديناميكي للغة سمح لهم بتجاوز الثنائية الصارمة التي وضعها سوسير بين الانية (Synchrony) والتاريخية (Diachrony). حيث رأوا أن التغير اللغوي نفسه هو عملية نظامية وهادفة يمكن دراستها من منظور وظيفي (Doležel, 2020).

3- التمييز بين علم الأصوات (Phonetics) والفونولوجيا: (Phonology)

يُنسب إلى مدرسة براغ، وتحديدًا إلى نيكولاي تروبتسكوي، الفضل في إرساء حدود واضحة ومنهجية بين هذين العلمين. فبينما يهتم علم الأصوات بالجانب المادي للأصوات اللغوية (طريقة نطقها وخصائصها الفيزيائية)، تركز الفونولوجيا على "وظيفة" هذه الأصوات داخل النظام اللغوي (Trubetzkoy, 1969). الفونولوجيا لا تدرس الصوت في حد ذاته، بل تدرسه كوحدة وظيفية (فونيم) قادرة على التمييز بين المعاني. على سبيل المثال، الفرق بين صوتي /b/ و /p/ في كلمتي "باب" و "ثاب" هو فرق فونولوجي لأنه يؤدي إلى اختلاف في المعنى، بينما قد توجد اختلافات طفيفة في نطق صوت /b/ بين متكلم وآخر لا تؤثر على المعنى، وهذه تقع في مجال اهتمام علم الأصوات.

4- مفهوم الوظيفة المهيمنة والوظائف المتعددة للغة:

انطلاقًا من تحليل كارل بوهلر لوظائف اللغة الثلاث (المرجعية، التعبيرية، والتأثيرية)، طور أعضاء حلقة براغ، وعلى رأسهم رومان ياكبسون لاحقًا، نظرية أكثر تفصيلًا لوظائف اللغة. أقرّوا بأن أي ملفوظ لغوي قد يؤدي عدة وظائف في آن واحد، ولكن عادة ما تكون هناك "وظيفة مهيمنة (Dominant Function)" تحدد طبيعة الخطاب. على سبيل المثال، في الشعر، تكون الوظيفة الجمالية أو الشعرية هي المهيمنة، حيث يتم التركيز على شكل الرسالة نفسها، وهذا ما يميز لغة الأدب عن اللغة العادية التي تهتم عليها الوظيفة المرجعية (الإخبارية) (Britannica, 2025b). هذا المبدأ فتح أفاقًا جديدة في مجال الأسلوبية والنقد الأدبي.

5- التمييز بين اللغة المعيارية (Standard Language) واللغة الشعرية (Poetic Language):

بناءً على مبدأ الوظيفة المهيمنة، ميزت مدرسة براغ بين اللغة المعيارية، التي يكون هدفها الأساسي هو التواصل الآلي (automatized) والواضح، واللغة الشعرية، التي تسعى إلى كسر هذا الطابع الآلي من خلال عملية "الإبراز" أو "التقديم (Foregrounding)" في اللغة الشعرية، يتم استخدام الموارد اللغوية بطرق غير مألوفة لجذب انتباه المتلقي إلى شكل الرسالة ذاتها، مما يخلق أثرًا جماليًا (Doležel, 2020). هذا المفهوم، الذي يعود في جذوره إلى الشكلايين الروس، تم تطويره وتعميقه في إطار النظرية الوظيفية لمدرسة براغ.

6- المنهج التقابلي: (Contrastive Method)

دعا فيلم ماثيسوس إلى ضرورة إجراء مقارنات آنية بين اللغات، حتى لو لم تكن تنتمي إلى عائلة لغوية واحدة. الهدف من هذه المقارنة ليس تتبع التطور التاريخي، بل الكشف عن "الخصائص اللغوية (Linguistic Characterology)" لكل لغة، أي تحديد السمات البنيوية والوظيفية التي تميزها عن غيرها (Mathesius, 1975). يقوم هذا المنهج على فكرة أن الاحتياجات التواصلية (tertium comparationis) هي قاسم مشترك بين البشر، لكن كل لغة تختار وسائل مختلفة لتحقيقها. على سبيل المثال، يمكن مقارنة كيفية تعبير اللغة الإنجليزية واللغة العربية عن الفاعل، أو ترتيب مكونات الجملة، للكشف عن الاختلافات الجوهرية في "شخصية" كل لغة.

هذه المبادئ مجتمعة شكلت رؤية متكاملة للغة كنظام بنيوي هادف، ووضعت الأسس لمنهجية تحليلية ثرية أثرت بشكل عميق في مسار اللسانيات الحديثة.

أقطاب حلقة براغ اللسانية

ضمت حلقة براغ نخبة من ألمع اللغويين الأوروبيين في عصرهم، الذين أسهمت أعمالهم في تشكيل نظريات المدرسة وتطويرها. سنتناول في هذا الجزء اثنين من أبرز أقطابها المؤسسين: فيلم ماثيسوس ونيكولاي تروبتسكوي.

1- فيلم ماثيسوس (Vilém Mathesius, 1882-1945)

يُعتبر فيلم ماثيسوس، اللغوي التشيكي وأستاذ اللغة الإنجليزية وأدائها في جامعة تشارلز ببراغ، الأب الروحي والمؤسس الفعلي لحلقة براغ اللسانية. ففي عام 1926، بادر إلى تأسيس الحلقة وتولى رئاستها، موفرًا لها الإطار التنظيمي والتوجه النظري الواضح (Britannica, 2025a). كان ماثيسوس بنويًا في تفكيره حتى قبل التأسيس الرسمي للحلقة، حيث دعا في محاضراته الشهيرة عام 1911 بعنوان "حول إمكانية الظواهر اللغوية" إلى أهمية الدراسة الآنية (غير التاريخية) للغة، وهو ما يُعتبر استباقًا لأفكار سوسير حول التمييز بين "اللسان (Langue)" و"الكلام (Parole)" (Britannica, 2025c).

تكمن أهم إسهامات ماثيسوس في تطوير ما أسماه "اللسانيات الوظيفية" (Functional Linguistics). انطلق ماثيسوس من فكرة أساسية مفادها أن اللغة يجب أن تُدرس من "وجهة نظر المتكلم" واحتياجاته التواصلية (Nekula, 1999). وقد قاده هذا التوجه إلى تطوير مفهومين رئيسيين:

• الخصائص اللغوية: (Linguistic Characterology) وهو منهج تقابلي أني

يهدف إلى تحديد السمات المميزة لبنية لغة ما مقارنة بلغات أخرى. يرى ماثيسوس أن كل لغة لها "شخصيتها" الخاصة التي تتجلى في ميلها لاستخدام بنى نحوية أو صرفية معينة دون غيرها لتحقيق نفس الغرض التواصلية. على سبيل المثال، لاحظ أن اللغة الإنجليزية تميل إلى استخدام الفاعل (Subject) كمحور للجملة حتى لو لم يكن فاعلاً حقيقياً (Agent)، بينما تميل اللغات السلافية مثل التشيكية إلى ربط وظيفة الفاعل النحوي بالفاعل الدلالي بشكل أوثق (Mathesius, 1975).

• منظور الجملة الوظيفي: (Functional Sentence Perspective - FSP) يُعد

هذا المفهوم من أشهر إسهامات ماثيسوس. يتعلق هذا المفهوم بكيفية تنظيم المعلومات داخل الجملة لخدمة أغراض التواصل. ميز ماثيسوس بين "منطلق الحديث" (Theme)، وهو الجزء الذي يحتوي على معلومات معروفة أو مُفترضة لدى المستمع (الموضوع)، و"نواة الحديث" (Rheme)، وهو الجزء الذي يقدم المعلومة الجديدة (المحمول). يرى ماثيسوس أن ترتيب هذه المكونات في الجملة ليس عشوائياً، بل يتبع

"مبدأ الدينامية التواصلية"، حيث تميل الجملة إلى الانتقال من المعلومات الأقل ديناميكية (المعروفة) إلى المعلومات الأكثر ديناميكية (الجديدة) (Nekula, 1999). وقد أثرت هذه النظرية بشكل كبير في تطور لسانيات النص وتحليل الخطاب. لم تقتصر اهتمامات ماثيسوس على النحو واللسانيات العامة، بل امتدت أيضا إلى الفونولوجيا، حيث أجرى أبحاثاً حول "الحمل الوظيفي (Functional Load)" للفونيمات، أي مدى تواتر استخدام تقابل صوتي معين للتمييز بين الكلمات في لغة ما. على الرغم من أن بصره الضعيف حال دون إكماله للعديد من مشاريعه الكبرى، إلا أن أفكاره الرائدة ونشاطه التنظيمي كانا القوة الدافعة وراء نجاح حلقة براغ وتأثيرها العالمي (Britannica, 2025c).

2- نيكولاي تروبتسكوي (Nikolai Trubetzkoy, 1890-1938)

يُعد الأمير الروسي نيكولاي سيرجيفيتش تروبتسكوي أحد أبرز أعضاء حلقة براغ وأحد الآباء المؤسسين لعلم الفونولوجيا الحديث. بعد فراره من الثورة البلشفية، استقر في فيينا وأصبح عضواً فاعلاً في حلقة براغ عن بعد، حيث وجد بيئة فكرية خصبة لتطوير نظرياته. كان لتعاونه الوثيق مع صديقه رومان ياكبسون دور كبير في بلورة أفكارهما المشتركة، لكن يظل كتابه "مبادئ الفونولوجيا (Grundzüge der Phonologie)"، الذي نُشر بعد وفاته عام 1939، العمل الأهم والأشمل الذي يلخص منهج مدرسة براغ في دراسة الأصوات (Trubetzkoy, 1969).

تتمحور إسهامات تروبتسكوي الرئيسية حول التأسيس المنهجي لعلم الفونولوجيا كنظام مستقل عن علم الأصوات الفيزيائي. وقد بنى نظريته على عدة مفاهيم أساسية:

- التمييز بين الفونيتيك والفونولوجيا: كما ذكرنا سابقاً، أوضح تروبتسكوي أن الفونولوجيا لا تهتم بالخصائص المادية للصوت، بل "بوظيفته في النظام اللغوي"، أي قدرته على التفريق بين المعاني (Dresher, 2019). لقد شبه العلاقة بينهما بالعلاقة بين علم الاقتصاد وعلم المسكوكات (Numismatics)؛ فالأخير يدرس القطع النقدية من حيث مادتها وشكلها، أما الأول فيدرس قيمتها التبادلية ووظيفتها في النظام الاقتصادي.

• نظرية التقابلات الفونولوجية (Theory of Phonological Oppositions):

رأى تروبتسكوي أن الفونيم لا يكتسب قيمته بشكل منعزل، بل من خلال شبكة العلاقات التقابلية التي يدخل فيها مع الفونيمات الأخرى في نفس اللغة. فالفونيم /d/ في اللغة العربية لا يُعرّف بخصائصه النطقية فقط، بل بكونه يتقابل مع /t/ (في تقابل الجهر والهمس)، ومع /n/ (في تقابل الأنفي والشفوي)، ومع /b/ (في تقابل المكان)، وهكذا. وقد صنف هذه التقابلات إلى أنواع مختلفة (ثنائية، متعددة، متناسبة، معزولة)، مما سمح بتحليل الأنظمة الصوتية بطريقة منهجية ودقيقة (Dresher, 2019).

• الفونيم كمجموعة من السمات المميزة (Phoneme as a Bundle of Distinctive Features):

انطلاقاً من نظرية التقابلات، خلص تروبتسكوي إلى أن الفونيم ليس أصغر وحدة صوتية غير قابلة للتحليل، بل هو عبارة عن "حزمة" أو "مجموعة" من السمات المميزة (Distinctive Features). هذه السمات هي الخصائص الصوتية (مثل: جهوري، أنفي، شفوي) التي تكون ذات صلة وظيفية في لغة معينة، أي أنها تُستخدم لخلق تقابلات مميزة للمعنى (Trubetzkoy, 1969). على سبيل المثال، السمة [جهوري] هي سمة مميزة في العربية لأنها تفرق بين أزواج مثل /d/ و /t/، و /b/ و /f/. هذا المفهوم، الذي طوره ياكبسون لاحقاً، أصبح من أهم المفاهيم في الفونولوجيا الحديثة.

• مفهوم التحييد (Neutralization):

لاحظ تروبتسكوي أنه في سياقات معينة داخل الكلمة، قد يفقد تقابل فونولوجي ما وظيفته التمييزية. على سبيل المثال، في بعض اللغات، قد يتم نطق كل الصوامت الانفجارية مهموسة في نهاية الكلمة، مما يعني أن التقابل بين الصوامت المهموسة والمجهورة "يُحيّد" في هذا الموقع. وفي هذه الحالة، يظهر ما يسمى بـ "الأرشي فونيم" (Archiphoneme)، وهو وحدة نظرية تمثل

السمات المشتركة بين الفونيمين اللذين تم تحييد التقابل بينهما (Galan, 1985).

لقد وضع عمل تروبتسكوي الأساس لدراسة الأنظمة الصوتية للغات العالم بطريقة علمية ووظيفية، ولا يزال كتابه "مبادئ الفونولوجيا" مرجعاً لا غنى عنه لعلماء اللغة حتى اليوم، وذلك لغناه بالتحليلات الدقيقة لمئات اللغات والأفكار النظرية العميقة التي طرحها.

أفكار المدرسة: الوظيفة التمييزية للفونيم (القيمة الخلافية)

تُعد نظرية "الوظيفة التمييزية للفونيم" (Distinctive Function of the Phoneme) من أهم الإسهامات التي قدمتها مدرسة براغ، وهي الفكرة المركزية في علم الفونولوجيا الذي أسس له تروبتسكوي. تقوم هذه النظرية على أن الدور الأساسي والأولي للوحدات الصوتية في اللغة ليس مجرد تكوين سلسلة منطوقة، بل هو التفريق بين الوحدات الدالة (الكلمات أو المورفيمات) ذات المعاني المختلفة. هذه القدرة على خلق اختلاف في المعنى هي ما أطلق عليه علماء براغ "القيمة الخلافية" أو "الوظيفة التمييزية".

انطلاقاً من مبدأ سوسير القائل بأن "اللغة ليس فيها إلا اختلافات"، طور تروبتسكوي هذا المفهوم وطبقه بشكل منهجي على المستوى الصوتي. فالفونيم، في نظره، هو "مجموع الصفات التشكيلية ذات الصلة بالموضوع" (Trubetzkoy, 1969, p. 36)، أي مجموع الخصائص الصوتية التي لها دور وظيفي في التمييز بين المعاني. لكي نحدد ما إذا كان صوتان معينان يمثلان فونيمين مختلفين في لغة ما، يجب تطبيق ما يُعرف بـ "اختبار الزوج الأدنى" (Minimal Pair Test). يتكون الزوج الأدنى من كلمتين تختلفان في صوت واحد فقط وفي معنى مختلف، مثل "سَارَ" و"صَارَ" في اللغة العربية. بما أن استبدال /s/ بـ /sʕ/ يؤدي إلى تغيير في المعنى، فإننا نستنتج أن /s/ و /sʕ/ هما فونيمان مستقلان في اللغة العربية، وأن السمة التي تفرقهما (وهي هنا التفخيم) هي "سمة مميزة" (Distinctive Feature).

وبالتالي، فإن الفونيم ليس كياناً مادياً ملموساً، بل هو "فكرة لغوية" أو وحدة مجردة في ذهن المتكلم (Trubetzkoy, 1969). أما التحقيقات المادية المختلفة للفونيم الواحد في سياقات مختلفة فتسمى "الوفونات" (Allophones) على سبيل المثال، قد يُنطق صوت /k/ في اللغة الإنجليزية متقدماً قليلاً قبل حرف علة أمامي) كما في ("key" ومتراجعاً قليلاً قبل حرف علة خلفي) كما في ("cool")، لكن هذا الاختلاف لا يؤدي أبداً إلى تغيير في المعنى، لذا فإن هذين الصوتين هما مجرد الوفونات للفونيم الواحد /k/. الفونولوجيا، حسب تروبتسكوي، تهتم بالفونيمات وعلاقاتها، بينما تدرس الفونيتيك الألفونات وخصائصها الفيزيائية.

حدد تروبتسكوي ثلاث وظائف رئيسية للفونيم، ولكن الوظيفة الأساسية التي تقوم عليها الفونولوجيا بأكملها هي الوظيفة التمييزية (Dresher, 2019). فالقيمة الحقيقية لأي صوت



في النظام اللغوي لا تكمن في ذاته، بل في قدرته على أن "يتقابل" مع أصوات أخرى ليخلق فروقاً دلالية. هذا التركيز على العلاقات التقابلية هو جوهر المنهج البنيوي الوظيفي لمدرسة براغ. فبدلاً من مجرد جرد أصوات اللغة، سعى علماء براغ إلى الكشف عن "نظام التقابلات" الذي يحكم هذه الأصوات، وتحديد السمات المميزة التي يعتمد عليها هذا النظام.

هذه الفكرة حول القيمة الخلافية للفونيم كانت ثورية لأنها حولت دراسة الأصوات من مجرد وصف فيزيولوجي وفيزيائي إلى تحليل بنيوي ووظيفي دقيق. لقد مكنت اللغويين من فهم كيف أن عددًا محدودًا من الفونيمات (عادة ما بين 20 إلى 60 فونيمًا في أي لغة) يمكن أن يُستخدم لتوليد عدد لا حصر له من الكلمات والجمل ذات المعاني المتميزة. إنها تُظهر الاقتصاد المذهل للنظام اللغوي، حيث يتم تحقيق أقصى قدر من القدرة التمييزية بأقل عدد ممكن من الوحدات.

علاوة على ذلك، فإن تحليل الفونيمات إلى حزم من السمات المميزة (Distinctive Features) كان خطوة نظرية هامة. فبدلاً من النظر إلى الفونيمات كوحدات كلية، أظهر تروبتسكوي وياكوبسون أنها تتكون من مكونات أصغر هي السمات. هذه السمات (مثل [صوتي]، [أنفي]، [مستمر]) هي التي تشكل الوحدات الأساسية الحقيقية للنظام الفونولوجي، وهي تتكرر في فونيمات مختلفة (Galan, 1985). على سبيل المثال، السمة [+صوتي] توجد في /v/, /z/, /g/, /d/, /b/ وغيرها. هذا التحليل لم يكن أكثر اقتصاداً فحسب، بل سمح أيضاً بالتعبير عن القواعد والأنماط الفونولوجية بشكل أكثر تعميمًا وفعالية. على سبيل المثال، بدلاً من القول إن الأصوات /k/, /t/, /p/ تصبح /g/, /d/, /b/ بين حرفي علة، يمكن صياغة القاعدة بشكل أبسط: الصوامت [-صوتي] تصبح [+صوتي] بين حرفي علة.

باختصار، شكلت نظرية الوظيفة التمييزية للفونيم، أو القيمة الخلافية، حجر الزاوية في فونولوجيا براغ، وقدمت للغويين أداة تحليلية قوية لفهم البنية الوظيفية للأنظمة الصوتية في اللغات الإنسانية، وهو إسهام لا يزال تأثيره واضحاً في النظريات الفونولوجية المعاصرة.

خلاصة

مثلت مدرسة براغ اللسانية لحظة فارقة في تاريخ الفكر اللغوي، حيث نجحت في تقديم توليفة مبتكرة بين المنهج البنيوي الصارم والتوجه الوظيفي الهادف. من خلال التركيز على

اللغة كنظام من وسائل التعبير الموجهة لخدمة التواصل، تمكنت الحلقة من تجاوز الشكلائية المجردة وإعادة البعد الإنساني والتواصل إلى قلب التحليل اللساني. لقد كان إرثها متعدد الأوجه، بدءًا من التأسيس المنهجي لعلم الفونولوجيا على يد تروبتسكوي، مرورًا بتطوير اللسانيات الوظيفية ومنظور الجملة الوظيفي على يد ماثيسوس، وانتهاءً بوضع أسس لدراسة اللغة الشعرية والأسلوبية.

إن المبادئ التي أرسنها مدرسة براغ، مثل التمييز بين الفونيتيك والفونولوجيا، ومفهوم الوظيفة التمييزية للفونيم، وتحليل التقابلات والسمات المميزة، ونظرية التحديد، لم تكن مجرد إضافات نظرية، بل كانت أدوات تحليلية قوية فتحت أفاقًا جديدة لفهم بنية اللغات ووظيفتها. لقد أثبتت المدرسة أن دراسة البنية لا تتعارض مع دراسة الوظيفة، بل إن كلا منهما يضيء الآخر ويكمله. وبذلك، قدمت مدرسة براغ نموذجًا للبحث اللساني يجمع بين الدقة المنهجية والعمق النظري، ولا تزال أفكارها تشكل مصدر إلهام ونقطة انطلاق للعديد من التيارات اللسانية المعاصرة.

أسئلة للمناقشة

1. ما هو الفرق الجوهرى بين "البنوية" عند سوسير و"البنوية الوظيفية" عند مدرسة براغ؟ وكيف أثر هذا الفرق على مجالات اهتمام كل مدرسة؟
2. اشرح بمثال من اللغة العربية مفهوم "الوظيفة التمييزية للفونيم". كيف يمكننا استخدام "اختبار الزوج الأدنى" لإثبات أن صوتين معينين هما فونيمان مختلفان؟
3. يُعتبر فيلم ماثيسوس مؤسس "منظور الجملة الوظيفي" (FSP). كيف يمكن تطبيق مفهومي "المنطلق" (Theme) و"النواة" (Rheme) على تحليل جملة مثل: "قرأ الطالب الكتاب في المكتبة"؟
4. وضح الفرق الذي أقامه تروبتسكوي بين علم الأصوات (Phonetics) وعلم الأصوات الوظيفي (Phonology). لماذا يُعتبر هذا التمييز إسهامًا محوريًا في تاريخ اللسانيات؟
5. ناقش مبدأ "الخصائص اللغوية" (Linguistic Characterology) "عند ماثيسوس. كيف يمكن لهذا المنهج أن يساعدنا في فهم "شخصية" لغة ما مقارنة بلغة أخرى؟



قائمة المراجع

- Britannica, T. Editors of Encyclopaedia (2025a, November 28). Prague school. In Encyclopedia Britannica. Retrieved December 25, 2025, from:
<https://www.britannica.com/topic/Prague-school>
- Britannica, T. Editors of Encyclopaedia (2025b, November 24). Linguistics: The Prague school. In Encyclopedia Britannica. Retrieved December 25, 2025, from:
<https://www.britannica.com/science/linguistics/The-Prague-school>
- Britannica, T. Editors of Encyclopaedia (2025c, November 28). Vilém Mathesius. In Encyclopedia Britannica. Retrieved December 25, 2025, from:
<https://www.britannica.com/biography/Vilem-Mathesius>
- Drescher, B. E. (2019). N. S. Trubetzkoy's Grundzüge der Phonologie. University of Toronto. Retrieved from:
<https://drescher.artsci.utoronto.ca/talks/Trubetzkoy-COLMEX.pdf>
- Galan, F. W. (1985). Historic structures: The Prague School project, 1928–1946. University of Texas Press.
- Mathesius, V. (1975). A functional analysis of present day English on a general linguistic basis (J. Vachek, Ed.). Mouton/Academia.
- Nekula, M. (1999). Vilém Mathesius. In J. Verschueren, J.-O. Östman, J. Blommaert & C. Bulcaen (Eds.), Handbook of Pragmatics (pp. 1–14). John Benjamins Publishing Company.
- Trubetzkoy, N. S. (1969). Principles of phonology (C. A. M. Baltaxe, Trans.). University of California Press. (Original work published 1939)

المحاضرة الخامسة: مدرسة براغ (2): إسهامات إميل بنفنيست

مقدمة: من النسق إلى الخطاب

في محاضراتنا السابقة حول مدرسة براغ، استكشفنا كيف أسس روادها، مثل ياكبسون وتروبتسكوي، لمبادئ البنيوية الوظيفية، التي تنظر إلى اللغة كنظام من الأدوات المستخدمة لتحقيق غايات تواصلية محددة. لقد ركزوا على الوظيفة التي يؤديها كل عنصر لغوي داخل النسق. اليوم، ننتقل إلى شخصية فذة، على الرغم من أنها لا تُصنف دائمًا كعضو رسمي في حلقة براغ، إلا أن فكرها يمثل امتدادًا وتجاوزًا جوهريًا للمنظور البنيوي، وهو اللساني الفرنسي إميل بنفنيست (Émile Benveniste).

يُعد بنفنيست (1902-1976) من أبرز اللسانيين في القرن العشرين، حيث تمكن من بناء جسر بين لسانيات النسق (Langue) التي أرسى دعائمها فرديناند دي سوسير، ولسانيات الخطاب (Discours) التي تهتم باللغة أثناء استخدامها الفعلي. انطلق بنفنيست من الإرث السوسيري، لكنه لم يتوقف عنده، بل قام بنقده وتطويره، فاتحًا آفاقًا جديدة للدراسات اللغوية، خاصة فيما يتعلق بحضور الذات المتكلمة في اللغة (العبادي، 2022).

تكمن أهمية بنفنيست في أنه أعاد الاعتبار للمتكلم، الذي كاد أن يغيبه التحليل البنيوي الصارم الذي يركز على النظام المجرد للغة. لقد أظهر كيف أن اللغة ليست مجرد أداة محايدة، بل هي المكان الذي تتشكل فيه "الذاتية" (Subjectivity) "من خلال نظريته في "التلفظ" (Enunciation)، أوضح بنفنيست أن فعل الكلام نفسه يترك بصماته وآثاره داخل الملفوظ، مما يسمح لنا بتحليل كيفية "تملك" المتكلم للغة للتعبير عن نفسه والتأثير في مخاطبه (غلفان، 2025).

في هذه المحاضرة، سنتعمق في الأفكار الرئيسية لبنفنيست، ونستكشف كيف حلل "الجهاز الشكلي للتلفظ"، أي الأدوات اللغوية التي يستخدمها المتكلم لترسيخ خطابه في سياق محدد (زمان، مكان، أشخاص). سنرى كيف أن مفاهيمه حول الضمائر، والإشارة، والزمن، قد

أحدثت ثورة في فهمنا للعلاقة بين اللغة، والفكر، والذات الإنسانية، وفتحت الباب واسعا أمام تخصصات جديدة مثل التداولية وتحليل الخطاب.

إميل بنفنيست (1902-1976)

قبل الخوض في تفاصيل أفكاره، من المهم وضع بنفنيست في سياقه. بدأ مسيرته كعالم في النحو المقارن للغات الهندو-أوروبية، مما منحه فهما عميقا لتراكيب اللغات وتطورها التاريخي. لكن شهرته الأوسع نبعث من مقالاته التي جمعها في كتابيه الشهيرين "مسائل في اللسانيات العامة" (Problèmes de linguistique générale)، بجزأيه الأول (1966) والثاني (1974). في هذه الأعمال، انتقل بنفنيست من دراسة اللغة كبنية تاريخية إلى تحليلها كنشاط إنساني حي (غلان، 2025).

تأثر بنفنيست بسوسير، لكنه كان "مع سوسير وضده" في آن واحد. لقد نبى فكرة اللغة كنسق من العلامات، لكنه انتقد الفصل الحاد الذي وضعه سوسير بين "اللسان" (Langue) و"الكلام" (Parole) كعمل فردي عشوائي. رأى بنفنيست أن هذا الفصل يتجاهل أهم منطقة في النشاط اللغوي: وهي عملية تحويل النسق إلى خطاب فعلي. هذه العملية هي ما أسماها "التلفظ" (l'énonciation) (الطبيبي، 2021).

1-1- أفكاره: نظرية التلفظ (Théorie de l'énonciation)

تُعد نظرية التلفظ حجر الزاوية في فكر بنفنيست. يعرف بنفنيست التلفظ بأنه "الفعل الفردي الذي يتم من خلاله استخدام اللغة" (بنفنيست، كما ورد في الطبيبي، 2021، ص. 443). إنه ليس مجرد إنتاج للأصوات، بل هو "فعل تملك المتكلم للغة لإنتاج خطاب موجه إلى مستمع في سياق معين". هذا التعريف يضع في المركز ثلاثة عناصر أهميتها اللسانية البنيوية: المتكلم، والمستمع، والسياق.

"التلفظ هو هذا التوظيف للغة بوساطة فعل فردي للاستعمال... إنه فعل إنتاج ملفوظ وليس الملفوظ نفسه." (بنفنيست، كما ورد في جريدة الرياض، 2025).

بهذا، يميز بنفنيست بوضوح بين:

• **التلفظ (Énonciation):** وهو الفعل أو العملية الديناميكية لإنتاج الكلام. إنه حدث

فريد يقع في زمان ومكان محددين.

• **الملفوظ: (Énoncé)** وهو ناتج عملية التلفظ، أي الجملة أو النص الذي تم إنتاجه.

الملفوظ هو الأثر الساكن الذي يبقى بعد انتهاء فعل التلفظ.

كان اهتمام اللسانيات قبله منصباً على "الملفوظ" كبنية لغوية مغلقة. أما بنفنيست، فقد وجه الأنظار إلى "التلفظ"، أي إلى دراسة "آثار وبصمات" عملية الكلام داخل المنتج اللغوي نفسه. هذه البصمات هي ما يسميه "الجهاز الشكلي للتلفظ" (l'appareil formel de l'énonciation)، وهو مجموعة من المؤشرات اللغوية التي لا تكتسب معناها الكامل إلا بالعودة إلى لحظة التلفظ (الطبيبي، 2021).

1-1-1 المتكلم والسامع: تأسيس الذاتية في اللغة

من أهم إسهامات بنفنيست هو ربطه بين اللغة وتشكل الوعي بالذات. يرى بنفنيست أن "الذاتية" (subjectivity) "أي قدرة الفرد على أن يضع نفسه كـ "ذات" أو "أنا" - هي خاصية لغوية في الأساس. فلا وجود للذات خارج اللغة أو قبلها. يقول بنفنيست في مقالته الشهيرة "عن الذاتية في اللغة":

"باللغة ومن خلالها يتأسس الإنسان كذات؛ لأن اللغة وحدها هي التي تؤسس في الواقع، وفي واقعها الذي هو واقع الكائن، مفهوم 'الأنا' ego" (بنفنيست، 1972، ص224).

هذا التأسيس للذات لا يحدث في عزلة، بل في علاقة حوارية جوهرية. لا يمكن لـ "الأنا" أن يعي نفسه كـ "أنا" إلا في مقابل "أنت". إنها علاقة قطبية (polarity) بين شخصين: المتكلم الذي يعرف نفسه بـ "أنا"، والمخاطب الذي يعينه المتكلم كـ "أنت". هذه القطبية هي شرط أساسي لوجود اللغة والتواصل.

يشرح بنفنيست أن "الوعي بالذات لا يكون ممكناً إلا إذا تم اختباره عن طريق التباين. أنا لا أستخدم 'أنا' إلا عندما أتحدث إلى شخص ما سيكون 'أنت' في خطابي (بنفنيست، 1972، ص226)" هذه العلاقة تبادلية وقابلة للانعكاس: عندما يرد "أنت" السابق، يصبح هو "الأنا" الجديد، ويصبح "الأنا" الأصلي هو "الأنت" الجديد. هذا الحوار المستمر هو ما يبنى الشخصية (person) ويؤسس للتفاعل الاجتماعي.

بناءً على ذلك، يقسم بنفنيست الضمائر إلى فئتين:

• **الملفوظ: (Énoncé)** وهو ناتج عملية التلفظ، أي الجملة أو النص الذي تم إنتاجه.

الملفوظ هو الأثر الساكن الذي يبقى بعد انتهاء فعل التلفظ.

كان اهتمام اللسانيات قبله منصباً على "الملفوظ" كبنية لغوية مغلقة. أما بنفنيست، فقد وجه الأنظار إلى "التلفظ"، أي إلى دراسة "أثار وبصمات" عملية الكلام داخل المنتج اللغوي نفسه. هذه البصمات هي ما يسميه "الجهاز الشكلي للتلفظ" (l'appareil formel de l'énonciation)، وهو مجموعة من المؤشرات اللغوية التي لا تكتسب معناها الكامل إلا بالعودة إلى لحظة التلفظ (الطبيبي، 2021).

1-1-1 المتكلم والسامع: تأسيس الذاتية في اللغة

من أهم إسهامات بنفنيست هو ربطه بين اللغة وتشكل الوعي بالذات. يرى بنفنيست أن "الذاتية - (subjectivity) "أي قدرة الفرد على أن يضع نفسه كـ "ذات" أو "أنا" - هي خاصية لغوية في الأساس. فلا وجود للذات خارج اللغة أو قبلها. يقول بنفنيست في مقالته الشهيرة "عن الذاتية في اللغة":

"باللغة ومن خلالها يتأسس الإنسان كذات؛ لأن اللغة وحدها هي التي تؤسس في الواقع، وفي واقعها الذي هو واقع الكائن، مفهوم 'الأنا ego' (بنفنيست، 1972، ص224).

هذا التأسيس للذات لا يحدث في عزلة، بل في علاقة حوارية جوهرية. لا يمكن لـ "الأنا" أن يعي نفسه كـ "أنا" إلا في مقابل "أنت". إنها علاقة قطبية (polarity) بين شخصين: المتكلم الذي يعرف نفسه بـ "أنا"، والمخاطب الذي يعينه المتكلم كـ "أنت". هذه القطبية هي شرط أساسي لوجود اللغة والتواصل.

يشرح بنفنيست أن "الوعي بالذات لا يكون ممكناً إلا إذا تم اختباره عن طريق التباين. أنا لا أستخدم 'أنا' إلا عندما أتحدث إلى شخص ما سيكون 'أنت' في خطابي (بنفنيست، 1972، ص226) "هذه العلاقة تبادلية وقابلة للانعكاس: عندما يرد "أنت" السابق، يصبح هو "الأنا" الجديد، ويصبح "الأنا" الأصلي هو "الأنت" الجديد. هذا الحوار المستمر هو ما يبنى الشخصية (person) ويؤسس للتفاعل الاجتماعي. بناءً على ذلك، يقسم بنفنيست الضمانات إلى فئتين:

• **الأشخاص: (Persons)** وهما ضمير المتكلم ("أنا") والمخاطب ("أنت"). يتغيران بأنهما يشيران إلى المشاركين في فعل التلفظ، ومعناهما "فريد" في كل مرة يتم استخدامهما.

• **اللاشخص: (Non-person)** وهو ضمير الغائب ("هو"). يرى بنفنيست أن الغائب ليس شخصاً بالمعنى الحوارى للكلمة، لأنه خارج علاقة "الأنا-أنت". إنه يشير إلى شيء أو شخص يتم الحديث "عنه"، وليس "معه". لذلك، يمكن استبداله باسم علم أو عبارة اسمية، على عكس "أنا" و"أنت" (العبادي، 2022).

هذا التحليل يقلب الفهم التقليدي للضمانر رأساً على عقب، ويجعل من العلاقة الحوارية بين المتكلم والسامع المبدأ المنظم ليس فقط للضمانر، بل للغة بأكملها كأداة للتواصل الإنساني.

1-1-2- المرجع: تجاوز العلامة السوسيرية

كما ذكرنا، انطلق بنفنيست من تصور سوسير للعلامة اللسانية كاتحاد بين "دال" (صورة صوتية) و"مدلول" (تصور ذهني). لكنه رأى أن هذا التعريف، على أهميته، يغلق اللغة على نفسها ويغفل عن علاقتها بالواقع الخارجي، أي "المرجع" (réfèrent) في مقال مبكر يعود لعام 1939 بعنوان "طبيعة العلامة اللسانية"، قام بنفنيست بمراجعة نقدية لمبدأ "اعتباطية العلامة" الذي قال به سوسير. يرى سوسير أن العلاقة بين الدال والمدلول اعتباطية (arbitrary)، أي لا يوجد سبب طبيعي يربط بين صوت كلمة /شَجَرَة/ ومفهوم الشجرة. لكن بنفنيست يجادل بأن هذه العلاقة، داخل ذهن المتكلم وفي نظام اللغة، هي في الواقع "ضرورية" وليست اعتباطية. فلا يمكن لأي متكلم أن يفصل بين الدال ومدلوله؛ فهما وجهان لعملة واحدة (موسيس، 2001).

أين تكمن الاعتباطية إذن؟ حسب بنفنيست، تكمن الاعتباطية في العلاقة بين "العلامة ككل" (الدال+المدلول) و"الشيء" في العالم الخارجي (المرجع). لا يوجد سبب جوهري يجعلنا نطلق علامة /شَجَرَة/ على ذلك الكائن النباتي ذي الجذع والأغصان. هذه هي النقطة التي أغفلها سوسير، والتي أعاد بنفنيست إدخالها إلى التحليل اللساني (غلان، 2025).

هذا التمييز قاده لاحقاً إلى اقتراح مستويين للتحليل اللساني، متجاوزاً ثنائية (اللسان/الكلام) السوسيرية:

• **المستوى السيميوطيقي: (Le sémiotique)** وهو مستوى "اللسان" كنسق من العلامات. في هذا المستوى، تُعرّف العلامات من خلال علاقاتها ببعضها البعض (علاقات تقابل واستبدال). إنه عالم "التعرف. (identification) "الوحدة الأساسية هنا هي "العلامة".

• **المستوى الدلالي: (Le sémantique)** وهو مستوى "الخطاب" الناتج عن فعل التلطف. في هذا المستوى، يتم تفعيل العلامات لإنتاج "معنى (sens) "في سياق معين. إنه عالم "الفهم. (compréhension) "الوحدة الأساسية هنا هي "الجملة". هذا المستوى هو الوحيد القادر على الإحالة إلى الواقع (المرجع) والتعبير عن حقيقة ما. بهذا الفصل، يوضح بنفنيست أن اللغة لها وضع مزدوج: هي نظام مغلق من العلامات (سيميوطيقي)، وفي نفس الوقت هي أداة مفتوحة لإنتاج المعنى والتواصل حول العالم (دلالي). و"التلفظ" هو الآلية التي تنقلنا من المستوى الأول إلى الثاني، من النسق إلى الاستعمال، ومن العلامة إلى الجملة ذات المرجع (ليمام، 2014).

1-1-3- الوحدات اللسانية: الجهاز الشكلي للتلفظ

يرى بنفنيست أن حضور الذات المتكلمة في خطابها ليس مجرد شعور نفسي، بل هو حقيقة لغوية يمكن رصدها من خلال مجموعة من الأدوات أو المؤشرات (indicateurs) التي تشكل ما أسماه "الجهاز الشكلي للتلفظ". هذه المؤشرات هي فئات من الكلمات التي لا يمكن فهم معناها إلا بالعودة إلى السياق المحدد لفعل التلفظ. إنها "فارغة" خارج سياق استخدامها، وتكتسب معناها فقط عند "تملك" المتكلم لها. يطلق عليها اللسانيون اليوم اسم "المشيرات" أو "الإشارية (Deixis) " (الطبيبي، 2021).

هذه المشيرات هي التي تربط الخطاب بالواقع، وتجذره في إطار مكاني وزماني وشخصي محدد، مركزه دائماً هو "الأنا" المتكلم في لحظة "الآن" وفي مكان "هنا".

1-1-3- الضمائر (Les pronoms)

تعتبر الضمائر الشخصية ("أنا"، "أنت") المثال الأوضح والأهم على هذه المؤشرات. كما أوضحنا سابقاً، هي لا تشير إلى مفهوم ثابت أو كيان محدد بشكل دائم. فكلمة "أنا" لا تشير إلى

شخص بعينه مثلما تشير كلمة "سقراط" إلى الفيلسوف اليوناني. بل إن مرجعها يتغير في كل مرة تُستخدم فيها.

"ما هو إذن "أنا"؟ إنه الشخص الذي يتلفظ بالملفوظ الحالي الذي يحتوي على الحدوث اللساني "أنا". هذا التعريف إشكالي، لأنه يتطلب تعريف "أنا" من خلال 'حدوثه' في الخطاب، وهذا الحدث بدوره يشير إلى "أنا" (بنفنيست، 1972، ص226).

هذا التعريف الدائري يوضح الطبيعة الفريدة لهذه الكلمات. إنها "مؤشرات إحصائية" (shifters) أو "رموز إشارية" (indexical symbols) مرجعها هو فعل التلفظ نفسه. "أنا" هو من يقول "أنا". "أنت" هو من يخاطبه "أنا". هذه هي الآلية الأساسية التي تؤسس للحوار وللذاتية في اللغة.

ويشير بنفنيست إلى أن وجود الضمائر الشخصية هو خاصية كونية في لغات العالم. "لا يمكن تخيل لغة بدون التعبير عن الشخص (بنفنيست، 1972، ص255)". هذا يؤكد على أن بنية الحوار (أنا-أنت) ليست مجرد اتفاقية اجتماعية، بل هي جزء لا يتجزأ من طبيعة اللغة الإنسانية نفسها.

1-1-3-2- أسماء الإشارة (Les démonstratifs)

تعمل أسماء الإشارة (مثل: هذا، هذه، ذاك، تلك، هؤلاء، أولئك) بطريقة مشابهة للضمائر. إنها أدوات إشارية (deictic) تربط الخطاب بالأشياء الموجودة في سياق التلفظ. فعندما أقول "أعطني هذا الكتاب"، فإن كلمة "هذا" لا تكتسب مرجعاً محدداً إلا من خلال إشارتي (الجسدية أو السياقية) إلى كتاب معين في اللحظة التي أتكلم فيها.

يقول بنفنيست إن هذه الأدوات تنظم الفضاء المحيط بالمتكلم. "هذا" يشير عادة إلى ما هو قريب من "الأنا"، بينما "ذاك" يشير إلى ما هو بعيد عنه (أو قريب من "الأنت"). وبهذا، فإن أسماء الإشارة تساهم في بناء "مركز إشاري" (centre déictique) يكون المتكلم هو نقطة الأصل فيه. إنها تجعل من فضاء التلفظ فضاءً منظماً ومفهوماً للمشاركين في الحوار (الطبيعي، 2021).

لا يقتصر دورها على الإشارة إلى الأشياء المادية، بل يمكنها أيضاً الإشارة إلى أجزاء من الخطاب نفسه (الإشارة النصية). على سبيل المثال، في جملة "لقد شرحت النظرية. هذا الشرح مهم"، تشير كلمة "هذا" إلى الجزء السابق من النص.

1-3-3- المكان (Le lieu)

ترتبط مؤشرات المكان ارتباطاً وثيقاً بأسماء الإشارة. ظروف المكان مثل "هنا" و"هناك" هي أيضاً عناصر إشارية بامتياز. فكلمة "هنا" لا تشير إلى موقع جغرافي ثابت على الخريطة، بل تعني دائماً "المكان الذي يتواجد فيه المتكلم ('أنا') أثناء فعل التلفظ". وبالمثل، "هناك" تعني مكاناً بعيداً عن المتكلم.

هذه الكلمات، جنباً إلى جنب مع الضمان وأسماء الإشارة، تشكل نظام إحداثيات ذاتي (egocentric) يركز عليه الخطاب بأكمله. إنها تثبت الملفوظ في سياق مادي ملموس، مما يجعله قابلاً للفهم. بدون هذه المؤشرات، سيكون الخطاب مجرد سلسلة من الجمل المجردة التي تفتقر إلى أي ارتباط بالواقع. يرى بنفنيست أن هذه القدرة على الإشارة إلى السياق هي ما يميز لغة الإنسان عن أنظمة التواصل الحيوانية، التي تفتقر إلى هذه المرونة الإشارية (بولرباخ، 2020).

إن تحليل هذه الوحدات يكشف كيف أن اللغة ليست مجرد مرآة تعكس الواقع، بل هي أداة تبني بها الذات المتكلمة عالمها الخاص، وتدعو المخاطب لمشاركته في هذا العالم المبني لغوياً.

1-3-4- الزمن (Le temps)

يولي بنفنيست أهمية خاصة لتحليل الزمن في اللغة، ويرى أنه، مثل الضمان والمكان، يتأسس حول لحظة التلفظ. نقطة الارتكاز الأساسية لكل نظام زمني في اللغة هي "الآن"، أي لحظة الكلام. "الزمن اللغوي هو زمن ذاتي، محوره هو الحاضر، والحاضر لا يمكن تعريفه إلا بأنه 'لحظة الخطاب الذي يحتوي عليه'" (بنفنيست، كما ورد في الطيبي، 2021).

من هذا المنطلق، فإن "الحاضر" هو الزمن الأساسي للتلفظ. أما "الماضي" و"المستقبل" فيتم تعريفهما دائماً بالنسبة لهذا الحاضر. "الأمس" هو اليوم الذي يسبق "اليوم" (الذي هو حاضر التلفظ)، و"غداً" هو اليوم الذي يليه. هذا الزمن، الذي يسميه بنفنيست "الزمن الفيزيائي أو الكرونولوجي"، يتم "لغنته" (linguicized) "وتحويله إلى زمن ذاتي مرتبط بالمتكلم".

أحد أبرز تطبيقات هذه الفكرة هو تمييز بنفنيست الشهير في نظام الأفعال الفرنسية بين مستويين من التلفظ، لكل منهما نظامه الزمني الخاص:

. **الخطاب: (Discours)** وهو كل تلفظ يفترض وجود متكلم ومستمع، ونية لدى الأول للتأثير في الثاني. يتميز هذا المستوى باستخدام جميع الضمانات (أنا، أنت، هو) وجميع الأزمنة التي ترتبط بالحاضر (الحاضر، الماضي المركب، المستقبل). إنه زمن التعبير الذاتي، الحوار، والمراسلات.

. **السرد التاريخي: (Récit / Histoire)** وهو نمط من التلفظ يهدف إلى تقديم الأحداث بطريقة موضوعية، كما لو أنها تروي نفسها بنفسها، مع استبعاد أي تدخل واضح من المتكلم. يتميز هذا المستوى بغياب ضمير المتكلم "أنا" والمخاطب "أنت"، واستخدام أزمنة معينة مثل الماضي البسيط (Passé simple) التي تخلق مسافة بين القارئ والأحداث. إنه لغة المؤرخين والروايات التقليدية. "لا أحد يتكلم هنا؛ تبدو الأحداث وكأنها تروي نفسها" (بنفنيست، كما ورد في ليمام، 2014).

هذا التمييز بين "الخطاب" و"السرد" كان له تأثير هائل في الدراسات الأدبية وتحليل السرد (السرديات). لقد أظهر أن اختيار زمن معين للفعل ليس مجرد مسألة نحوية، بل هو قرار أسلوبى عميق يحدد طبيعة العلاقة بين النص والقارئ، ويكشف عن درجة حضور أو غياب "صوت" المؤلف.

خلاصة

يمثل إميل بنفنيست نقطة تحول حاسمة في تاريخ اللسانيات الحديثة. فمن خلال نظريته في التلفظ، نجح في توسيع مجال البحث اللساني من دراسة "النسق" المجرد والمغلق إلى تحليل "الخطاب" الحي والمنفتح على سياقه. لقد أعاد الإنسان-المتكلم إلى قلب اللغة، بعد أن كادت البنيوية السويسرية أن تجعله مجرد منفذ سلبي لقواعد اجتماعية مفروضة عليه.

يمكن تلخيص إسهاماته الجوهرية في النقاط التالية:

1. تأسيس لسانيات الخطاب: من خلال التمييز بين التلفظ (العملية) والملفوظ (النتائج)،

فتح بنفنيست الباب لدراسة اللغة في طور الاستعمال، مما مهد الطريق لظهور التداولية وتحليل الخطاب.



2. نظرية الذاتية في اللغة: أظهر أن اللغة ليست أداة محايدة، بل هي الفضاء الذي تتشكل

فيه الذات الإنسانية من خلال العلاقة الحوارية الأساسية بين "الأنا" و"الأنثى".

3. تحليل الجهاز الشكلي للتلفظ: حدد بدقة الأدوات اللغوية (الضمائر، الإشارات، ظروفية

الزمان والمكان، أزمنة الفعل) التي يستخدمها المتكلم لترسيخ خطابه في سياق معين،

وإضفاء طابع ذاتي عليه.

4. تجاوز سوسير وتطويره: قام بنقد بناء لمفاهيم سوسير (مثل اعتبارية العلامة وثنائية

اللسان/الكلام)، واقترح ثنائيات جديدة أكثر ديناميكية (سيمبوتيقي/دلالي،

خطاب/سرد) سمحت بفهم أعمق لآليات عمل اللغة.

لقد أحدثت أفكار بنفنيست "طفرة مهمة" (الطبيبي، 2021، ص. 458) في الفكر اللغوي، وامتد

تأثيرها إلى مجالات معرفية واسعة مثل الفلسفة، والتحليل النفسي، والنقد الأدبي،

والأنثروبولوجيا. إن راهنية مشروعه تكمن في أنه يذكرنا دائماً بأن دراسة اللغة لا يمكن أن

تكتمل دون دراسة الإنسان الذي يتكلمها، وأن كل خطاب هو في جوهره أثر لوجود ذات تسعى

للتعبير عن نفسها والتفاعل مع الآخرين.

أسئلة للمناقشة

لتعميق فهمنا لأفكار إميل بنفنيست، يمكننا طرح الأسئلة التالية للنقاش:

1. يرى بنفنيست أن "الذاتية" تتأسس في اللغة ومن خلالها. هل يمكننا تصور وجود وعي

بالذات (أنا) بدون لغة؟ ناقش هذه الفكرة مع تقديم أمثلة.

2. شرح بنفنيست الفرق بين "الشخص" (أنا، أنت) و"اللا-شخص" (هو). كيف يغير هذا

التصور فهمنا التقليدي لضمائر الغائب في النحو العربي؟

3. انتقد بنفنيست مبدأ "اعتباطية العلامة" عند سوسير، وميز بين العلاقة "الضرورية"

(دال/مدلول) والعلاقة "الاعتباطية" (العلامة/المرجع). ما هي الآثار المترتبة على هذا

التمييز في دراسة المعنى؟

4. كيف يمكن استخدام تمييز بنفنيست بين "الخطاب" و"السرد التاريخي" لتحليل نص أدبي

(قصيدة، رواية) أو خطاب سياسي؟

5. إلى أي مدى تتفق أو تختلف نظرية التلفظ عند بنفنيست مع مبادئ مدرسة براغ الوظيفية؟ هل يمكن اعتباره مكملًا لها أم متجاوزًا لها؟

قائمة المراجع

- عبادي، أ. (2022). محاضرات المدارس السليبية. جامعة ابن خلدون، تيارت.
- بنفنيست، إميل. (1971). *الذاتية في اللغة: في مشكلات في التسلسلات العامة* (المجلد 1، ص ص 223-230). مطبعة جامعة ميلامي.
- بولرباخ، ل. (2020). *المدارس السليبية*. جامعة رين، غاتسور، الخلفه.
- موسيس، س. (2001). *إميل بنفنيست ولسانيات الحوار: مجلة المبتاهير بها والأخلاق*. المجلد 32، العدد 4، ص ص 509-525.
- الطبيبي، ك. (2021). *لسانيات التلفظ ونحطيل الخطاب الشعري: دراسة في المؤثرات النظامية في مرثية مالك بن الربيع*. أشكال في اللغة والأدب، المجلد 10، العدد 1، ص ص 441-463.
- عقلان، مصطفى. (2024). *مدخل إلى لسانيات إميل بنفنيست*. بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة.



المحاضرة السادسة: مدرسة كوبنهاغن أو المدرسة الغلوسيماتية

مقدمة

في منتصف القرن العشرين، برزت اللسانيات البنيوية كقوة مهيمنة في دراسة اللغة، وقد تشكلت من خلال ثلاث مدارس رئيسية أثرت بعمق في مسار الفكر اللساني: مدرسة جنيف، ومدرسة براغ، ومدرسة كوبنهاغن. تمثل مدرسة كوبنهاغن، التي تُعرف أيضًا باسم "المدرسة الغلوسيماتية"، ذروة التجريد والصورنة في التحليل البنيوي. أسسها اللساني الدنماركي لويس يلمسليف (Louis Hjelmslev) بالتعاون مع فيجو برونдал (Viggo Brøndal)، وسعت هذه المدرسة إلى تأسيس علم لغة مستقل ومحايث، يدرس اللغة كنظام من العلاقات الصرفية، بمعزل عن أي اعتبارات خارجية سواء كانت فيزيائية، نفسية، أو اجتماعية. (Garvin, 1954)

أطلقت المدرسة على نظريتها اسم "الغلوسيماتيك" (Glossematics)، وهو مصطلح مشتق من الكلمة اليونانية (γλῶσσα) "glossa" التي تعني "اللغة"، في محاولة لتمييز منهجها العلمي الدقيق عن اللسانيات التقليدية. تهدف هذه المحاضرة إلى استكشاف نشأة مدرسة كوبنهاغن، والتعمق في مبادئ نظريتها الغلوسيماتية، وتحليل إسهاماتها وأعمالها الرئيسية، مع تسليط الضوء بشكل خاص على فكر ومنهج مؤسسها الأبرز، لويس يلمسليف، الذي يعد عمله "مقدمة لنظرية اللغة" حجر الزاوية في هذا الصرح النظري.

1- تعريف مدرسة كوبنهاغن ونشأتها

1-1- التعريف والنشأة

مدرسة كوبنهاغن، أو كما تُعرف رسميًا بـ "الدائرة اللغوية في كوبنهاغن" (Cercle de Linguistique de Copenhague)، هي جماعة من العلماء واللسانيين الذين كرسوا جهودهم لدراسة اللغة من منظور بنيوي صارم. تأسست هذه الدائرة في 24 سبتمبر 1931 بمبادرة من لويس يلمسليف في منزله الخاص، لتكون منبرًا للنقاش وتطوير الأفكار اللسانية الجديدة في الدنمارك. تأثرت المدرسة بشدة بأفكار فردينان دي سوسير، لكنها سعت إلى

تجاوزها وتطويرها نحو مستوى أعلى من الدقة المنهجية والصورة المنطقية (Hjelmslev, 1961).

نشأت المدرسة في ثلاثينيات القرن العشرين كرد فعل على اللسانيات التاريخية المقارنة التي كانت سائدة، وكذلك على بعض جوانب المدارس البنوية الأخرى التي اعتبرها يلمسليف غير كافية في فصل اللغة كموضوع مستقل للدراسة. كان الطموح الأساسي ليلمسليف وزملائه، مثل هانس يورغن أولدال (Hans Jørgen Uldall)، هو بناء "جبر للغة (an algebra of language)"، أي نظرية صورية قادرة على وصف أي نظام علامات ممكن، وليس فقط اللغات الطبيعية. (Trabant, 1987).

1-2- نظرية الغلوسيماتيك (Glossematics)

الغلوسيماتيك هي النظرية اللسانية المركزية لمدرسة كوبنهاغن، وقد وضع أسسها يلمسليف وأولدال. تُعرّف الغلوسيماتيك بأنها نظرية تهدف إلى تحليل اللغة كنظام من الوحدات والعلاقات المحضة. الوحدة الأساسية في هذا التحليل هي "الغلوسيم (Glosseme)"، وهي أصغر وحدة ذات معنى في اللغة، سواء كانت كلمة، جذراً، عنصراً نحوياً، أو حتى نبرة. انتقدت الغلوسيماتيك بشدة اللسانيات التي سبقتها، معتبرة أنها "متسامية (transcendent)" أي أنها تدرس اللغة من خلال ظواهر خارجة عنها (صوتية، نفسية، اجتماعية). في المقابل، طرحت الغلوسيماتيك مبدأ "المحايدة (immanence)" كشرط أساسي، والذي ينص على أن اللغة يجب أن تُدرس "كنظام مكتفٍ بذاته، وبنية فريدة من نوعها (sui generis)" (Hjelmslev, 1961, p. 5).

2- مبادئ المدرسة الغلوسيمائية

تقوم نظرية الغلوسيماتيك على مجموعة من المبادئ الصارمة التي تشكل إطارها المنهجي والفلسفي. هذه المبادئ تهدف إلى ضمان علمية التحليل وموضوعيته.

1-2- مبدأ المحايدة (The Principle of Immanence)

يعد هذا المبدأ حجر الزاوية في فكر يلمسليف. يقتضي مبدأ المحايدة أن التحليل اللساني يجب أن يقتصر على البنية الداخلية للغة، والنظر إليها كشبكة من العلاقات الصورية، مع استبعاد كل ما هو خارج عنها. يرى يلمسليف أن إقحام علوم أخرى مثل الفيزياء (علم

الأصوات)، أو علم النفس، أو علم الاجتماع في دراسة اللغة يشتت الباحث عن جوهر اللغة الحقيقي، وهو بنيتها الشكلية. الهدف هو اكتشاف "الثابت" داخل اللغة الذي لا يعتمد على أي "واقع" خارجها. (Garvin, 1954)

2-2- المبدأ التجريبي (The Empirical Principle)

على الرغم من طابعها التجريدي، يؤكد يلمسليف أن نظريته تجريبية. لكن التجريبية هنا لا تعني الاعتماد على الملاحظة الحسية المباشرة، بل تعني أن أي نظرية لسانية يجب أن تخضع لثلاثة شروط مرتبة حسب الأولوية:

1. **الاتساق (Self-consistency):** يجب أن تكون النظرية متماسكة داخليًا وخالية من التناقضات.

2. **الشمولية (Exhaustiveness):** يجب أن تكون النظرية قادرة على تفسير جميع البيانات اللغوية المتاحة بشكل كامل.

3. **البساطة (Simplicity):** عند وجود نظريتين تحققان الشرطين الأولين، يتم اختيار النظرية الأكثر بساطة. والبساطة هنا تعني الوصف الذي ينتج عن أبسط الإجراءات الممكنة. (Hjelmslev, 1961)

2-3- اللغة شكل لا مادة (Language as Form, not Substance)

يطور يلمسليف ثنائية سوسير (الدال/المدلول) إلى نموذج أكثر تعقيدًا وتجريدًا. يرى أن العلامة اللسانية ليست مجرد اتحاد بين مفهوم وصورة سمعية، بل هي "وظيفة" (function) تربط بين مستويين: مستوى التعبير (expression plane) ومستوى المضمون (content plane). الأهم من ذلك، أنه يقسم كل مستوى منهما إلى "شكل" (form) و"مادة" (substance)، مما ينتج عنه أربعة مكونات: (Siertsema, 1965)

• **مادة المضمون (Content-Substance):** هي الفكر أو الواقع غير المتشكل قبل

أن تنظمه اللغة. مثال: الطيف اللوني الكامل كما هو موجود في الطبيعة.

• **شكل المضمون (Content-Form):** هو الطريقة التي تقوم بها لغة معينة بتنظيم

وتقسيم مادة المضمون. مثال: اللغة الإنجليزية تقسم الطيف اللوني إلى (blue/green)،

بينما لغات أخرى قد تدمجها في مصطلح واحد.

• **مادة التعبير: (Expression-Substance)** هي المادة الصوتية (أو الكتابية) الخام

التي يمكن أن ينتجها الجهاز الصوتي البشري.

• **شكل التعبير: (Expression-Form)** هو النظام الصوتي (الفونولوجي) أو القواعد

التي تختار وتنظم بها لغة معينة وحداتها الصوتية. مثال: نظام الفونيمات والعلاقات بينها في لغة ما.

"اللغة هي شكل، وليست مادة. إنها تفرض بنيتها على مادتين غير متشكلتين: المادة الصوتية ومادة الفكر".

بالنسبة ليلمسليف، موضوع اللسانيات الحقيقي هو دراسة "شكل المضمون" و"شكل التعبير" والعلاقة بينهما، أي "وظيفة العلامة". أما المادة (substance) فتقع خارج نطاق اللسانيات المحايثة.

2-4- التحليل الاستنباطي (Deductive Analysis)

على عكس المنهج الاستقرائي الذي يبدأ من الأجزاء ليصل إلى الكل، يتبنى يلمسليف منهجاً استنباطياً (أو تفكيكياً). يبدأ التحليل من "النص (text)" باعتباره الكل غير المقسم، ثم يتم تقسيمه تدريجياً إلى مكونات أصغر فأصغر (فصول، جمل، كلمات...) حتى الوصول إلى الوحدات النهائية غير القابلة للتقسيم، وهي "الغلوسيمات". هذا المنهج يضمن أن كل وحدة تُعرف فقط من خلال علاقاتها مع الوحدات الأخرى داخل النظام، وليس من خلال خصائصها المادية. (Garvin, 1954)

3- أعمال النظرية الغلوسيمائية

تجسدت النظرية الغلوسيمائية في مجموعة من الأعمال التأسيسية التي كتبها يلمسليف وزملاؤه. هذه الأعمال، على الرغم من صعوبتها وشكليتها العالية، كان لها تأثير عميق على السيميائيات والبنوية الأوروبية.

3-1- كتاب "مقدمة لنظرية اللغة (Prolegomena to a Theory of Language)"

يُعد هذا الكتاب، الذي نُشر لأول مرة باللغة الدنماركية عام 1943، العمل الأكثر شهرة وتأثيراً ليلمسليف. إنه ليس مقدمة بالمعنى التبسيطي، بل هو عرض مكثف وصارم للأسس الفلسفية والمنهجية لنظرية الغلوسيماتيك. في هذا الكتاب، يضع يلمسليف هدفه بوضوح:



"محاولة تأسيس نظرية لسانية تكون أسسها الداخلية ومفاهيمها معرفة بدقة، بحيث يمكن استخدامها لوصف وتحليل أي نص لغوي. (Hjelmslev, 1961) "الكتاب ملء بالمصطلحات المعقدة والتعريفات الدقيقة التي تهدف إلى بناء "علم" للغة وليس مجرد "إنسانيات".

3-2- مفاهيم تحليلية رئيسية

إلى جانب المبادئ الأساسية، قدمت الغلوسيماتيك مجموعة من الأدوات التحليلية والمفاهيم الثنائية لتفكيك بنية اللغة، من أهمها:

. **النسق والسيرورة: (System and Process)** هذه الثنائية تطور ثنائية سوسيري (اللغة/الكلام). "النسق" هو المحور الترابطي (paradigmatic) الذي يمثل العلاقات "إما/أو" (مثل اختيار فونيم معين بدلاً من آخر). أما "السيرورة" (أو النص) فهي المحور التركيبي (syntagmatic) الذي يمثل العلاقات "مع/مع" (مثل تتابع الفونيمات لتكوين كلمة).

. **أنواع العلاقات: (Dependencies)** حدد يلمسليف ثلاثة أنواع من العلاقات التي يمكن أن تربط بين الوحدات اللسانية:

1. **التلازم: (Interdependence)** حيث يعتمد كل طرف على الآخر (مثل

العلاقة بين الفعل والفاعل).

2. **التعيين: (Determination)** حيث يعتمد طرف على الآخر، ولكن ليس

العكس (مثل اعتماد الصفة على الموصوف).

3. **التضاييف: (Constellation)** حيث يمكن للطرفين أن يوجدوا بشكل مستقل

(مثل علاقة جملتين مستقلتين).

هذه المفاهيم، وغيرها الكثير، شكلت ما أسماه يلمسليف "جبر اللغة"، وهو نظام صوري

يهدف إلى كشف المنطق الداخلي الذي يحكم جميع اللغات الممكنة.

4- لويس يلمسليف (Louis Hjelmslev)

4-1- حياته ومسيرته الأكاديمية

ولد لويس ترول يلمسليف (1899-1965) في كوبنهاغن، الدنمارك، في عائلة أكاديمية، حيث كان والده أستاذًا للرياضيات. هذا الإرث قد يكون له أثر في توجهه نحو الصرامة المنطقية والرياضية في تحليله للغة. درس اللسانيات المقارنة في جامعة كوبنهاغن، وأظهر اهتمامًا مبكرًا باللغات الهندية الأوروبية، وقام برحلة أكاديمية إلى ليتوانيا عام 1921 لدراسة اللغة الليتوانية.

بعد حصوله على الدكتوراه، أصبح أستاذًا في جامعة آرهوس عام 1934، ثم في جامعة كوبنهاغن عام 1937، حيث بقي حتى وفاته. كانت مسيرته حافلة بالنشاط الأكاديمي، حيث أسس "الدائرة اللغوية في كوبنهاغن" عام 1931، ومجلة "Acta Linguistica" عام 1939 بالتعاون مع برونالد، والتي أصبحت منبرًا مهمًا للأفكار البنيوية في أوروبا. يُعرف يلمسليف بأنه شخصية فذة، ذات عقل منظم، وسعي دؤوب نحو بناء نظرية لسانية متكاملة وعلمية (Whitfield, 1966).

4-2- أفكاره الأساسية

يمكن تلخيص جوهر فكر يلمسليف في سعيه لتحويل اللسانيات من مجموعة من الدراسات الوصفية المتفرقة إلى علم دقيق ومستقل. كانت أفكاره ثورية في حينها، ويمكن إيجازها في النقاط التالية:

- **اللغة كبنية صورية:** الفكرة المركزية هي أن جوهر اللغة ليس في مادتها (الأصوات أو المعاني الملموسة) بل في شبكة العلاقات الصورية التي تربط وحداتها. اللغة هي "شكل" يفرض نفسه على "مادة" غير متبلورة.
- **اللسانيات كعلم محايد:** رفض يلمسليف أي تفسير للظواهر اللغوية يعتمد على عوامل خارجية. يجب أن تكون النظرية اللسانية قادرة على تفسير اللغة من داخل اللغة نفسها.
- **نحو نظرية سيميائية عامة:** لم تكن الغلوسيماتيك نظرية للغات الطبيعية فقط. كان طموح يلمسليف هو إنشاء نظرية عامة للعلامات (سيميائيات) يمكن تطبيقها على أي نظام دلالي، سواء كان لغة، أو إشارات مرور، أو فنًا، أو شطرنجًا (Trabant,)

1987). كان يرى أن اللغة هي النظام السيميائي النموذجي الذي يجب أن تنطلق منه كل دراسة للعلامات.

. التجريد والمنطق الرياضي: تأثر يلمسليف بالمنطق الرياضي والفلسفة الوضعية، وسعى لتطبيق نفس المستوى من الصرامة والتجريد على اللغة، مما جعل نظريته تبدو كأنها "جبر" أو "حساب" لغوي.

3-4- منهجه وطريقته في التحليل

يتسم منهج يلمسليف في التحليل بالدقة والمنهجية الصارمة، وهو ما يميزه عن غيره من البنيويين. يمكن وصف طريقته بأنها عملية "تفكيك" (analysis) "منظمة تتبع خطوات محددة، من الكل إلى الجزء.

الخطوة الأولى: النص كسلسلة متصلة

يبدأ التحليل دائماً من "النص" (text) "في كليته. النص هو أي سلسلة لغوية منطوقة أو مكتوبة. يُنظر إلى هذا النص في البداية على أنه "سيرورة" (process) "أو سلسلة غير مقسمة.

الخطوة الثانية: التقسيم (Partition)

تتمثل الخطوة التالية في تقسيم النص إلى أجزاء أصغر فأصغر. يتم هذا التقسيم على مستويي التعبير والمضمون بشكل متوازٍ. على سبيل المثال، يمكن تقسيم النص إلى فصول، ثم فقرات، ثم جمل، ثم مركبات، ثم كلمات. تستمر هذه العملية حتى نصل إلى أصغر الوحدات الممكنة. يعتمد هذا التقسيم على العلاقات المتبادلة بين الوحدات (التلازم، التعيين،

التضايغ) (Hjelmslev, 1961).

الخطوة الثالثة: تحديد الثوابت والمتغيرات

أثناء عملية التقسيم، يسعى المحلل إلى تحديد "الثوابت" (invariants) "، وهي الوحدات المجردة التي تنتمي إلى "النسق" (system) "، و"المتغيرات" (variants) "، وهي التجليات المادية لهذه الوحدات في "السيرورة" (process) "على سبيل المثال، الفونيم /b/ هو ثابت (وحدة في النسق)، بينما الطرق المختلفة لنطقه في سياقات مختلفة هي متغيرات (تجليات في السيرورة).

الخطوة الرابعة: الوصول إلى الغلوسيمات

الهدف النهائي للتحليل هو الوصول إلى قائمة الجرد النهائية للوحدات غير القابلة للتقسيم، وهي "الغلوسيمات". هذه الغلوسيمات هي العناصر الأساسية التي يتكون منها النسق اللغوي. في مستوى التعبير، تسمى هذه الوحدات "سينيمات" (cenemes)، وهي تقابل الفونيمات تقريباً. وفي مستوى المضمون، تسمى "بليريمات" (pleremes)، وهي أصغر وحدات المعنى.

"التحليل هو إذن تسجيل للعلاقات. إنه يهدف إلى وصف الموضوع من خلال شبكة من العلاقات المتبادلة، بحيث تُعرّف كل وحدة من خلال مكانتها في هذه الشبكة".

هذا المنهج الاستنباطي الصوري يضمن أن التحليل يبقى "محايثاً"، حيث تُعرّف كل وحدة ليس بماهيتها المادية، بل بمجموع علاقاتها مع الوحدات الأخرى في النسق. إنها طريقة تنتظر إلى اللغة كهيكلم معماري خالص.

5- خلاصة

تمثل مدرسة كوبنهاغن، ونظريتها الغلوسيماتية، أقصى ما وصلت إليه اللسانيات البنيوية من حيث التجريد والصورنة. بقيادة العقل الفذ للويس يلمسليف، سعت المدرسة إلى تحرير دراسة اللغة من كل ما هو غير لغوي، وتأسيس علم لغة محايث، دقيق، ومكتفٍ بذاته، على غرار العلوم المنطقية والرياضية.

كان الإسهام الأبرز ليلمسليف هو تطويره لمفاهيم سوسير، خاصة من خلال التمييز الدقيق بين الشكل والمادة على مستويي التعبير والمضمون. هذا النموذج الرباعي (شكل ومادة التعبير، شكل ومادة المضمون) أتاح فهمًا أعمق لكيفية عمل اللغة كبنية صورية تفرض نظامها على واقع فكري ومادي غير متشكل. كما أن تركيزه على المنهج الاستنباطي ومبدأ المحايثة وضع معايير جديدة للصرامة العلمية في التحليل اللساني.

على الرغم من أن الغلوسيماتيك لم تحظ بنفس الانتشار الذي حظيت به مدارس أخرى مثل مدرسة براغ أو التوليدية التحويلية، خاصة في الولايات المتحدة، بسبب تعقيدها الشديد وطابعها النظري المجرد، إلا أن تأثيرها كان عميقاً ودائماً. لقد ألهمت أفكار يلمسليف بشكل مباشر تطور السيميائيات الأوروبية، خاصة أعمال ألخيرداس غريماس (A.J. Greimas)

ورولان بارت (Roland Barthes) كما أن مفاهيمها حول الطبقات اللغوية (stratification) وجدت صدًى في نماذج لسانية لاحقة مثل النحو الوظيفي النظامي

(Systemic Functional Linguistics) لمايكل هاليداي (Bache, 2010)

في الختام، تظل مدرسة كوبنهاغن شاهداً على طموح لا حدود له لجعل اللسانيات علماً دقيقاً. ورغم أن هذا الطموح قد يبدو متطرفاً، إلا أن المبادئ التي أرسنها، خاصة مبدأ المحايثة والتركيز على اللغة كبنية صورية، لا تزال تشكل جزءاً أساسياً من النقاش النظري في اللسانيات والسيمانيات حتى يومنا هذا، وتدفعنا دائماً إلى التساؤل عن جوهر اللغة وماهية التحليل اللساني.

أسئلة حول المحاضرة للمناقشة

تهدف هذه الأسئلة إلى تعميق الفهم وتشجيع التفكير النقدي حول مبادئ مدرسة كوبنهاغن وتأثيرها.

1. مبدأ المحايثة: يصير يلمسليف على دراسة اللغة كنظام مغلق بمعزل عن العوامل النفسية والاجتماعية. إلى أي مدى يعتبر هذا المبدأ واقعياً ومفيداً؟ وهل يمكن حقاً فهم اللغة بشكل كامل دون الرجوع إلى سياقها واستخدامها الفعلي؟ قارن هذا الموقف بموقف اللسانيات الاجتماعية أو التداولية.

2. اللغة شكل لا مادة: اشرح بمثال من عندك (غير مثال الألوان) كيف يمكن تطبيق نموذج يلمسليف الرباعي (شكل/مادة التعبير، شكل/مادة المضمون). ما هي القيمة التحليلية لهذا التمييز؟

3. المنهج الاستنباطي مقابل الاستقرائي: يفضل يلمسليف البدء من النص (الكل) والوصول إلى الوحدات الصغرى (الأجزاء). ما هي مزايا وعيوب هذا المنهج مقارنة بالمنهج الاستقرائي الذي قد يبدأ من الأصوات أو الكلمات؟

4. الغلوسيماتيك كـ "جبر للغة": "ما الذي يعنيه يلمسليف عندما يصف نظريته بأنها "جبر للغة"؟ هل تعتقد أن اللغة البشرية، بكل تعقيداتها وإبداعيتها، يمكن اختزالها إلى نظام صوري شبيه بالرياضيات؟

5. تأثير يلمسليف: على الرغم من صعوبة نظريته، كان ليلمسليف تأثير كبير على السيميائيين. كيف يمكن لأفكاره حول "وظيفة العلامة" و"الأنظمة السيميائية" أن تساعد في تحليل أنظمة غير لغوية (مثل الموضة، السينما، أو الإعلانات)؟
6. مقارنة بين المدارس: ما هي أوجه التشابه والاختلاف الرئيسية بين مدرسة كوبنهاغن ومدرسة براغ البنيوية؟ ركز على مفاهيم مثل "الوظيفة" و"البنية" في كلتا المدرستين.
7. مصطلحات الغلوسيماتيك: تتميز نظرية يلمسليف بكثرة مصطلحاتها الجديدة والمعقدة. هل كان هذا ضروريًا لبناء علم جديد للغة، أم أنه كان عائقًا أمام فهم وانتشار النظرية؟
8. أهمية يلمسليف اليوم: في عصر تهيمن عليه اللسانيات المعرفية والحاسوبية، هل لا يزال هناك مكان لأفكار يلمسليف الصورية والمجردة؟ ما الذي يمكن أن نتعلمه من منهجه اليوم؟

قائمة المراجع

- Bache, C. (2010). Hjelmslev's Glossematics: A source of inspiration to Systemic Functional Linguistics? *Journal of Pragmatics*, 42(9), 2562–2578.
- Garvin, P. L. (1954). Review of *Prolegomena to a Theory of Language* by Louis Hjelmslev. *Language*, 30(1), 69–96.
- Hjelmslev, L. (1961). *Prolegomena to a Theory of Language* (F. J. Whitfield, Trans.). University of Wisconsin Press. (Original work published 1943).
- Sierstema, B. (1965). *A Study of Glossematics: Critical Survey of its Fundamental Concepts* (2nd ed.). Martinus Nijhoff.
- Trabant, J. (1987). Louis Hjelmslev: Glossematics as General Semiotics. In M. Krampen, K. Oehler, R. Posner, T. A. Sebeok, & T. von Uexküll (Eds.), *Classics of Semiotics* (pp. 89–108). Springer.



المحاضرة السابعة: المدرسة الوظيفية الفرنسية

تمهيد

تُعد المدرسة الوظيفية الفرنسية، التي يُشار إليها أحيانًا بـ "مدرسة باريس الوظيفية"، إحدى أهم التيارات اللسانية في القرن العشرين. قامت هذه المدرسة على أنقاض البنيوية الأوروبية، متأثرة بشكل خاص بحلقة براغ اللسانية، لكنها طورت رؤية مستقلة ومتميزة تركز على مبدأ جوهري وهو "الوظيفة". ففي نظر الوظيفيين، اللغة ليست بنية صورية مجردة، بل هي في المقام الأول أداة للتواصل الإنساني، وكل عنصر فيها، صوتيًا كان أم تركيبًا، لا يكتسب قيمته إلا من خلال الدور الذي يؤديه في تحقيق هذا التواصل.

تهدف هذه المحاضرة إلى استكشاف الأسس الفكرية والنظرية للمدرسة الوظيفية الفرنسية، بدءًا من نشأتها التاريخية وأبرز أعلامها، وعلى رأسهم أندريه مارتينييه (André Martinet)، وصولًا إلى مبادئها الأساسية في التحليل اللساني. سنسلط الضوء على مفاهيمها المحورية مثل "الوظيفة" و"التقطيع المزدوج"، ونستعرض منهجيتها في دراسة النظام الصوتي والتركيب، مع التركيز على كيفية فهمها للبنية والتطور اللغوي من منظور وظيفي بحت. إن فهم هذه المدرسة لا يثري معرفتنا بتاريخ الفكر اللساني فحسب، بل يقدم لنا أيضًا أدوات تحليلية قوية لفهم اللغات الطبيعية كأنظمة اقتصادية وفعالة (لطرش، 2022).

1- نشأة المدرسة الوظيفية

نشأت المدرسة الوظيفية الفرنسية في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، وهي فترة شهدت هيمنة التيار البنيوي في أوروبا وأمريكا. يمكن اعتبار هذه المدرسة امتدادًا وتطويرًا للبنيوية الوظيفية التي أرسى دعائمها مدرسة براغ في فترة ما بين الحربين. كان أندريه مارتينييه، مؤسس هذا الاتجاه، على صلة وثيقة بأعضاء حلقة براغ، وخاصة رومان ياكبسون ونيقولا تروبتسكوي، وتأثر بعمق بأفكارهم حول وظائف اللغة والنظام الصوتي (الفونولوجيا). لكن مارتينييه لم يكتفِ بتبني أفكار حلقة براغ، بل عمل على تجاوزها وتطويرها. فبينما ركزت براغ على الوظائف المتعددة للغة (التعبيرية، الشعرية، المرجعية، إلخ)، حصر مارتينييه

اهتمامه في الوظيفة الأساسية والأولية: وظيفة التواصل. يرى مارتينييه أن هذه الوظيفة هي التي تشكل بنية اللغة وتوجه تطورها. (Martinet, 1962) وقد جاءت أفكاره كرد فعل على اتجاهين رئيسيين في عصره: أولاً، البنيوية الأمريكية التوزيعية بزعم بلومفيلد، التي كانت ترفض دراسة المعنى وتكتفي بالتحليل الشكلي للتوزيع. ثانياً، اللسانيات السوسيرية التي، رغم أهميتها، بقيت في نظر مارتينييه وصفية بشكل كبير ولم تول اهتماماً كافياً لديناميكيات التغيير اللغوي من منظور وظيفي.

2- أعلامها

يظل اسم أندريه مارتينييه (1908-1999) هو الاسم الأبرز والمرادف للمدرسة الوظيفية الفرنسية. فهو واضع أسسها النظرية والمنهجية، وقد تجلت أفكاره بوضوح في أعماله الرئيسية مثل "اقتصاد التغيرات الصوتية" (Économie des changements phonétiques, 1955) و"مبادئ في اللسانيات العامة" (Éléments de linguistique générale, 1960). لقد بنى مارتينييه صرحاً نظرياً متكاملاً يغطي الفونولوجيا، والنحو، والدلالة، والتطور اللغوي، كله من منظور وظيفي.

وإلى جانب مارتينييه، برز عدد من اللسانيين الذين تبنا المنهج الوظيفي وطوروه في مجالات مختلفة. من بينهم جورج مونان (Georges Mounin)، الذي اهتم بتاريخ اللسانيات ومشكلات الترجمة من منظور وظيفي (Mounin, 1974) وكذلك جين مارتينييه (Jeanne Martinet)، التي طبقت المبادئ الوظيفية في مجال اللسانيات التطبيقية وتعليم اللغات. كما يمكن ذكر أسماء أخرى مثل هنرييت والتر (Henriette Walter) وفريديريك فرانسوا (Frédéric François) الذين ساهموا في نشر وتطبيق الفكر الوظيفي في فرنسا وخارجها.

3- مبادئ اللسانيات العامة

تقوم اللسانيات الوظيفية عند مارتينييه على مجموعة من المبادئ التي تشكل رؤيتها للغة كنظام. هذه المبادئ ليست مجرد افتراضات نظرية، بل هي أدوات إجرائية توجه عملية التحليل اللساني في كافة مستوياته. من أبرز هذه المبادئ مفهوم "الوظيفة" ومفهوم "التقطيع المزدوج".

3-1- مفهوم الوظيفة (La Fonction)

الوظيفة هي حجر الزاوية في فكر مارتينييه. بالنسبة له، اللغة "أداة تواصل" بالدرجة الأولى، وهذا هو تعريفها الوظيفي. أي ظاهرة لغوية لا يمكن فهمها فهمًا حقيقيًا إلا بربطها بالدور الذي تؤديه في عملية الإبلاغ والتفاهم بين المتكلمين. هذا الموقف يتعارض بشكل مباشر مع المقاربات الصورية (Formalist) التي ترى اللغة كنظام رياضي مجرد من الرموز والقواعد، بمعزل عن استخدامها الفعلي.

تتجلى هذه الوظيفة التواصلية في كل مستويات اللغة:

. على المستوى الصوتي: وظيفة الفونيم (الوحدة الصوتية المميزة) هي التمييز بين الوحدات الدالة (المونيمات). فالاختلاف بين /b/ و /p/ في العربية وظيفي لأنه يميز بين "برد" و "برد" (جمع بردة) أو "باب" و "تاب". أما الاختلافات النطقية غير المميزة (الألوفونات) فهي ليست وظيفية (عبادي، 2021).

. على المستوى التركيبي: وظيفة الوحدات النحوية (مثل حروف الجر، أدوات التعريف، نهايات التصريف) هي تحديد العلاقات بين الوحدات المعجمية في الجملة. ففي جملة "ضرب الولد الكرة"، وظيفة الضمة على "الولد" هي تحديد الفاعل، ووظيفة الفتحة على "الكرة" هي تحديد المفعول به.

"إن القول بأن اللغة أداة تواصل يعني أن التحليل اللساني يجب أن يسعى دائمًا إلى كشف الصلة بين الشكل الخارجي للعلامات اللغوية والمعلومات التي تنقلها في سياق معين. (Martinet, 1962, p. 15).

هذا التركيز على الوظيفة يقود إلى مبدأ آخر مهم وهو "اقتصاد اللغة". فاللغة، كأداة فعالة، تميل إلى تحقيق أكبر قدر من التواصل بأقل قدر من الجهد. هذا التوتر الدائم بين الحاجة إلى الوضوح (لتجنب اللبس) وميل المتكلم إلى الاقتصاد في الجهد (السهولة في النطق والتفكير) هو، في نظر مارتينييه، المحرك الأساسي للتغير اللغوي.

3-2- مفهوم التقطيع المزدوج (La Double Articulation)

يُعد مفهوم التقطيع المزدوج من أشهر إسهامات مارتينييه وأكثرها أصالة، وهو السمة التي يرى أنها تميز اللغة البشرية عن كل أنظمة التواصل الأخرى، سواء كانت حيوانية أم اصطناعية.

يعرّف مارتينييه اللغة بأنها "أداة تواصل تنقطع تقطيعاً مزدوجاً وتتجسد صوتياً" (لطرش، 2022). هذا يعني أن أي ملفوظ لغوي يمكن تحليله على مستويين متتاليين من التقطيع:

3-2-1- التقطيع الأول (Première Articulation)

في هذا المستوى، يتم تقطيع السلسلة الكلامية المتصلة إلى وحدات دنيا دالة، أي وحدات تحمل معنى. أطلق مارتينييه على هذه الوحدات اسم "المونيمات" (Monèmes) "المونيم هو أصغر وحدة لغوية لها دلالة وشكل صوتي. هذا المفهوم يحل محل مفهومي "الكلمة" (الذي اعتبره غامضاً) و "المورفيم" (الذي ارتبط بالبنوية الأمريكية). على سبيل المثال، يمكن تقطيع الجملة الفرنسية "Je marcherai" (سأمشي) إلى ثلاثة مونيمات:

- Je: مونيم يدل على ضمير المتكلم المفرد.
 - march-: مونيم معجمي يدل على فعل "المشي".
 - -erai: مونيم نحوي يدل على زمن المستقبل للشخص الأول المفرد.
- وفي العربية، جملة مثل "يكتبون الدرس" يمكن تقطيعها إلى المونيمات التالية: "ي" (مضارعة)، "كتب" (جذر دال على الكتابة)، "-ون" (فاعل جمع مذكر)، "ال" (تعريف)، "درس" (مادة الكتابة). كل وحدة من هذه الوحدات لها معنى ووظيفة محددة. عدد المونيمات في أي لغة يكون كبيراً جداً ولكنه محدود (عبادي، 2021).

3-2-1- التقطيع الثاني (Seconde Articulation)

في هذا المستوى، يتم تقطيع المونيمات (التي هي وحدات دالة) إلى وحدات أصغر غير دالة بذاتها، ولكنها مميزة. هذه الوحدات هي "الفونيمات" (Phonèmes) "الفونيم هو وحدة صوتية مجردة وظيفتها الوحيدة هي بناء المونيمات والتمييز بينها. على سبيل المثال، المونيم "كتب" /katab/ "يتقطع إلى ثلاثة فونيمات /k/، /a/، /t/، /a/، /b/. هذه الفونيمات ليس لها معنى في حد ذاتها، لكن تغيير أي منها قد يؤدي إلى تغيير المونيم بأكمله) مثلاً، استبدال /k/ بـ /ð/ يعطينا "ذهب" /ðahab/، وهو مونيم مختلف تماماً). إن أهمية التقطيع المزدوج تكمن في "اقتصاد اللغة". فبفضل هذا المبدأ، تستطيع اللغة البشرية توليد عدد لا حصر له من الرسائل (الجمال) باستخدام عدد محدود من المونيمات، وهذه

المونيمات بدورها تُبنى من عدد محدود جدًا من الفونيمات (عادة ما بين 20 إلى 50 فونيمًا في أي لغة). هذا النظام الاقتصادي هو ما يمنح اللغة البشرية مرونتها وقدرتها التعبيرية الهائلة (Martinet, 1962).

4- مبادئ التحليل الوظيفي

ينبني التحليل الوظيفي على مجموعة من الإجراءات التي تهدف إلى تحديد الوحدات اللغوية ووظائفها والعلاقات التي تربطها. لا يهتم التحليل الوظيفي بالشكل في حد ذاته، بل بالشكل من حيث هو حامل لوظيفة تواصلية.

4-1- العلاقات القائمة بين الوحدات

يتبنى مارتينيه، مثل سوسير، التمييز بين نوعين من العلاقات:

. **العلاقات التركيبية: (Syntagmatic)** وهي علاقات الحضور الفعلي للوحدات في السلسلة الكلامية. إنها علاقات "و...و". في جملة "الطفل الذكي يقرأ"، توجد علاقة تركيبية بين "الطفل" و"الذكي"، وبين "يقرأ" وبقية الجملة. التحليل الوظيفي يدرس طبيعة هذه العلاقات: هل هي علاقة تبعية (dependency)، أم تنسيق (coordination)، أم غيرها؟

. **العلاقات الاستبدالية: (Paradigmatic)** وهي علاقات الحضور الذهني أو الافتراضي. إنها علاقات "إما...أو". في موضع "الطفل" في الجملة السابقة، يمكننا استبداله بـ "الرجل"، "الطالب"، "هو"، إلخ. هذه الوحدات التي يمكن أن تحل محل بعضها في نفس السياق تشكل "جدولًا استبداليًا". التحليل الوظيفي يستخدم اختبار الاستبدال (commutation test) لتحديد الوحدات المميزة (الفونيمات والمونيمات) (لطرش، 2022).

4-2- موضع الوحدات

يلعب موضع الوحدة في السلسلة الكلامية دورًا حاسمًا في تحديد وظيفتها. في اللغات ذات الإعراب المحدود مثل الفرنسية أو الإنجليزية، غالبًا ما يكون الترتيب هو الذي يحدد الوظائف النحوية. في جملة "Pierre frappe Jean" (بيير يضرب جان)، الموضع قبل الفعل يحدد وظيفة الفاعل، والموضع بعده يحدد وظيفة المفعول به. وحتى في لغة كالعربية ذات الإعراب

الغني، يظل للترتيب أهمية وظيفية ودلالية، فالتقديم والتأخير غالباً ما يرتبط بوظائف تداولية كالتوكيد أو الاهتمام.

4-3- المحتوى الدلالي للوحدات

على عكس التوزيعيين، يرى مارتينييه أن المعنى جزء لا يتجزأ من التحليل اللساني. لا يمكن تحديد المونيمات إلا بالرجوع إلى معناها. اختبار الاستبدال نفسه يعتمد على ملاحظة ما إذا كان التغيير في الشكل الصوتي يؤدي إلى تغيير في المعنى أم لا. فإذا نطقنا "بيت" مرة بالتاء المفخمة ومرة بالتاء المرققة، فإننا لا نحصل على مونيمين مختلفين لأن المعنى لم يتغير. أما إذا استبدلنا الباء بالتاء لنحصل على "تيت"، فإننا لا نحصل على مونيم أصلاً في العربية لعدم وجود معنى. فالمعنى هو المعيار الأساسي لتحديد الوحدات الدالة (الحمزاوي، 1986).

4-4- مفهوم البنية (La Structure)

البنية عند مارتينييه ليست شيئاً ثابتاً أو صورياً. إنها "بنية وظيفية". هي ليست مجرد جرد للعناصر، بل هي شبكة من العلاقات الوظيفية التي تربط هذه العناصر. بنية اللغة هي النظام الذي يحكم كيفية قيام الوحدات بوظائفها التواصلية. هذه البنية ديناميكية وليست ثابتة، لأنها تتأثر باستمرار بالاستعمال اللغوي وتخضع للتغير عبر الزمن لتلبية الحاجات التواصلية للمتكلمين بشكل أكثر اقتصادية وفعالية.

5- الاهتمام الوظيفي أثناء التطور اللساني

يُعد إسهام مارتينييه في مجال اللسانيات التاريخية (Diachronic Linguistics) من أهم جوانب نظريته. ففي كتابه "اقتصاد التغيرات الصوتية"، قدم رؤية ثورية للتغير اللغوي، حيث لم يعد التغير مجرد سلسلة من الأحداث العشوائية، بل أصبح عملية منظمة تحكمها مبادئ وظيفية واقتصادية.

يرى مارتينييه أن التغير اللغوي ينشأ من التفاعل بين قوتين متعارضتين:

1. الحاجة إلى التواصل: (Besoin de communication) تتطلب هذه الحاجة نظاماً

لغويًا واضحًا ودقيقًا، قادرًا على نقل الفروق الدلالية اللازمة وتجنب اللبس والغموض.

هذه القوة تدفع نحو الحفاظ على التقابلات الوظيفية أو حتى خلق تقابلات جديدة.

2. مبدأ الجهد الأدنى (Principe du moindre effort): يميل المتكلمون بطبيعتهم

إلى الكسل والافتصاد في الجهد العضلي والذهني عند الكلام. هذه القوة تدفع نحو تبسيط التراكيب، وتقصير الكلمات، وإدغام الأصوات، وتقليل عدد التقابلات التي يجب على المتكلم والمستمع تذكرها.

التغير اللغوي هو النتيجة الديناميكية لهذا الصراع الدائم. فالنظام اللغوي في أي لحظة من تاريخه هو حالة توازن مؤقتة بين هاتين القوتين. (Martinet, 1962) وقد شرح مارتينييه آليات هذا التغير من خلال عدة مفاهيم:

. الضغط البنوي (Pression structurale): التغير في جزء من النظام الصوتي قد

يؤدي إلى سلسلة من التغيرات في أجزاء أخرى للحفاظ على التوازن. على سبيل المثال، إذا اندمج فونيمان في فونيم واحد (مثلاً، زوال التقابل بين صوتين)، فإن هذا قد "يفرغ" مكاناً في "الفضاء الفونولوجي"، مما قد يشجع فونيمًا آخر على التحرك لملء هذا الفراغ. هذا ما يسمى بـ "السحب (Drag chain)" و "الدفع (Push chain)".

. الحمل الوظيفي (Rendement fonctionnel): ليس لكل التقابلات الفونولوجية

نفس الأهمية. التقابل الذي يميز بين عدد كبير من أزواج الكلمات) مثل /b/ و /p/ في الإنجليزية (له "حمل وظيفي" عالٍ، وبالتالي يكون أكثر مقاومة للتغير. أما التقابل الذي يميز بين عدد قليل جدًا من الكلمات) مثل /θ/ و /ð/ في بعض المواقع بالإنجليزية (قله حمل وظيفي منخفض، ويكون أكثر عرضة للزوال).

. التغير العلاجي (Changement thérapeutique): قد يتدخل النظام اللغوي

"لعلاج" المشاكل التي تنشأ عن التغيرات الصوتية، خاصة مشكلة الالتباس الناجمة عن التقاء المتجانسات (Homophony) على سبيل المثال، إذا أدى تطور صوتي إلى تطابق كلمتين مهمتين، قد يلجأ المتكلمون إلى استبدال إحداها بكلمة أخرى أو إضافة عنصر توضيحي للحفاظ على الوضوح. (Mounin, 1974)

بهذه الرؤية، أعاد مارتينييه الاعتبار للسانيات التاريخية وربطها بالسانيات الآنية (السانكرونية)، مؤكداً أن فهم بنية اللغة الحالية لا يكتمل دون فهم القوى الوظيفية التي شكلتها عبر التاريخ.

6- الدراسة التركيبية (التحليل النحوي الوظيفي)

يقدم مارتينييه تحليلًا للنحو (Syntax) يختلف جذريًا عن التحليل التوليدي أو حتى التحليل البنيوي التقليدي. يسمى نحوه بـ "النحو الوظيفي"، وهو يبدأ من الوظيفة لينتهي إلى الشكل، وليس العكس. نقطة الانطلاق في تحليله ليست الجملة كوحدة صورية، بل "الخبرة" التي يريد المتكلم نقلها.

التحليل التركيبي عند مارتينييه هو في جوهره تحليل للتقطيع الأول. إنه يسعى إلى تحديد المونيمات التي يتكون منها الملفوظ، وتصنيفها، وتحديد الوظائف التي يؤديها كل مونيم والعلاقات التي تربطه بغيره (عبادي، 2021).

6-1- اللفظة (المونيم) المستقلة واللفظة النحوية

يميز مارتينييه بين نوعين رئيسيين من المونيمات (اللفظات):

. اللفظة المستقلة أو المعجمية: (Monème autonome / lexème) هي

المونيمات التي تحمل المعنى الأساسي للخبرة المراد نقلها. تنتمي إلى قائمة مفتوحة (يمكن إضافة وحدات جديدة إليها باستمرار). تشمل الأسماء، والأفعال، والصفات، والظروف. مثل: "بيت"، "كتب"، "سريع".

. اللفظة النحوية أو التابعة: (Monème dépendant / morphème) هي

المونيمات التي تحدد العلاقات بين المونيمات المعجمية أو تحدد طبيعتها. تنتمي إلى قائمة مغلقة ومحدودة العدد. تشمل الضمائر، وحروف الجر، وحروف العطف، وعلامات التصريف (مثل نهايات الفعل، علامات الجمع). مثل: "في"، "الـ"، "وَنَ".

6-2- الوظيفة الدلالية والعبارة المستقلة

الوظيفة الدلالية هي الدور الذي يلعبه المونيم في بناء المعنى الكلي للملفوظ. فمونيم "الولد" في "رأيت الولد" يؤدي وظيفة "المفعول به"، وهي وظيفة نحوية، لكنه دلاليًا يشير إلى "المتأثر بالفعل". يركز التحليل الوظيفي على تحديد هذه الوظائف بدقة.

العبارة المستقلة (Énoncé autonome) هي الوحدة الأساسية في التحليل التركيبي عند مارتينييه. إنها أي ملفوظ يمكن أن يشكل رسالة كاملة بمفرده، مثل "مطر"، "أخرج!"، أو

"الجو جميل اليوم". التحليل الوظيفي يبدأ من هذه العبارات الفعلية ويحللها إلى مكوناتها الوظيفية.

7- التركيب الإسنادي (La construction prédicative)

التركيب الإسنادي هو النواة الأساسية لأغلب العبارات. يتكون من "محمول (Prédicat)" و"ملحقات (Compléments)". المحمول هو العنصر المركزي الذي "يُقال" شيء ما عنه أو عن غيره، وغالبًا ما يكون الفعل. أما الملحقات فهي العناصر التي ترتبط بالمحمول لتكمل معناه، مثل الفاعل والمفعول به.

7-1- الإلحاق بالطرق (Adjonction)

يشير هذا المصطلح إلى علاقة التبعية التي تربط عنصرًا ثانويًا (تابعًا) بعنصر أساسي (متبوع). التابع هنا يضيف معلومة إضافية أو يحدد المتبوع. العلاقة بين الصفة والموصوف هي مثال نموذجي على الإلحاق. في "بيت كبير"، المونيم "كبير" ملحق بالمونيم "بيت". وكذلك الظرف الذي يلحق بالفعل في "يجري بسرعة". هذه العناصر الملحقة تسمى "الموسّعات (expansions)" لأنها توسع معنى النواة (لطرش، 2022).

7-2- الوصل والتعلق (Jonction et Dépendance)

هذه المصطلحات تصف العلاقات بين المكونات الرئيسية في الجملة. التعلق (Dépendance) هو العلاقة الأساسية بين المحمول (الفعل) وملحقاته الأساسية (الفاعل، المفعول به). فوجود المفعول به "الكتاب" في "قرأ الولد الكتاب" يتعلق بوجود الفعل "قرأ". ويتحدد به. أما الوصل (Jonction) فيشير إلى علاقة التنسيق بين وحدتين متكافئتين وظيفيًا، كما في "جاء زيد وعمرو"، حيث يتم الوصل بين "زيد" و"عمرو" بأداة الوصل "و".

8- أنواع الوحدات التركيبية

لتوصيف البنى النحوية بدقة، طور مارتينييه وتلامذته نظامًا وصفيًا للمركبات النحوية يتجاوز المفاهيم التقليدية (كلمة، عبارة، جملة). يعتمد هذا النظام على مفهوم "اللقطة" (المونيم) كنواة يمكن أن تتوسع.

8-1- اللفظة البسيطة (Le syntagme simple)

هي وحدة تتكون من مونيم واحد فقط، سواء كان معجميًا أو نحويًا. مثل: "رجل"، "في"، "هو".

8-2- اللفظة الممتدة (Le syntagme étendu)

هي وحدة تتكون من نواة (مونيم أساسي) مع تابع واحد أو أكثر يلحق بها. هذا التابع يوسع معنى النواة. المثال الكلاسيكي هو المركب الاسمي المكون من اسم وصفة، مثل "الرجل الطويل". هنا "الرجل" هو النواة و"الطويل" هو الموسّع. (expansion) العلاقة بينهما هي علاقة إلحاق.

8-3- اللفظة المطولة (Le syntagme allongé)

تتشكل هذه الوحدة عندما يكون الموسّع نفسه عبارة عن لفظة ممتدة. أي أنها بنية متداخلة. في عبارة "الرجل الطويل جدًا"، "الطويل جدًا" هي لفظة ممتدة (نواتها "طويل" وموسّعها "جدًا")، وهذه اللفظة بكاملها تعمل كموسّع للنواة "الرجل".

8-4- اللفظة المحددة أو المصغرة (Le syntagme déterminé / minimal)

يشير هذا المصطلح إلى النواة الأساسية للعبارة بعد تجريدها من كل الموسّعات الاختيارية. في جملة "الولد الذكي في الصف يقرأ كتابًا ممتعًا ببطء"، اللفظة المصغرة التي تشكل نواة الإسناد هي "الولد يقرأ كتابًا". كل العناصر الأخرى ("الذكي"، "في الصف"، "ممتعًا"، "ببطء") هي موسّعات يمكن حذفها دون أن تنهار البنية الأساسية للجملة (عبادي، 2021).

8-5- اللفظة المسترخية (Le syntagme lâche)

هي وحدة تركيبية ترتبط ببقية الجملة ارتباطًا ضعيفًا، وغالبًا ما تكون معزولة بالتنغيم أو بعلامات الترقيم (الفواصل). من أمثلتها الجمل الاعتراضية أو البدل. في جملة "زيد، وهو صديقي، وصل باكراً"، فإن "وهو صديقي" هي لفظة مسترخية. وظيفتها غالبًا ما تكون تقديم معلومة إضافية أو تعليق، وليست جزءًا لا يتجزأ من البنية الإسنادية الأساسية.



9- الصيغة الارتباطية والصيغة التركيبية

في محاولة لتقديم تمثيل دقيق للبنية الوظيفية، استخدم اللسانيون الوظيفيون صيغة خاصة لوصف العلاقات النحوية. هذه الصيغة تهدف إلى إظهار الوظائف والتبعيات بدلاً من مجرد إظهار المكونات المباشرة كما في الشجرات النحوية التوليدية.

9-1- الصيغة الارتباطية (Formule de dépendance)

هي صيغة تهدف إلى إظهار شبكة العلاقات التبعية داخل الجملة. يتم تمثيل المحمول (الفعل عادة) كمركز، وتخرج منه أسهم تشير إلى الملحقات التابعة له (الفاعل، المفعول به، إلخ). ثم تخرج من هذه الملحقات أسهم أخرى تشير إلى توابعها (الصفات، المضاف إليه). هذه الصيغة تشبه إلى حد كبير ما يعرف في اللسانيات الحاسوبية بـ "أشجار التبعية" (Dependency Trees). على سبيل المثال، في "الولد الذكي يقرأ كتاباً"، "يقرأ" هي النواة، ويرتبط بها "الولد" (فاعل) و"كتاباً" (مفعول به). ويرتبط "الذكي" بـ "الولد" كتاب (لطرش، 2022).

9-2- الصيغة التركيبية (Formule syntagmatique)

هي صيغة أبسط تصف بنية اللقطة (Syntagme) على سبيل المثال، يمكن تمثيل اللقطة الاسمية الممتدة "الولد الذكي" بالصيغة $N + Adj$: (اسم + صفة)، مع الإشارة إلى أن الصفة تابعة للاسم. هذه الصيغة تساعد على تصنيف أنواع المركبات المختلفة في لغة ما بناءً على بنيتها الوظيفية الداخلية.

إن الهدف من هذه الصيغة ليس بناء نموذج رياضي للغة، بل توفير أداة وصفية دقيقة وواضحة تكشف عن الهيكل الوظيفي للغة كما هي مستخدمة فعلياً، مع التركيز على العلاقات الهرمية بين المكونات.

خلاصة

لقد قدمت المدرسة الوظيفية الفرنسية، بقيادة أندريه مارتينييه، منظوراً متكاملًا وعميقاً للغة، يركز على فكرة جوهرية مفادها أن اللغة أداة تواصل اقتصادية وفعالة. من خلال مفاهيم محورية مثل "الوظيفة"، و"التقطيع المزدوج"، و"اقتصاد اللغة"، تمكنت هذه المدرسة من تقديم تفسيرات مقنعة ليس فقط لبنية اللغة في حالتها الراهنة (اللسانيات الأنية)، بل أيضاً لآليات تطورها عبر الزمن (اللسانيات التاريخية).

في مجال النحو، قدمت المدرسة بديلاً عن التحليل الشكلي من خلال "النحو الوظيفي" الذي ينطلق من المعنى والوظيفة لتحليل التراكيب. لقد استبدلت المفاهيم التقليدية بمفاهيم إجرائية أكثر دقة مثل "المونيم" و"اللغة" بأنواعها المختلفة، وركزت على شبكة العلاقات الوظيفية (التبعية، الإلحاق، الوصل) التي تشكل الهيكل الحقيقي للجملة. ورغم أن بعض مصطلحاتها قد تبدو معقدة، إلا أنها تعكس محاولة جادة لوصف اللغة في تعقيدها الواقعي، بعيداً عن التبسيطات الصورية. يبقى إرث المدرسة الوظيفية حاضراً بقوة في الفكر اللساني المعاصر، خاصة في مجالات اللسانيات التاريخية، والصوتيات الوظيفية، ودراسات الترجمة، والنحو الوظيفي.

أسئلة حول المحاضرة لمناقشتها مع الطلبة

1. قارن بين مفهوم "المونيم" عند مارتينييه ومفهوم "المورفيم" في اللسانيات البنوية الأمريكية. ما هي أوجه التشابه والاختلاف؟ وأي المفهومين تراه أكثر دقة في تحليل بنية الكلمات في اللغة العربية؟
2. يُعد مبدأ "التقطيع المزدوج" السمة المميزة للغة البشرية في نظر مارتينييه. اشرح هذا المبدأ بالتفصيل، ثم حاول تطبيقه على جملة عربية معقدة من اختيارك، محدداً التقطيع الأول (المونيمات) والتقطيع الثاني (الفونيمات).
3. يرى مارتينييه أن التغير اللغوي تحكمه قوى "اقتصادية". ناقش هذه الفكرة من خلال مفهوم "الحمل الوظيفي" و"الضغط البنوي". هل يمكنك إعطاء أمثلة من تطور اللغة العربية (أو لهجاتها) تدعم هذه الفكرة؟
4. كيف يختلف "النحو الوظيفي" لمارتينييه عن "النحو التوليدي" لتشومسكي من حيث نقطة الانطلاق، والأهداف، والوحدات الأساسية للتحليل؟
5. انتقد بعض اللسانيين حصر مارتينييه لوظيفة اللغة في "التواصل" فقط، متجاهلاً الوظائف الأخرى (الشعرية، التعبيرية، إلخ) التي أبرزتها مدرسة براغ. إلى أي مدى ترى هذا النقد وجيهاً؟ وهل يمكن التوفيق بين المنظورين؟
6. طبق مفاهيم التحليل التركيبي الوظيفي (لقطة ممتدة، لقطة مطولة، علاقة إلحاق، علاقة تعلق) على تحليل الجملة العربية التالية: "شاهد الطفل الصغير فيلماً وثائقياً شيقاً جداً في التلفاز."

قائمة المراجع

- الحمزاوي، محمد رشاد. (1986). مدخل إلى علم المصطلح. الدار التونسية للنشر.
- لطرش، بولرباح. (2022). محاضرات في المدارس اللسانية الغربية. منشورات جامعة الجزائر 2.
- عبادي، عبد الحق. (2021). مدخل إلى اللسانيات الوظيفية: محاضرات لطلبة السنة الثانية ليسانس قسم اللغة العربية، جامعة باتنة 1.

- Martinet, A. (1962). A Functional View of Language. Oxford: Clarendon Press.

- Mounin, G. (1974). Histoire de la linguistique des origines au XXe siècle. Paris: Presses Universitaires de France.

المحاضرة الثامنة: النظرية السياقية

تمهيد

تُعد النظرية السياقية، التي تُعرف أيضًا بمدرسة لندن اللسانية، إحدى أهم المحطات في تاريخ الفكر اللساني الحديث. لقد قدمت هذه المدرسة رؤية مغايرة لدراسة اللغة، حيث نقلت بؤرة الاهتمام من التحليل الشكلي البحت للبنى اللغوية، كما كان سائدًا في المدارس البنيوية، إلى دراسة اللغة في سياقها الاجتماعي والثقافي الفعلي. ترى هذه النظرية أن المعنى لا يمكن فهمه بمعزل عن الظروف والمواقف التي يُستخدم فيها الكلام، فالمعنى وظيفة (Meaning is function)، واللغة أداة اجتماعية لتحقيق أغراض تواصلية محددة. في هذه المحاضرة، سنتناول بالتفصيل نشأة هذه النظرية، وأهم مبادئها، والمنهج الذي اتبعته، مع التركيز على جهود راندها الأول، جون روبرت فيرث (J. R. Firth)، وتأثره بالأنثروبولوجي برونيسلاف مالينوفسكي (Bronisław Malinowski). تهدف المحاضرة إلى تزويد الطالب بفهم عميق لكيفية تحليل اللغة كظاهرة اجتماعية حية، وكيف أن المعنى يتشكل ويتحدد من خلال تفاعل النص مع سياقاته المتعددة.

1- نشأة النظرية السياقية

لم تظهر النظرية السياقية من فراغ، بل كانت رد فعل على التيارات اللسانية السائدة في النصف الأول من القرن العشرين، وتحديدًا المدرسة البنيوية بشكلها السويسري والأمريكي. ففي حين ركز فرديناند دي سوسير على دراسة "اللغة" (Langue) كنظام مجرد من العلامات، وأهمّل "الكلام" (Parole) باعتباره استخدامًا فرديًا وعرضيًا، جاءت المدرسة السياقية لتؤكد على أهمية دراسة الكلام الفعلي في مواقفه الحقيقية. يرى عبادي (2018) أن السياقيين انتقدوا ثنائية اللغة والكلام، معتبرين أن هذا الفصل يفصل اللغة عن وظيفتها الأساسية وهي التواصل الاجتماعي.

من جهة أخرى، تأثرت هذه المدرسة بشكل كبير بالدراسات الأنثروبولوجية، خاصة أعمال الأنثروبولوجي البولندي الأصل برونيسلاف مالينوفسكي. خلال عمله الميداني في جزر التروبرياند بالمحيط الهادئ، لاحظ مالينوفسكي أنه من المستحيل ترجمة لغة السكان الأصليين

وفهمها دون الرجوع إلى "سياق الموقف" (Context of Situation) "الذي فُهِمَ فيه" لقد وجد أن الكثير من تعابيرهم كانت مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بأنشطتهم اليومية وطقوسهم ومعتقداتهم، وأن معناها الحقيقي لا يكمن في الكلمات ذاتها، بل في وظيفتها ضمن تلك الأنشطة (Malinowski, 1923). هذا المفهوم، "سياق الموقف"، أصبح حجر الزاوية في النظرية السياقية التي طورها فيرث لاحقاً.

إذاً، يمكن القول إن النظرية السياقية نشأت في بريطانيا في ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين، كرد فعل على إغفال البنيوية للجانب الاجتماعي والوظيفي للغة، وكتطبيق للمنهجيات الوظيفية المستقاة من علم الأنثروبولوجيا الاجتماعية. لقد سعت إلى بناء لسانيات اجتماعية (Sociological Linguistics) تدرس اللغة وهي تؤدي وظيفتها في المجتمع.

2- التعريف بالنظرية السياقية

النظرية السياقية هي اتجاه لساني وظيفي يرى أن الوحدة الأساسية للدراسة اللسانية ليست هي الكلمة أو الجملة المجردة، بل هي "النص في سياقه" (Text in context) "جوهر هذه النظرية هو أن المعنى ليس خاصية كامنة في الوحدات اللغوية، بل هو نتاج تفاعل هذه الوحدات مع مختلف مكونات السياق الذي ترد فيه. وكما يلخص لطرش (2020)، فإن "المعنى لا يُكتشف، بل يُصنع" داخل الموقف التواصل.

عرّف فيرث المعنى بأنه "مجموعة العلاقات المعقدة للسياقات التي تدخل فيها الوحدة اللغوية" (Firth, 1957, p. 19). "هذا يعني أن معنى كلمة مثل "نار" لا يمكن تحديده بشكل كامل في القاموس، بل يتحدد من خلال السياقات التي تستخدم فيها: ففي سياق "أطلق الجندي النار"، تختلف عن سياق "أشعل الحطاب النار"، وتختلف عن سياق "لا تلعب بالنار". كل سياق يفعل جانباً مختلفاً من "إمكانات المعنى" (Meaning potential) "للكلمة".

لذلك، ترفض هذه النظرية الفصل بين دراسة الشكل اللغوي ودراسة المعنى، فكلاهما وجهان لعملة واحدة. التحليل اللساني، من منظور سياقي، هو تحليل للمعنى، والتحليل الدلالي هو بالضرورة تحليل وظيفي واجتماعي. إنها نظرية تؤمن بأن اللغة نشاط إنساني هادف، وأن فهم هذا النشاط يتطلب تحليل الأهداف والأغراض التي يسعى المتكلمون لتحقيقها من خلال استخدامهم للغة في مواقف اجتماعية معينة.

3- مبادئ النظرية السياقية

تقوم النظرية السياقية على مجموعة من المبادئ الأساسية التي توجه منهجها في التحليل، ويمكن تلخيص أبرزها فيما يلي:

1. **اللغة ظاهرة اجتماعية:** هذا هو المبدأ المركزي. اللغة ليست مجرد أداة للتعبير عن الفكر، بل هي في المقام الأول وسيلة للتفاعل الاجتماعي وبناء العلاقات والحفاظ عليها. وكما يؤكد فيرث، فإن كل فرد يولد في مجتمع ويتعلم لغته كجزء من عملية التنشئة الاجتماعية، وبالتالي فإن اللغة مشبعة بالقيم والعادات والمعايير الاجتماعية (Firth, 1957).

2. **المعنى وظيفة في السياق: (Meaning is function in context)** هذا المبدأ يعني أن معنى أي عنصر لغوي (صوت، كلمة، جملة) لا يمكن تحديده إلا من خلال وظيفته في السياق الذي يرد فيه. السؤال الذي يطرحه المحلل السياقي ليس "ماذا تعني هذه الكلمة؟" بل "ماذا تفعل هذه الكلمة في هذا السياق المحدد؟".

3. **وحدة التحليل هي النص في سياقه:** على عكس المدارس التي تتخذ من الصوت (الفونيم) أو الكلمة (المورفيم) أو الجملة وحدات أساسية للتحليل، ترى المدرسة السياقية أن التحليل يجب أن يبدأ من النص الكامل (محادثة، خطبة، قصيدة) باعتباره حدثاً لغوياً متكاملاً، ثم يتم تحليل مكوناته في ضوء وظيفته الكلية ضمن سياق الموقف.

4. **المنهج متعدد الأنظمة: (Polysystemic Approach)** رفض فيرث فكرة وجود نظام لغوي واحد متجانس (Monosystemic) كما افترض سوسير. وبدلاً من ذلك، اقترح أن اللغة تتكون من مجموعة من الأنظمة المتعددة والمتداخلة (صوتية، صرفية، نحوية، معجمية، دلالية) التي تعمل معاً لإنتاج المعنى. التحليل السياقي يهدف إلى وصف كيفية عمل هذه الأنظمة المختلفة في مستويات مختلفة من النص (Palmer, 1968). على سبيل المثال، نظام النبر والتنغيم يعمل بشكل مختلف في سياق الاستفهام عنه في سياق التقرير.

5. **أهمية الجانب الصوتي: (Prosodic Analysis)** أولى فيرث ومدرسته اهتماماً كبيراً بالظواهر الصوتية التي تتجاوز حدود الفونيم الواحد، مثل النبر (stress)،

والتنغيم (intonation) ، وطول المقطع (quantity) ، والتي أطلق عليها اسم "العروضيات" (Prosodies). رأى أن هذه السمات ليست ثانوية، بل هي جزء لا يتجزأ من بنية الكلمة والجملة وتلعب دورًا حاسمًا في تحديد المعنى والموقف العاطفي للمتكلم. (Firth, 1957)

4- المنهج المتبع في المدرسة السياقية

لتطبيق هذه المبادئ، طورت المدرسة السياقية منهجًا تحليليًا يهدف إلى تفكيك "سياق الموقف" إلى مكوناته الأساسية، وربطها بالسمات اللغوية المستخدمة. فالسياق ليس مجرد "خلفية" للكلام، بل هو بنية منظمة يمكن تحليلها. وقد اقترح فيرث، ومن بعده تلميذه مايكل هاليداي، تصنيفًا لمكونات السياق التي تؤثر في إنتاج المعنى. يمكن تقسيم هذه السياقات إلى أنواع رئيسية مترابطة، كما يوضح عبادي: (2018)

أ. السياق اللغوي (Linguistic Context)

يشير السياق اللغوي إلى البيئة اللغوية المباشرة التي تحيط بوحدة لغوية معينة. إنه مجموع الكلمات والعبارات والجمال الأخرى التي تسبق وتلي العنصر المراد تحليله. هذا النوع من السياق هو ما يسمح لنا بتحديد معنى كلمة متعددة المعاني. على سبيل المثال، كلمة "عين" يتحدد معناها بناءً على الكلمات التي تصاحبها:

- "شربت من عين الماء": هنا "عين" تعني نبع الماء.
 - "أصابته عين الحسد": هنا "عين" تشير إلى الحسد.
 - "هو عين الحقيقة": هنا "عين" تعني جوهر الشيء نفسه.
 - "تم تعيينه عينًا على المدينة": هنا "عين" تعني جاسوسًا أو رقيبًا.
- يطلق فيرث على هذا النوع من المصاحبة اللغوية المتكررة اسم "التلازم اللفظي" (Collocation)، ويعتبره جزءًا أساسيًا من معنى الكلمة. فمعنى الكلمة، في جزء منه، هو "الكلمات التي تصاحبها". (Firth, 1957) (the company it keeps) "تحليل التلازم اللفظي يكشف عن القيود التي يفرضها النظام اللغوي على اختيار المفردات، ويساعد في فهم الفروق الدقيقة بين المترادفات.

ب. السياق الحالي أو سياق الموقف (Situational Context)

هذا هو المفهوم المركزي الذي استعاره فيرث من مالبينوفسكي وطوره. سياق الموقف لا يقتصر على المكان والزمان، بل يشمل كل العوامل غير اللغوية ذات الصلة بالحدث الكلامي. وقد اقترح فيرث تحليل هذا السياق من خلال مكوناته التالية: (Palmer, 1968)

1. المشاركون في الحدث الكلامي: (The participants) من هم؟ ما هي أدوارهم الاجتماعية (أب، ابن، معلم، تلميذ)؟ وما هي العلاقات التي تربطهم (رسمية، غير رسمية، حميمة)؟

2. الفعل الكلامي: (The verbal action) ماذا يفعل المشاركون باللغة؟ هل هم يأمر، يسألون، يعدون، يروون قصة؟

3. الموضوع أو الحدث: (The relevant objects and events) ما هي الأشياء والأحداث المحيطة التي يتحدث عنها المشاركون أو التي تؤثر في كلامهم؟

4. أثر الحدث الكلامي: (The effects of the verbal action) ما هي النتيجة أو التغيير الذي أحدثه الكلام؟ هل تم إقناع السامع؟ هل تم تنفيذ الأمر؟

على سبيل المثال، جملة "النافذة مفتوحة" يمكن أن تكون مجرد وصف للمكان (إذا قالها شخص لآخر في غرفة)، أو طلبًا غير مباشر لإغلاقها (إذا قيلت في يوم بارد)، أو تحذيرًا (إذا كان هناك خطر بالخارج). لا يمكن تحديد المعنى المقصود إلا بتحليل سياق الموقف بمكوناته المذكورة.

ج. السياق العاطفي (Emotional Context)

يرتبط هذا السياق بالحالة النفسية والعاطفية للمتكلمين أثناء عملية التواصل. إن نبرة الصوت، وسرعة الكلام، واختيار مفردات معينة، وتعابير الوجه، ولغة الجسد، كلها عناصر تساهم في تشكيل السياق العاطفي وتوجيه تفسير الرسالة. فجملة "عمل رائع" يمكن أن تكون مدحًا صادقًا إذا قيلت بنبرة حماسية وابتسامة، ويمكن أن تكون تهكمًا وسخرية إذا قيلت بنبرة بطيئة وساخرة. يرى لطرش (2020) أن إهمال هذا السياق يؤدي إلى فهم سطحي ومبتور للخطاب، خاصة في الأجناس الأدبية والشعرية التي تعتمد بشكل كبير على إثارة المشاعر.

لقد أولى فيرث اهتمامًا خاصًا لهذا الجانب من خلال تحليله "العروضيات" (Prosodies)، حيث رأى أن التنغيم والنبر ليسا مجرد زخارف صوتية، بل هما جزء من البنية النحوية والمعجمية للجملة، ويحملان وظائف دلالية وعاطفية حاسمة. على سبيل المثال، التنغيم الصاعد في نهاية الجملة يحولها من جملة خبرية إلى استفهامية، مما يغير الفعل الكلامي بأكمله.

د. السياق الثقافي (Cultural Context)

هذا هو أوسع أنواع السياقات وأكثرها شمولاً. يشير السياق الثقافي إلى الإطار المعرفي المشترك بين أفراد مجتمع معين، والذي يتضمن المعتقدات، والقيم، والعادات، والتقاليد، والتاريخ، والأعراف الاجتماعية. هذا السياق هو الذي يزود المتكلمين بالخلفية اللازمة لفهم التلميحات، والأمثال، والاستعارات، والنكات التي قد تكون غامضة تمامًا لشخص من خارج تلك الثقافة.

لقد كان هذا النوع من السياق هو ما اكتشفه مالمينوفسكي (1923) عندما وجد أنه لا يمكن فهم طقوس الصيد أو الزراعة لدى سكان التروبريان دون فهم أساطيرهم ومعتقداتهم حول العالم. وبالمثل، فإن فهم عبارة مثل "عادت حليلة إلى عاداتها القديمة" في الثقافة العربية يتطلب معرفة مسبقة بالقصة أو المثل الشعبي وراءها. يرى السياقيون أن اللغة ليست مجرد انعكاس للثقافة، بل هي أيضًا أداة لخلق الثقافة والحفاظ عليها ونقلها عبر الأجيال. كل نص لغوي هو في جوهره حدث ثقافي، وتحليله يتطلب فهماً عميقاً للسياق الثقافي الذي أنتج فيه.

5- فيرث راند المدرسة السياقية

يُعتبر جون روبرت فيرث (1890-1960) المؤسس الفعلي لمدرسة لندن اللسانية، وأول من شغل كرسي الأستاذية في اللسانيات العامة في بريطانيا (جامعة لندن، 1944). على الرغم من أنه لم يترك وراءه نظرية متكاملة في كتاب واحد، إلا أن أفكاره التي بثها في مقالاته ومحاضراته شكلت الأساس الذي بنى عليه تلاميذه، مثل مايكل هاليداي، لسانياتهم الوظيفية المنهجية. يمكن فهم فكر فيرث من خلال محورين رئيسيين: تأثره بمالمينوفسكي، وآرائه ومبادئه اللسانية الخاصة.

أ. أثر مالينوفسكي في فيرث

كان للقاء الفكري بين الأنثروبولوجي مالينوفسكي واللغوي فيرث أثر حاسم في تشكيل ملامح النظرية السياقية. كان كلاهما يعمل في لندن في عشرينيات وثلاثينيات القرن الماضي، وتشاركاه الاهتمام بالوظيفة الاجتماعية للغة. استعار فيرث من مالينوفسكي مفهومين أساسيين وأعاد صياغتهما في إطار لساني منهجي:

1. **سياق الموقف: (Context of Situation)** كما ذكرنا سابقًا، أخذ فيرث هذا المفهوم من مالينوفسكي، لكنه لم يكتفِ به كأداة للترجمة من لغات "بدائية"، بل جعله أداة تحليلية مركزية لدراسة أي لغة، بما في ذلك اللغات الأوروبية الحديثة. حوله فيرث من مجرد "خلفية" للحدث الكلامي إلى بنية مجردة قابلة للتحليل المنهجي بمكوناتها التي سبق ذكرها (المشاركون، الفعل، إلخ).

2. **اللغة كنمط من الفعل: (Language as a mode of action)** رأى مالينوفسكي (1923) أن اللغة في المجتمعات التي درسها لم تكن أداة للتعبير عن الفكر بقدر ما كانت جزءًا من النشاط العملي. على سبيل المثال، الكلمات التي يتلفظ بها الصيادون أثناء عملهم هي جزء لا يتجزأ من فعل الصيد نفسه. تبنى فيرث هذه الفكرة وطبقها على جميع أشكال استخدام اللغة، مؤكدًا أن الكلام هو دائمًا فعل اجتماعي يهدف إلى تحقيق غاية معينة. هذا المفهوم مهد الطريق لاحقًا لظهور "نظرية أفعال الكلام" (Speech Act Theory) على يد أوستن وسيرل.

ومع ذلك، يختلف فيرث عن مالينوفسكي في أن اهتمام مالينوفسكي كان أنثروبولوجيًا بالدرجة الأولى (فهم الثقافة من خلال اللغة)، بينما كان اهتمام فيرث لسانيًا بحثًا (فهم اللغة من خلال وظيفتها في الثقافة والمجتمع) (عبادي، 2018).

ب. آراء فيرث ومبادئه

بالإضافة إلى تطويره لأفكار مالينوفسكي، قدم فيرث إسهامات لسانية أصيلة شكلت هوية مدرسته. من أبرز هذه الإسهامات:

• **تشثيت الطيف الدلالي: (Dispersion of the Spectrum)** لم يؤمن فيرث بوجود مستوى دلالي واحد ومستقل. بدلاً من ذلك، رأى أن المعنى "مشتت" أو "موزع" على



جميع مستويات التحليل اللساني. فالمعنى ليس فقط في المعجم (الكلمات)، بل هو موجه أيضاً في المستوى الصوتي (من خلال العروضيات)، والمستوى الصرفي (من خلال الصيغ)، والمستوى النحوي (من خلال التراكيب)، والمستوى السياقي (من خلال الموقف). التحليل اللساني الكامل، حسب فيرث، هو عملية جمع هذه المعاني الجزئية

من مختلف المستويات للوصول إلى المعنى الكلي للنص. (Firth, 1957)

. **التحليل العروضي: (Prosodic Analysis)** كما أشرنا، كان هذا من أهم إسهامات فيرث في علم الأصوات. لقد انتقد التحليل الفونيمي الذي يركز على الوحدات الصوتية القابلة للتجزئة (segmental phonemes) وأهم السمات التي تمتد على أكثر من صوت واحد. رأى فيرث أن سمات مثل النبر، والتنغيم، والتفخيم والترقيق في العربية، وانسجام الحركات في التركية، هي "عروضيات (prosodies)" يجب أن تحلل على مستوى المقطع أو الكلمة أو الجملة بأكملها، لأنها تحمل وظائف دلالية ونحوية مهمة (Palmer, 1968).

. **التلازم اللفظي: (Collocation)** أعطى فيرث أهمية كبرى لدراسة الكلمات التي تتصاحب بشكل متكرر. فكلمة "أشقر" في الإنجليزية تتلازم عادة مع "hair" (شعر)، وكلمة "عريض" في العربية تتلازم مع "منكبين". دراسة هذه التلازمات ليست مجرد تمرين معجمي، بل هي جزء من تحديد معنى الكلمة. فجزء من معنى كلمة "عريض" هو أنها تستخدم لوصف المناكب وليس، على سبيل المثال، الأنف.

. **المنهج متعدد الأنظمة: (Polysystemic Approach)** إيمان فيرث بأن اللغة ليست نظاماً واحداً متجانساً، بل هي مجموعة من الأنظمة الفرعية، جعله يرفض التعميمات الشاملة. فبدلاً من وضع قاعدة واحدة لـ "الفاعل" في اللغة العربية، قد يحلل فيرث نظام الفاعل في سياق الجملة الفعلية بشكل منفصل عن نظام المبتدأ في الجملة الاسمية، ونظام الفاعل في المبني للمعلوم بشكل منفصل عن نائب الفاعل في المبني للمجهول، معتبراً كل منها نظاماً فرعياً له قواعده الخاصة.

6- خلاصة

في ختام هذه المحاضرة، يمكننا القول إن النظرية السياقية، أو مدرسة لندن، قد أحدثت نقلة نوعية في الدراسات اللسانية من خلال إعادة الاعتبار للبعد الاجتماعي والوظيفي للغة. لقد نجحت في تجاوز ثنائية "اللغة/الكلام" السوسيرية، وأكدت أن الدراسة اللسانية الحقيقية لا يمكن أن تتم إلا من خلال تحليل الاستعمال الفعلي للغة في سياقاتها الحية والمتنوعة. من خلال مفاهيم مركزية مثل "سياق الموقف"، و"المعنى وظيفة في السياق"، و"التحليل العروضي"، و"التلازم اللفظي"، قدم فيرث وتلاميذه منهجاً ثرياً لتحليل اللغة كنشاط إنساني هادف.

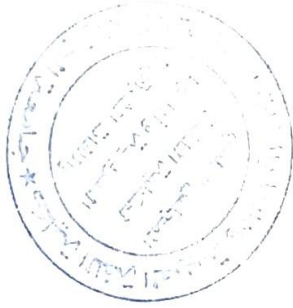
لقد فتحت هذه النظرية الباب واسعاً أمام تخصصات لسانية حديثة مثل اللسانيات الاجتماعية، والتداولية، وتحليل الخطاب، ولسانيات النص. ورغم أن بعض أفكار فيرث، مثل "تشبيت الطيف الدلالي"، قد تبدو غير منهجية للبعض، إلا أن رؤيته الشاملة للغة كظاهرة متعددة الأبعاد ومتجذرة في الحياة الاجتماعية لا تزال مصدر إلهام للباحثين حتى يومنا هذا. إنها دعوة مستمرة للنظر إلى اللغة ليس كمجرد بنى شكلية مجردة، بل كطاقة حية تتشكل وتتشكل بها حيواننا الاجتماعية والثقافية.

7- أسئلة حول المحاضرة لمناقشتها مع الطلبة

1. ما هو الفرق الجوهرى بين نظرة المدرسة البنوية للغة ونظرة المدرسة السياقية؟ وكيف أثر هذا الفرق على منهجية كل منهما؟
2. اشرح بمثال من عندك كيف يمكن لمفهوم "سياق الموقف" بمكوناته الأربعة (المشاركون، الفعل، الموضوع، الأثر) أن يغير معنى جملة بسيطة.
3. "المعنى لا يكمن في الكلمة، بل في وظيفتها". ناقش هذه المقولة في ضوء مفهوم "التلازم اللفظي" (Collocation) عند فيرث.
4. لماذا اعتبر فيرث أن التحليل الفونيمي التقليدي قاصر؟ وما هو البديل الذي اقترحه من خلال "التحليل العروضي"؟ أعط أمثلة من اللغة العربية.
5. كيف يمكن تطبيق مبادئ النظرية السياقية في مجال تعليم اللغات الأجنبية أو في مجال الترجمة؟ ما هي الفوائد العملية لذلك؟

8- قائمة المراجع

- لطرش، ب. (2020). محاضرات في المدارس اللسانية المعاصرة. منشورات جامعة الجزائر 2.
- عبادي، ع. ح. (2018). المدارس اللسانية: مدخل وتطبيقات. دار الكتاب الحديث.
- Firth, J. R. (1957). Papers in Linguistics, 1934-1951. Oxford University Press.
- Malinowski, B. (1923). The problem of meaning in primitive languages. In C. K. Ogden & I. A. Richards (Eds.), The Meaning of Meaning (pp. 296-336). Kegan Paul.
- Palmer, F. R. (Ed.). (1968). Selected Papers of J. R. Firth, 1952-59. Longman.



المحاضرة التاسعة: المدرسة التوزيعية

تمهيد

تُمثل المدرسة التوزيعية (Distributionalism)، التي يُطلق عليها أيضاً اسم "البنوية الأمريكية"، منعطفاً حاسماً في مسار اللسانيات الحديثة. ظهر هذا الاتجاه اللساني في الولايات المتحدة الأمريكية في ثلاثينيات القرن العشرين، وشكّل تياراً موازياً ومقابلاً للبنوية الأوروبية التي ارتبطت بأعمال فردينان دي سوسير (بن سعيد وقادري، 2022). نشأت التوزيعية في سياق علمي وعملي خاص، تمثل في الحاجة الملحة لدراسة وتدوين لغات الهنود الحمر، وهي لغات غير مكتوبة ومهددة بالاندثار، مما فرض على الباحثين تطوير منهج وصفي صارم لا يعتمد على التاريخ أو المقارنة باللغات الأوروبية (العبادي، 2022). كما تأثرت هذه المدرسة بشكل عميق بالنظرية السلوكية في علم النفس، التي كانت سائدة في الفكر العلمي الأمريكي آنذاك، مما أضفى على منهجها طابعاً مادياً تجريبياً يركز على السلوك اللغوي الملحوظ. تقوم الفلسفة الأساسية للمدرسة التوزيعية على أن هوية الوحدة اللغوية (صوتاً كانت أم كلمة) لا تكمن في ذاتها، بل في مجموع البيانات والسياقات التي يمكن أن تظهر فيها. فـ "التوزيع" هو المفهوم المركزي الذي يحدد العلاقات بين العناصر اللغوية ويصنفها في فئات محددة. وبذلك، قدمت هذه المدرسة منهجية إجرائية دقيقة لتحليل بنية اللغة، بدءاً من أصغر وحداتها وصولاً إلى تركيب الجمل، مع إصرارها على استبعاد المعنى من التحليل الشكلي، ليس لعدم أهميته، بل لصعوبة إخضاعه للملاحظة العلمية الدقيقة والموضوعية التي سعى إليها رواد هذا الاتجاه (لطرش، 2020).

1- أعلام النظرية التوزيعية

ساهم في تأسيس وتطوير المدرسة التوزيعية ثلاثة من أبرز اللسانيين الأمريكيين، الذين وضعوا أسسها النظرية والمنهجية، وهم:

إدوارد سابير (Edward Sapir) يُعتبر سابير من أوائل الرواد الذين مهدوا للبنوية الأمريكية. في كتابه الشهير "اللغة (Language)" الصادر عام 1921، أكد على الجانب

الإنساني والثقافي للغة، معتبراً إياها نظاماً رمزياً مكتسباً وليس غريزياً. عرّف سايبر اللغة بأنها "وسيلة التواصل الإنسانية، وتتكون من رموز يعتمد عليها المتكلم في إيصال الأفكار والتخيلات والمشاعر والرغبات" (مقتبس في بن خميس، 2022، ص: 58). ورغم تركيزه على الوظيفة التواصلية، إلا أنه شدد على أن الحقيقة اللغوية الجوهرية تكمن في "النمذجة الشكلية للتصورات"، مما فتح الباب أمام دراسة البنية الداخلية للغة كنظام شكلي مستقل. ليونارد بلومفيلد: (Leonard Bloomfield) يُعد بلومفيلد "زعيم المدرسة الأمريكية" والممثل الأبرز لها (بن سعيد وقادري، 2022، ص: 79). كتابه "اللغة (Language)" الصادر عام 1933 وُصف بأنه "إنجيل علم اللغة الأمريكي"، حيث أرسى دعائم اللسانيات الوصفية على أسس علمية صارمة. تأثر بلومفيلد بشدة بعلم النفس السلوكي، ورأى أن اللغة هي سلوك إنساني يمكن ملاحظته وتحليله بموضوعية تامة من خلال ثنائية "المثير والاستجابة (Stimulus-Response)". لقد دعا إلى منهج وصفي بحث يركز على الشكل الظاهري للغة (الجانب السطحي والشكلي) ويتجنب الخوض في المعنى الذي اعتبره غير قابل للتحليل العلمي الدقيق. كان هدفه العملي هو تطوير إجراءات تحليلية لوصف اللغات غير المعروفة، مثل لغات الهنود الحمر، وصفاً دقيقاً وموضوعياً.

زليج هاريس (Zellig Harris) يعتبره الكثيرون "المؤسس الفعلي للتوزيعية" (بن خميس، 2022، ص: 57)، حيث قام بتطوير وتفصيل المنهج التوزيعي بشكل إجرائي دقيق. في كتابه "مناهج في اللسانيات البنيوية (Methods in Structural Linguistics)" الصادر عام 1951، قدم هاريس شرحاً مفصلاً لتقنيات التحليل التوزيعي، مثل التقطيع والتصنيف بناءً على البيانات التي تظهر فيها الوحدات اللغوية. ورغم أنه كان تلميذاً لبلومفيلد، إلا أنه تجاوز بعض أفكاره، خاصة في محاولته لتوسيع نطاق التحليل ليشمل العلاقات بين الجمل في الخطاب. وفي مقاله الرائد "قواعد التحويل (Transformational Grammar)" عام 1952، وضع هاريس البذور الأولى للنظرية التوليدية التحويلية، حيث تحدث عن استخدام الرموز لتحليل الجملة والعلاقات التحويلية بين التراكيب المختلفة، وهو المقال الذي كان له أثر مباشر على تلميذه نعم تشومسكي.

2- مبادئ النظرية التوزيعية

قامت المدرسة التوزيعية على مجموعة من المبادئ الصارمة التي شكلت منهجها في التحليل اللغوي، ويتقاطع بعضها مع أفكار دي سوسير، بينما ينفرد بعضها الآخر بخصائص المنهج الأمريكي.

2-1- مفهوم التوزيع (Distribution)

هذا هو المبدأ المركزي في النظرية. يُعرّف التوزيع بأنه "مجموع البيانات التي يمكن أن ترد فيها وحدة لغوية ما" (لطرش، 2020، ص. 45). بعبارة أخرى، هو الموقع الذي يحتله العنصر اللساني ضمن محيطه اللغوي. فلكي نحدد هوية عنصر لغوي (مثل فونيم /b/ أو كلمة "كتاب")، يجب أن نرصد جميع السياقات التي يظهر فيها والعناصر التي تجاوره. العناصر التي تشترك في نفس التوزيع، أي يمكن أن تحل محل بعضها البعض في نفس السياق دون أن يتأثر التركيب، تنتمي إلى نفس الفئة التوزيعية وتسمى "بدائل توزيعية". يهدف التحليل التوزيعي إلى "استكشاف آلية لغة من اللغات، من خلال وضع لائحة للوحدات الأساسية في كل مستويات الدراسة اللغوية، ومن خلال تحديد الفئات التي تنتمي إليها واستكشاف تآلفها فيما بينها" (بن خميس، 2022، ص. 59).

2-2- مفهوم اللغة

نظر التوزيعيون إلى اللغة كنظام شكلي وقانون يحكم الاستعمال الفردي (الكلام)، وهو تصور يتقاطع مع ثنائية "اللغة/الكلام" عند دي سوسير. إلا أن التأثير السلوكي أضفى على هذا المفهوم طابعاً خاصاً عند بلومفيلد، الذي اعتبر اللغة "نتاجاً آلياً واستجابة كلامية لحافز سلوكي ظاهر" (العبادي، 2022، ص. 12). فاللغة في نظره هي مجموعة من العادات السلوكية اللفظية التي يمكن ملاحظتها وتسجيلها وتحليلها بشكل موضوعي، دون الحاجة إلى افتراض وجود عمليات ذهنية أو مفاهيم مجردة خلف هذا السلوك. أما سابير، فكان له رأي أكثر شمولية، حيث رأى اللغة وسيلة إنسانية للتواصل ونقل الأفكار والمشاعر، وهي نظام مكتسب وقصدي، وليست مجرد استجابة آلية (بن خميس، 2022).

2-3- الدراسة الأنثوية (الوصفية) (Synchronic/Descriptive Study)

تبنى التوزيعيون المنهج الوصفي الأنثي بشكل كامل، وهو مبدأ أساسي في اللسانيات البنوية أرساه دي سوسير. كان هذا التوجه ضرورياً وحتمياً بالنسبة لهم، لأنهم كانوا يتعاملون مع لغات الهنود الحمر التي "لا تملك تاريخاً مكتوباً، وماضيها مجهول" (بن خميس، 2022، ص 60). لم يكن من الممكن تتبع تطور هذه اللغات عبر الزمن (الدراسة التاريخية أو الدياكرونية)، فكان الخيار الوحيد هو دراسة حالتها الراهنة في فترة زمنية محددة. تهدف الدراسة الأنثوية إلى وصف نظام اللغة كما هو، وتحديد مكوناته وقواعد عمله، دون الاهتمام بأصله أو تطوره التاريخي. هذا التركيز على الوصف الدقيق والموضوعي للبنية اللغوية في لحظة معينة هو جوهر المنهج التوزيعي.

2-4- أهمية المورفيمات (Morphemes)

في التحليل التوزيعي، تتألف اللغة من وحدات لغوية يتم الكشف عنها عبر عملية "التقطيع" (Segmentation). الوحدة الأساسية في هذا التحليل بعد الفونيم هي "المورفيم"، الذي يُعرّف بأنه أصغر وحدة لغوية تحمل معنى أو وظيفة نحوية (الصميدعي، 2021). يفضل التوزيعيون مصطلح "المورفيم" على "الكلمة" لأنه أكثر دقة من الناحية التحليلية. فكلما مثل "يكتبون" يمكن تقطيعها إلى عدة مورفيمات: (ي: مورفيم يدل على المضارعة)، (كتب: مورفيم معجمي يدل على الجذر)، (و: مورفيم يدل على الفاعل الجمع)، (ن: مورفيم يدل على علامة الرفع). يركز التحليل على شكل هذه المورفيمات وتوزيعها، أي الأماكن التي تظهر فيها وعلاقتها بغيرها من المورفيمات، بدلاً من التركيز على معناها المجرد (بن خميس، 2022).

2-5- نظام العلاقات بين المورفيمات

ترى المدرسة التوزيعية أن اللغة ليست مجرد تجميع عشوائي للمورفيمات، بل هي "نظام مخصوص" تتحدد فيه قيمة كل عنصر من خلال علاقاته مع العناصر الأخرى في التركيب. هذا المبدأ، الذي يعود في أصله إلى مفهوم "القيمة" عند دي سوسير، هو حجر الزاوية في التحليل التوزيعي. فموضع الكلمة في البنية التركيبية هو الذي يحدد وظيفتها وقيمتها، وهذه العلاقات هي التي تشكل "نظام" اللغة (بن خميس، 2022). على سبيل المثال، في جملة "الولد يقرأ الكتاب"، تتحدد وظيفة كلمة "الولد" كفاعل من خلال موقعها قبل الفعل، وعلاقتها به،

بينما تتحدد وظيفة "الكتاب" كمفعول به من خلال موقعها بعد الفعل. يركز التحليل التوزيعي على رصد هذه العلاقات السياقية (Syntagmatic) وتصنيف الوحدات بناءً عليها.

2-6- إقصاء المعنى (Exclusion of Meaning)

يُعد هذا المبدأ من أكثر مبادئ التوزيعية إثارة للجدل. يصر التوزيعيون، وعلى رأسهم بلومفيلد، على "استبعاد المعنى استبعاداً كلياً من التحليل اللغوي" (مقتبس في بن خميس، 2022، ص. 61). من المهم فهم أن هذا الإقصاء ليس إنكاراً لوجود المعنى أو أهميته في التواصل، بل هو قرار منهجي بحثي. لقد آمنوا بأن المعنى ظاهرة نفسية وذهنية معقدة "لا يمكن إخضاعها لنوع الدراسة الوصفية، العلمية الدقيقة" التي يمكن أن تخضع لها الأشكال اللغوية المادية الملحوظة (الأصوات والكلمات والتراكيب). فالدراسة اللسانية في نظرهم يجب أن تقتصر على ما هو قابل للملاحظة والتسجيل والتحليل الموضوعي، أي "السطح المنطوق أو المكتوب"، وأي محاولة للبحث عن كيانات ذهنية خلف هذا السطح هي "وهم منهجي عقيم" (بن سعيد وقادري، 2022، ص. 79). لذلك، يجب أن ينطلق التحليل من الشكل للوصول إلى البنية، وليس العكس.

3- أثر علم النفس السلوكي على التوزيعية

لا يمكن فهم المدرسة التوزيعية، خاصة في صيغتها البلومفيلدية، بمعزل عن تأثير علم النفس السلوكي (Behaviorism) الذي هيمن على الساحة العلمية الأمريكية في النصف الأول من القرن العشرين. قامت النظرية السلوكية على مبدأ أساسي وهو أن السلوك البشري، بما في ذلك اللغة، يمكن تفسيره بالكامل من خلال علاقة ميكانيكية بين "المثيرات (Stimuli)" الخارجية و"الاستجابات (Responses)" التي تصدر عن الكائن الحي، دون الحاجة إلى افتراض وجود أي عمليات عقلية أو ذهنية وسيطة (ما يسمى بـ "الصندوق الأسود").

تبنى بلومفيلد هذا المنظور وطبقه على اللغة، فاعتبر "اللغة نتاجاً آلياً واستجابة كلامية لحافز سلوكي ظاهر" (العبادي، 2022، ص. 12). وقدم نموذجاً شهيراً لشرح الفعل الكلامي من منظور سلوكي:

لنفترض أن جاك وجيل يسيران في ممر. تشعر جيل بالجوع (مثير غير لغوي) وترى تفاحة على شجرة (مثير). تصدر جيل استجابة كلامية بقولها: "أنا جائعة، جاك". أحضر لي تلك

التفاحة". هذه الاستجابة الكلامية من جيل تعمل كمثير لغوي لجاك. يتسلق جاك الشجرة ويقطف التفاحة ويعطيها لجيل (استجابة عملية).

في هذا النموذج، يتم تحليل الحدث اللغوي كسلسلة من المثيرات والاستجابات المادية القابلة للملاحظة. المثير الأول (الجوع) يؤدي إلى استجابة كلامية، وهذه الاستجابة تعمل كمثير لشخص آخر، الذي يقوم بدوره باستجابة عملية. يرى بلومفيلد أن وظيفة اللساني هي دراسة العلاقة بين المثيرات والاستجابات اللغوية، أي دراسة الأشكال اللغوية التي يصدرها المتكلمون في مواقف معينة.

هذا التأثير بالسلوكية هو الذي يفسر إصرار التوزيعيين على عدة مبادئ أساسية:

. الموضوعية والتركيز على الشكل: بما أن العمليات العقلية (مثل النية والقصد والمعنى) غير قابلة للملاحظة المباشرة، فيجب استبعادها من التحليل العلمي، الذي يجب أن يقتصر على السلوك اللغوي المادي الملحوظ (الأصوات والتراكيب).

. إقصاء المعنى: المعنى هو الجانب الذهني المرتبط باللغة، وبما أنه يقع داخل "الصندوق الأسود" للعقل، فلا يمكن للساني دراسته بطريقة علمية.

. المنهج التجريبي: يجب أن يعتمد التحليل اللغوي على جمع مدونة (Corpus) كبيرة من الكلام الفعلي الملحوظ، ثم تطبيق إجراءات تحليلية صارمة عليها، مثل التقطيع والتصنيف، للوصول إلى بنية اللغة.

لقد منح هذا التوجه السلوكي اللسانيات التوزيعية صرامة منهجية ومظهراً علمياً، لكنه كان أيضاً نقطة ضعفها الرئيسية، حيث أدى إلى إهمال الجوانب الإبداعية والدلالية للغة، وهو ما شكل لاحقاً منطلقاً أساسياً لثورة تشومسكي المعرفية ضدها.

4- خطوات التحليل التوزيعي

طور التوزيعيون، وخاصة هاريس، مجموعة من الإجراءات المنهجية الصارمة لتحليل بنية اللغة، والتي تهدف إلى تفكيك الكلام إلى مكوناته الأساسية وتحديد العلاقات التي تربط بينها. يمكن تلخيص هذه الخطوات في مرحلتين رئيسيتين: تفكيك بنية الكلام (التحليل إلى المكونات المباشرة)، والتحليل إلى المورفيمات.

4-1- تفكيك بنية الكلام: التحليل إلى المكونات المباشرة (Immediate Constituent Analysis)

Analysis)

التحليل إلى المكونات المباشرة (IC Analysis) هو الإجراء الأساسي في التحليل التركيبي التوزيعي. يقوم هذا التحليل على فكرة أن الجملة ليست مجرد سلسلة خطية من الكلمات، بل لها بنية هرمية تتكون من طبقات من المكونات. الهدف هو تقطيع الجملة بشكل متكرر إلى أكبر مكوناتها المباشرة، ثم تقطيع كل مكون بدوره إلى مكوناته المباشرة، وهكذا حتى نصل إلى الوحدات النهائية التي لا يمكن تقطيعها أكثر (وهي المورفيمات).

على سبيل المثال، لنأخذ الجملة: "الولد الطيب يقرأ الكتاب الجديد".

التقطيع الأول: يتم تقطيع الجملة إلى أكبر مكونين مباشرين لها، وهما المركب الاسمي (موضوع الجملة) والمركب الفعلي (محمول الجملة).

[(الولد الطيب)] [(يقرأ الكتاب الجديد)]

التقطيع الثاني: نقوم بتقطيع كل مكون من هذين المكونين إلى مكوناته المباشرة.

• المركب الاسمي "الولد الطيب" يقطع إلى: [(الولد)] [(الطيب)]

• المركب الفعلي "يقرأ الكتاب الجديد" يقطع إلى: [(يقرأ)] [(الكتاب الجديد)]

التقطيع الثالث: نستمر في التقطيع. المركب "الكتاب الجديد" يقطع إلى: [(الكتاب)] [(الجديد)]

[(الجديد)]

ابتكر التوزيعيون طرقاً مختلفة لتمثيل هذا التحليل الهرمي، أشهرها:

1. **التقويس (Bracketing):** وهي الطريقة المستخدمة أعلاه، حيث توضع الأقواس

حول كل مكون. التمثيل الكامل للجملة سيكون:

[[(الولد) (الطيب)] [(يقرأ)] [(الكتاب) (الجديد)]]

2. **التشجير (Tree Diagrams):** وهو تمثيل بياني يوضح البنية الهرمية بشكل مرئي،

حيث تتفرع الجملة من الأعلى إلى الأسفل وصولاً إلى الكلمات المفردة. (هذه الطريقة

أصبحت شائعة جداً لاحقاً مع تشومسكي).

يسمح هذا التحليل بتحديد الفئات النحوية (مركب اسمي، مركب فعلي، صفة، إلخ) بناءً على

توزيعها ومواقعها في البنية، دون الحاجة إلى تعريفها من خلال المعنى.

4-2- التحليل إلى المورفيمات (Morphemic Analysis)

بعد الوصول إلى الكلمات المفردة من خلال تحليل المكونات المباشرة، تأتي المرحلة الثانية وهي تحليل هذه الكلمات إلى وحداتها الصرفية الدنيا، أي المورفيمات. الهدف هو تحديد "النويات" أو الجذور (Morpheme Nuclei) والزوائد (Affixes) التي تتصل بها. خطوات هذا التحليل تشمل:

1. تحديد النويات (الجذور): النواة هي "الأصل في جميع الكلمات، وهي الجذر اللغوي الذي يتجرد من كل الزوائد" (بن خميس، 2022، ص. 63). على سبيل المثال، في كلمات مثل "كاتب"، "مكتبة"، "يكتبون"، "كتابة"، النواة أو الجذر المشترك هو (ك ت ب).

2. تحديد المورفيمات المقيدة (Bound Morphemes): وهي الزوائد التي لا يمكن أن تأتي بمفردها، بل يجب أن تتصل بجذر. تشمل السوابق (Prefixes) مثل (ال-) التعريف، واللواحق (Suffixes) مثل (ون) في "يكتبون"، والدواخل (Infixes) التي تتخلل الجذر كما في الأوزان الصرفية العربية.

3. تحديد المورفيمات الحرة (Free Morphemes): وهي التي يمكن أن تشكل كلمة بمفردها، مثل "بيت"، "رجل"، "في".

من خلال هذا التحليل المزدوج (التركيبية والصرفية)، يتمكن اللساني التوزيعي من تقديم وصف شكلي كامل لبنية اللغة، يوضح كيف تتألف الجمل من مركبات، والمركبات من كلمات، والكلمات من مورفيمات، وكل ذلك بناءً على توزيع هذه الوحدات وعلاقاتها الشكلية الملحوظة في مدونة لغوية محددة.

5- خلاصة

تمثل المدرسة التوزيعية مرحلة بالغة الأهمية في تاريخ اللسانيات، حيث نقلت الدراسة اللغوية، خاصة في أمريكا، إلى مستوى جديد من الصرامة العلمية والموضوعية. انطلاقاً من الحاجة العملية لوصف لغات الهنود الحمر، وتأثراً بالفلسفة السلوكية المهيمنة، طور روادها - سابير وبلومفيلد وهاريس - منهجاً وصفيًا دقيقاً يركز حصراً على البنية الشكلية للغة.

يكن جوهر هذه المدرسة في مفهوم "التوزيع"، الذي يعتبر أن هوية أي وحدة لغوية تتحدد من خلال مجموع السياقات التي تظهر فيها. وبناءً على هذا المبدأ، ابتكر التوزيعيون إجراءات تحليلية إجرائية، مثل "التحليل إلى المكونات المباشرة" و"التحليل المورفيمي"، والتي سمحت بتفكيك الخطاب اللغوي إلى وحداته الأساسية وتصنيفها في فئات شكلية بناءً على علاقاتها التوزيعية.

كان القرار المنهجي بإقصاء المعنى من التحليل، رغم كونه مثيراً للجدل، نتيجة منطقية لالتزامهم بالمادية والموضوعية العلمية، حيث رأوا أن المعنى لا يخضع للملاحظة الدقيقة بنفس درجة الشكل. لقد قدمت التوزيعية للسانيات أدوات تحليلية قوية وساهمت في ترسيخ المنهج الوصفي الآني، كما مهدت الطريق، من خلال أعمال هاريس، لظهور النظرية التوليدية التحويلية التي قامت على أنقاضها. ورغم أن اللسانيات المعاصرة قد تجاوزت الكثير من مسلمات التوزيعية، خاصة فيما يتعلق بإقصاء المعنى ودور الذهن، إلا أن إسهاماتها في تطوير تقنيات التحليل الشكلي لا تزال ذات قيمة وأثر كبيرين في الحقل اللساني.

6- أسئلة حول المحاضرة لمناقشتها مع الطلبة

1. ما هي الظروف العلمية والعملية التي أدت إلى نشأة المدرسة التوزيعية في الولايات المتحدة الأمريكية؟ وكيف أثرت هذه الظروف على منهجها؟
2. اشرح بمثال من عندك مفهوم "التوزيع" وكيف يُستخدم لتحديد الفئات النحوية في اللغة العربية.
3. "إقصاء المعنى كان قراراً منهجياً وليس إنكاراً لوجوده". ناقش هذه العبارة، موضحاً الأسباب التي دفعت بلومفيلد والتوزيعيين إلى اتخاذ هذا الموقف.
4. قارن بين دور كل من سابير وبلومفيلد وهاريس في تطوير الفكر التوزيعي. من منهم كان الأكثر تأثيراً في نظرك، ولماذا؟
5. كيف أثرت النظرية السلوكية في علم النفس على المبادئ الأساسية للمدرسة التوزيعية؟ وما هي أبرز نقاط القوة والضعف التي نتجت عن هذا التأثير؟
6. قم بتطبيق "التحليل إلى المكونات المباشرة" باستخدام طريقة التقويس على الجملة التالية: "شاهد الطالب المجتهد فيلماً وثائقياً ممتعاً".

7. ما الفرق الجوهرى بين البنيوية الأوروبية (السوسيرية) والبنيوية الأمريكية (التوزيعية) من حيث المنطلقات والمنهج؟

8. يُقال إن أعمال هاريس كانت "الجسر" بين التوزيعية والنظرية التوليدية التحويلية. كيف ذلك؟ وما هي الأفكار التي طرحها ومهدت الطريق لتشومسكي؟

7- قائمة المراجع

• العبادي، ع. (2022). محاضرات مقياس المدارس اللسانية [محاضرات جامعية]. قسم اللغة والأدب العربي، جامعة ابن خلدون - تيارت. تم الاسترجاع من:

[http://fll.univ-](http://fll.univ-tiaret.dz/pdf/cours/المدارس%20اللسانية%2003%20ليسانس%20العبادي%20عبد%20الحق)

tiaret.dz/pdf/cours/المدارس%20اللسانية%2003%20ليسانس%20العبادي%20عبد%20الحق

• الصميدعي، ق. ع. ع. (2021). نظرية المورفيم في العربية (دراسة تحليلية تطبيقية). مجلة البحوث والدراسات الإسلامية، (64)، 483-510.

<https://iasj.rdd.edu.iq/journals/index.php/islamic/article/view/2580>

• بن خميس، ت. (2022). محاضرات في المدارس اللسانية [محاضرات جامعية]. كلية الآداب واللغات، جامعة باتنة 1. تم الاسترجاع من:

<https://dspace.univ-batna.dz/items/e12a54e5-66ab-473d-9503-962936c3ab0a>

• بن سعيد، م.، وقادري، ك. (2022). تأثير ليونارد بلومفيلد في المدرسة الأمريكية واللسانيات التوزيعية، مجلة المُزهر أبحاث في اللغة والأدب، 6، 77-92.

<https://www.asjp.cerist.dz/en/article/191371>

• لطرش، ب. (2020). المدارس اللسانية. مديرية النشر الجامعي، جامعة زيان عاشور بالجلفة. تم الاسترجاع من:

https://flla.univ-djelfa.dz/wp-content/uploads/2024/12/book1_latreche_boulerbah.pdf



المحاضرة العاشرة: المدرسة التوليدية التحويلية (1)

تمهيد

تُمثّل المدرسة التوليدية التحويلية (Generative-Transformational Grammar) ثورة حقيقية في مسار الدراسات اللسانية الحديثة. فمنذ ظهورها في منتصف القرن العشرين على يد اللساني الأمريكي نعوم تشومسكي (Noam Chomsky)، أحدثت هذه النظرية قطيعة إبستمولوجية مع المناهج التي سبقتها، وبخاصة المدرسة البنوية التوزيعية التي كانت سائدة في الولايات المتحدة. لم تعد اللسانيات مع تشومسكي مجرد علم وصفي يهدف إلى تبويب وتصنيف الوحدات اللغوية الظاهرة في المدونات الكلامية، بل تحولت إلى علم تفسيري يسعى إلى الكشف عن المبادئ الذهنية الكامنة التي تمكّن الإنسان من إنتاج وفهم عدد لا متناهٍ من الجمل لم يسبق له أن سمعها أو نطق بها.

لقد نقلت هذه المدرسة بؤرة الاهتمام من "الأداء" (Performance) "الفعلي، أي الاستعمال الملموس للغة، إلى "الملكة" (Competence) "اللغوية، وهي المعرفة الضمنية التي يمتلكها المتكلم-السامع المثالي بلغته. ومن هذا المنطلق، أصبحت اللغة ظاهرة ذهنية بالدرجة الأولى، ونافذة نطل منها على طبيعة العقل البشري. تستهدف هذه المحاضرة تقديم مدخل شامل للأسس والمفاهيم الجوهرية التي قامت عليها هذه النظرية في مراحلها الأولى، بدءاً من نشأتها التاريخية وأصولها الفكرية، وصولاً إلى مبادئها الأساسية ومكوناتها النظرية.

1- نشأة المدرسة التوليدية التحويلية

نشأت المدرسة التوليدية التحويلية في سياق علمي وفكري كان يشهد هيمنة المدرسة البنوية السلوكية في أمريكا، والتي كان يمثلها ليونارد بلومفيلد (Leonard Bloomfield) وتلامذته. كانت هذه المدرسة ترى أن اللغة سلوك مكتسب يتم تعلمه عبر آليات التكرار والمحاكاة والتعزيز (Stimulus-Response)، وأن على اللساني أن يقتصر في دراسته على المادة اللغوية الملحوظة والقابلة للقياس، متجنباً أي حديث عن "العقل" أو "المعنى" باعتبارهما مفاهيم غير علمية.

في هذا المناخ، جاء كتاب تشومسكي "البنى التركيبية" (Syntactic Structures) عام 1957 ليمثل نقطة الانطلاق الرسمية لهذه الثورة اللسانية. في هذا العمل، وجه تشومسكي نقدًا لاذعًا للأسس التي قامت عليها اللسانيات البنيوية، مؤكدًا عجزها عن تفسير أهم خاصية في اللغة البشرية، وهي "الإبداعية" (Creativity). "فكيف يمكن لنموذج يعتمد على تجميع أجزاء محدودة من الكلام المسموع أن يفسر قدرة الإنسان على توليد وفهم جمل جديدة تمامًا؟" (Chomsky, 1957). لقد أثبت تشومسكي أن النماذج الإحصائية والتوزيعية غير كافية، واقترح بدلاً منها نموذجًا رياضيًا صوريًا، وهو "النحو التوليدي"، القادر على تحديد مجموعة الجمل النحوية في لغة ما بشكل دقيق وصريح.

2- أصول المدرسة التوليدية التحويلية

على الرغم من حداثةها، فإن النظرية التوليدية التحويلية لم تنشأ من فراغ، بل استمدت أسسها الفلسفية والمنهجية من جذور فكرية عميقة، يمكن تلخيصها في مصدرين رئيسيين:

1. الفلسفة العقلانية: (Rationalism) أعاد تشومسكي إحياء أفكار الفلاسفة العقلانيين

في القرنين السابع عشر والثامن عشر، مثل رينيه ديكارت (René Descartes) ونحاة مدرسة "بور رويال" (Port-Royal Grammar) "يرى هذا التيار أن المعرفة البشرية، بما في ذلك اللغة، ليست مجرد انعكاس للخبرة الحسية، بل تنبع من أفكار ومبادئ فطرية (Innate Ideas) مزروعة في العقل البشري منذ الولادة. يرى طرش (2018) أن تشومسكي وجد في "نحو بور رويال" تمييزًا مبكرًا بين بنية ظاهرة للجملة (ما يقابل البنية السطحية) وبنية منطقية خفية (ما يقابل البنية العميقة)، وهو ما شكل إلهامًا كبيرًا لنظريته.

2. المنطق الرياضي والعلوم الصورية: تأثر تشومسكي بالمنهجيات المستخدمة في

الرياضيات والمنطق وعلوم الحاسوب، والتي تسعى إلى بناء أنظمة صورية (Formal Systems) قادرة على توليد مجموعة من المخرجات (مثل النظريات الرياضية) من خلال مجموعة محدودة من المسلمات (Axioms) وقواعد الاستدلال (Inference Rules). لقد سعى تشومسكي إلى تطبيق هذا النوع من الصرامة

المنهجية على اللغة، فاعتبر النحو نظامًا صوريًا يولد جميع الجمل النحوية في لغة ما ولا شيء غيرها (Chomsky, 1957).

3- مراحل النظرية التوليدية التحويلية

لم تكن النظرية التوليدية نظرية جامدة، بل مرت بمراحل تطور وتعديل مستمرة، استجابة للنقد وللمزيد من البيانات اللغوية. وأهم هذه المراحل:

أ. المرحلة التأسيسية (1957-1965)

تُعرف هذه المرحلة بنموذج "البنى التركيبية". في هذه الفترة، كان تركيز تشومسكي على إثبات قصور النماذج النحوية السائدة وتقديم بديل أقوى. لقد ميز بين ثلاثة أنواع من القواعد النحوية: قواعد الحالات المحدودة، وقواعد البنية التركيبية، والقواعد التحويلية، وأظهر أن النوعين الأولين غير كافيين لوصف اللغات الطبيعية، وأنها بحاجة إلى القواعد التحويلية لتفسير ظواهر مثل الجمل المبنية للمجهول، والاستفهامية، والعلاقات بين الجمل. كان النموذج في هذه المرحلة تركيبياً بحثاً، ولم يتضمن مكوناً دلالياً أو صوتياً متكاملًا.

ب. مرحلة النظرية المعيارية (1965)

شهدت هذه المرحلة صدور كتاب تشومسكي المحوري "جوانب من نظرية النحو (Aspects of the Theory of Syntax)" عام 1965، والذي قدم ما يُعرف بـ "النظرية المعيارية (Standard Theory)". يُعد هذا النموذج النسخة الأكثر اكتمالاً وتأثيراً في تاريخ النظرية. أهم ما يميز هذه المرحلة هو تقديم التمييز الشهير بين "البنية العميقة (Deep Structure)" و"البنية السطحية (Surface Structure)".

في هذا النموذج، يتكون النحو من ثلاثة مكونات رئيسية:

- **المكون التركيبي:** وهو المكون المركزي الذي يولد البنى العميقة عبر "قواعد البنية التركيبية"، ثم يحولها إلى بنى سطحية عبر "القواعد التحويلية".
- **المكون الدلالي:** يأخذ مدخلاته من البنية العميقة، وهو المسؤول عن تفسير المعنى.
- **المكون الصوتي:** يأخذ مدخلاته من البنية السطحية، وهو المسؤول عن تحديد الشكل النطقي للجملة.



كان الافتراض الأساسي في هذه المرحلة هو أن البنية العميقة وحدها هي التي تحدد المعنى الكامل للجملة. (Chomsky, 1965)

ج. مرحلة النظرية المعيارية الموسعة (1972)

ظهرت هذه المرحلة كرد فعل على بعض المشكلات التي واجهت النظرية المعيارية، خاصة تلك التي أثارها "علم الدلالة التوليدي". فقد تبين أن بعض الظواهر الدلالية (مثل نطاق النفي والكميات) تتأثر بالبنية السطحية وليس فقط بالبنية العميقة. لذلك، تم تعديل النموذج ليسمح للبنية السطحية بالمساهمة في التفسير الدلالي. عُرفت هذه النسخة المعدلة بـ "النظرية المعيارية الموسعة. (Extended Standard Theory - EST) وقد استمرت النظرية في التطور بعد ذلك عبر مراحل أخرى كنظرية "الربط والعامل" (Government and Binding Theory) في الثمانينيات، وصولاً إلى "البرنامج الأدنى" (Minimalist Program) في التسعينيات وما بعدها، وكل مرحلة كانت تهدف إلى تبسيط المبادئ وجعلها أكثر عمومية وتجريداً. (Radford, 2004)

4- مبادئ المدرسة التوليدية التحويلية

تقوم المدرسة على مبدئين أساسيين هما التوليد والتحويل، وهما اللذان أعطياها اسمها.

أ. التوليد (Generation)

يشير مصطلح "التوليد" في هذا السياق إلى معنى رياضي دقيق. فالنحو التوليدي ليس آلة تنتج جملاً بشكل عشوائي، بل هو "نظام صوري يتكون من مجموعة منتهية من القواعد التي تقوم بتحديد (أو تعداد) مجموعة لا منتهية من الجمل النحوية في لغة ما، وتخصص لكل جملة وصفاً بنيوياً. (Chomsky, 1965, p. 8) "بمعنى آخر، النحو التوليدي هو جهاز للتعرف على الجمل الصحيحة نحوياً في لغة ما وتمييزها عن الجمل غير الصحيحة. فمثلاً، نحو اللغة العربية يجب أن يولد جملة "قرأ الطالب الكتاب" ويستبعد جملة "الكتاب الطالب قرأ".

ب. التحويل (Transformation)

التحويل هو عملية صورية تقوم بتغيير بنية تركيبية إلى بنية تركيبية أخرى. تعمل القواعد التحويلية على البنى العميقة التي يولدها المكون الأساسي للنحو، وتقوم بتعديلها عبر عمليات مثل الحذف (Deletion)، والإضافة (Insertion)، والنقل (Movement) لإنتاج البنى

السطحية. على سبيل المثال، يمكن اشتقاق جملة المبني للمجهول "ضرب الولد" من بنية عميقة أقرب إلى جملة المبني للمعلوم "ضرب (فاعل ما) الولد" عبر قاعدة تحويلية تنقل المفعول به إلى موقع الفاعل وتحذف الفاعل الأصلي.

5- البنية السطحية والبنية العميقة

يعد هذا التمييز من أهم إسهامات النظرية المعيارية، وهو أساسي لفهم كيفية ارتباط الصوت بالمعنى.

أ. البنية العميقة (Deep Structure)

هي التمثيل النحوي المجرد الذي يكمن خلف الجملة المنطوقة. تحتوي البنية العميقة على كل المعلومات اللازمة للتفسير الدلالي، أي أنها تحدد العلاقات المنطقية الأساسية بين مكونات الجملة (من الفاعل؟ من المفعول به؟). على سبيل المثال، الجملتان "عليّ كسر الزجاج" و "الزجاجُ كُسر بواسطة عليّ" تختلفان في بنيتهما السطحية، ولكنهما تشتركان في بنية عميقة واحدة تعبر عن علاقة الفاعلية والمفعولية نفسها.

ب. البنية السطحية (Surface Structure)

هي البنية النحوية النهائية للجملة بعد تطبيق جميع القواعد التحويلية. إنها البنية الأقرب إلى الشكل الصوتي الفعلي للجملة، وهي التي تُستخدم كمدخل للمكون الصوتي الذي يحدد كيفية نطقها. الاختلافات في ترتيب الكلمات، وجود أو غياب بعض العناصر، كلها سمات للبنية السطحية.

6- الملكة والأداء [La compétence / Performance]

هذا الثنائي المفاهيمي، الذي استعاره تشومسكي مع بعض التعديل من فرديناند دي سوسير (اللسان/الكلام)، أساسي لتحديد موضوع علم اللسانيات.

أ. الملكة (Competence)

الملكة اللغوية هي المعرفة الضمنية، غير الواعية، التي يمتلكها المتكلم-السامع المثالي بقواعد لغته. إنها نظام القواعد الذهني الذي يسمح له بتوليد وفهم عدد لا نهائي من الجمل. هذه الملكة هي نظام مثالي ومجرد، لا يتأثر بعوامل خارجية مثل السهو، أو ضيق الذاكرة، أو التعب.



يرى تشومسكي أن الهدف الأساسي لعلم اللسانيات هو وصف هذه الملكة الذهنية. (Chomsky, 1965)

ب. الأداء (Performance)

الأداء هو الاستخدام الفعلي للغة في مواقف حقيقية. إنه السلوك اللغوي الملحوظ، والذي يتضمن كل ما نقوله ونسمعه فعليًا. يتأثر الأداء بمجموعة واسعة من العوامل النفسية والاجتماعية والفيزيولوجية، مما يجعله غالبًا ما يحتوي على أخطاء، وجمل غير مكتملة، وتوقفات، وتكرار. ورغم أن بيانات الأداء هي المادة الخام التي يعمل عليها اللساني، إلا أن الهدف ليس وصف هذا الأداء بكل عيوبه، بل استخدامه كدليل للكشف عن طبيعة الملكة الكامنة التي أنتجته.

7- الإبداع اللغوي (La créativité)

يُعد مفهوم الإبداع اللغوي حجر الزاوية في نقد تشومسكي للسلوكية والبنائية. يشير هذا المفهوم إلى قدرة المتكلمين الأصليين على إنتاج وفهم جمل جديدة تمامًا لم يصادفوها من قبل. هذا الإبداع ليس مجرد إعادة ترتيب عشوائي للكلمات، بل هو إبداع محكوم بالقواعد (rule-governed creativity). فنحن لا ننتج أي تسلسل من الكلمات، بل ننتج فقط التسلسلات التي تتوافق مع قواعد لغتنا. يرى عبادي (2019) أن هذه الخاصية هي الدليل الأقوى على أن اللغة ليست مجرد عادة مكتسبة، بل هي نظام توليدي داخلي. إنها السمة التي تجعل اللغة البشرية مختلفة نوعيًا عن أنظمة التواصل لدى الحيوانات.

8- النحو العالمي (Universal Grammar)

إذا كانت الملكة اللغوية هي نظرية لغة معينة (كالعربية أو الإنجليزية)، فإن النحو العالمي هو نظرية اللغات البشرية بشكل عام. إنه "مجموعة المبادئ والشروط والقيود التي تشكل الحالة الأولية (Initial State) للملكة اللغوية، وبالتالي فهو يشكل الأساس الفطري لاكتساب اللغة. (Chomsky, 1986, p. 24)

يستند مفهوم النحو العالمي إلى "حجة فقر المنبه" (Poverty of the Stimulus Argument)، التي مفادها أن المعطيات اللغوية التي يتعرض لها الطفل أثناء اكتسابه للغة (وهي معطيات محدودة، ومجزأة، وملينة بالأخطاء) غير كافية على الإطلاق لتفسير الغنى والتعقيد والدقة في القواعد النحوية التي يكتسبها الطفل في فترة زمنية قصيرة. الاستنتاج الوحيد

الممكن، حسب تشومسكي، هو أن الطفل يولد وهو مزود بخريطة طريق لغوية مسبقة، أي النحو العالمي، الذي يوجه عملية اكتساب اللغة ويحدد ما هو ممكن وما هو غير ممكن في أي لغة بشرية.

9- خاصية القواعد التوليدية التحويلية

تتميز القواعد في النحو التوليدي بأنها قواعد صورية، دقيقة، وصريحة. هدفها ليس وصف ما هو "صحيح" أو "بليغ" من منظور معياري، بل وصف ما هو "نحوي" (grammatical) من منظور المتكلم الأصلي. ولكي يكون النحو كافياً، يجب أن يحقق ثلاثة مستويات من الكفاية: الكفاية الملاحظاتية (يحدد الجمل النحوية)، والكفاية الوصفية (يصف البنية الداخلية للجمل)، والكفاية التفسيرية (يفسر كيف يكتسب الطفل هذه القواعد، وهو ما يرتبط بالنحو العالمي).

10- القواعد ذات الحالات المحدودة (Finite-State Grammar)

في "البنى التركيبية"، ناقش تشومسكي هذا النموذج كأبسط أنواع النحو الممكنة. يعمل هذا النحو كسلسلة خطية، حيث يعتمد اختيار كل كلمة على الكلمة التي تسبقها مباشرة. يمكن تمثيله بمخطط ينتقل من حالة إلى أخرى. أثبت تشومسكي أن هذا النموذج غير كافٍ على الإطلاق لوصف اللغات الطبيعية، لأنه يفشل في التعامل مع التراكيب المتداخلة أو الاعتماديات بعيدة المدى (long-distance dependencies)، مثل الجمل التي تحتوي على جمل موصولة متداخلة.

11- القواعد التركيبية (Phrase-Structure Rules)

تُعرف أيضاً بقواعد المكونات المباشرة (Immediate Constituent Rules)، وهي تمثل النموذج الثاني والأكثر قوة الذي ناقشه تشومسكي. هذه القواعد لا تنظر إلى الجملة كسلسلة خطية، بل كهيكل هرمي (hierarchical structure). تقوم هذه القواعد بتفكيك الوحدات الأكبر إلى وحدات أصغر. على سبيل المثال:

$S \rightarrow NP VP$ (الجملة تتكون من مركب اسمي ومركب فعلي)

$NP \rightarrow (Det) N$ (المركب الاسمي يتكون من أداة تعريف واسم)

$VP \rightarrow V NP$ (المركب الفعلي يتكون من فعل ومركب اسمي)

هذه القواعد قادرة على توليد البنية الشجرية للجمل، وهي خطوة كبيرة إلى الأمام. ومع ذلك، وجد تشومسكي أنها تظل قاصرة، لأنها غير قادرة على إظهار العلاقات بين الجمل المترابطة بنيوياً (مثل المبني للمعلوم والمبني للمجهول) بطريقة اقتصادية ومباشرة. ففي هذا النموذج، يجب توليد كل جملة بقواعد منفصلة، مما يغفل عن التعميمات الهامة.

12- القواعد التحويلية (Transformational Rules)

هنا تكمن الإضافة الحاسمة التي قدمها تشومسكي. القواعد التحويلية هي النوع الثالث والأقوى من القواعد، وهي تعمل على الهياكل التي تنتجها القواعد التركيبية. وظيفتها ليست توليد البنى من الصفر، بل "تحويل" بنية موجودة إلى أخرى.

على سبيل المثال، لنأخذ جملة "الولد يقرأ الكتاب". يمكن أن تولد القواعد التركيبية بنيتها الأساسية. ثم يمكن لقاعدة تحويلية خاصة بالاستفهام أن تعمل على هذه البنية لنقل الفعل المساعد إلى بداية الجملة وتغيير النبرة لإنتاج "هل يقرأ الولد الكتاب؟". وبالمثل، يمكن لقاعدة المبني للمجهول أن تعمل على نفس البنية الأساسية لإنتاج "الكتاب يُقرأ (بواسطة الولد)". وبهذه الطريقة، يمكن للنحو أن يربط بين هذه الجمل الثلاث، مظهرًا أنها ليست كيانات منفصلة، بل هي تنويعات على بنية أساسية واحدة، وهو ما يحقق تعميمًا قويًا ومهمًا. (Radford, 2004)

13- مكونات النظرية التوليدية التحويلية (نموذج 1965)

في "النظرية المعيارية"، يتألف النحو من ثلاثة مكونات رئيسية تتفاعل مع بعضها البعض لربط الصوت بالمعنى.

أ. المكون التركيبي (Syntactic Component)

هو قلب النحو والمكون التوليدي الوحيد. ينقسم بدوره إلى قسمين:

• **القاعدة (Base):** تحتوي على "قواعد البنية التركيبية" التي تولد البنى العميقة،

و"المعجم (Lexicon)" الذي يزود هذه البنى بالمفردات مع خصائصها النحوية

والدالية.

• **المكون التحويلي (Transformational Subcomponent):** يحتوي على

القواعد التحويلية التي تحول البنى العميقة إلى بنى سطحية.

ب. المكون الصوتي (Phonological Component)

يستقبل هذا المكون البنية السطحية كمدخل له. وظيفته هي تطبيق مجموعة من القواعد الصوتية والصواتية لتحويل التمثيل النحوي المجرد إلى تمثيل صوتي ملموس، أي تحديد كيفية نطق الجملة، بما في ذلك النبر والتنغيم.

ج. المكون الدلالي (Semantic Component)

في النظرية المعيارية، يستقبل هذا المكون البنية العميقة كمدخل له. وظيفته هي تفسير معنى الجملة من خلال تحليل العلاقات النحوية الموجودة في البنية العميقة (مثل الفاعل، المفعول به) ومعاني المفردات. كان الافتراض أن المعنى يتحدد بالكامل على مستوى البنية العميقة.

خلاصة

لقد مثلت المدرسة التوليدية التحويلية نقلة نوعية في الدراسات اللسانية، حيث حولت التركيز من وصف السلوك اللغوي الظاهري إلى تفسير المعرفة اللغوية الذهنية الكامنة. من خلال مفاهيم مبتكرة مثل الملكة والأداء، والبنية العميقة والسطحية، والنحو العالمي، والإبداعية، قدم نعوم تشومسكي إطاراً نظرياً متكاملاً لا يهدف فقط إلى وصف اللغات، بل إلى فهم طبيعة العقل البشري. ورغم التطورات والتعديلات الكثيرة التي طرأت على النظرية منذ نشأتها، فإن المبادئ الأساسية التي طرحت في مراحلها الأولى، والتي تم استعراضها في هذه المحاضرة، لا تزال تشكل حجر الأساس للفكر اللساني الحديث وتفتح آفاقاً واسعة للبحث في العلاقة بين اللغة والإدراك.

أسئلة حول المحاضرة لمناقشتها مع الطلبة

1. ما هي أوجه القصور الرئيسية في المدرسة البنيوية التي دفعت تشومسكي إلى تأسيس

نظريته الجديدة؟

2. اشرح بكلماتك الخاصة الفرق بين "الملكة" اللغوية و"الأداء" اللغوي. لماذا يرى

تشومسكي أن موضوع اللسانيات يجب أن يكون الملكة؟

3. "الجملتان 'الشرطي يطارد اللص' و 'اللص يُطارَد من قبل الشرطي' لهما نفس البنية

العميقة". حلل هذه المقولة في ضوء مفاهيم البنية العميقة والسطحية والقواعد التحويلية.

4. ما المقصود بـ "الإبداع اللغوي"؟ وكيف تستخدمه النظرية التوليدية كحجة ضد

النظريات السلوكية في تعلم اللغة؟

5. ما هي حجة "فقر المنبه"؟ وكيف تدعم هذه الحجة فكرة وجود "نحو عالمي" فطري؟

6. قارن بين قوة وضعف كل من "قواعد الحالات المحدودة" و "قواعد البنية التركيبية"

في وصف اللغات الطبيعية. ما الذي أضافته "القواعد التحويلية"؟

قائمة المراجع

- لطرش، بولرباح. (2018). محاضرات في المدارس اللسانية المعاصرة. جامعة زيان عاشور بالجلفة.
- عبادي، عبد الحق. (2019). مدخل إلى اللسانيات التوليدية التحويلية. منشورات جامعة الجزائر 2.
- Chomsky, N. (1957). Syntactic Structures. Mouton de Gruyter.
- Chomsky, N. (1965). Aspects of the Theory of Syntax. MIT Press.
- Radford, A. (2004). Minimalist Syntax: Exploring the Structure of English. Cambridge University Press.

المحاضرة الحادية عشرة: المدرسة التوليدية التحويلية (2)

مقدمة:

تستكمل هذه المحاضرة مسيرة تطور النظرية التوليدية التحويلية، التي أحدثت ثورة في الدراسات اللسانية الحديثة بقيادة نعوم تشومسكي. فيعد أن رسخت "النظرية النموذجية (Standard Theory) التي قُدمت في كتابه "مظاهر النظرية التركيبية (Aspects of the Theory of Syntax) (عام 1965، مفاهيم جوهرية كالبنية العميقة والبنية السطحية، والكفاءة والأداء، سرعان ما ظهرت تحديات نظرية وتجريبية كشفت عن قصور هذا النموذج (قديح، 2021). لقد افترضت النظرية النموذجية أن البنية العميقة هي المستوى الوحيد الذي يحدد التأويل الدلالي للجملة، بينما تتولى البنية السطحية تحديد الشكل الصوتي فقط، لكن، أظهرت ظواهر لغوية معقدة، مثل غموض مجال الأدوات الكمية (Quantifier Scope) و التركيز (Focus)، أن البنية السطحية تسهم في بناء المعنى. هذا القصور دفع تشومسكي ومدرسته إلى مراجعة الأسس النظرية، مما أدى إلى ولادة النظرية النموذجية الموسعة (Extended Standard Theory - EST) (منثلت هذه المرحلة تحوُّلاً جوهرياً في بنية النحو، حيث لم يعد التركيب (Syntax) مكوناً مستقلاً تَمَلَّما عن المكونات الأخرى، بل بدأ الاعتراف بتفاعله العميق مع المكون الدلالي (Semantics) والتداولي (Pragmatics)، وحتى الفونولوجي (Phonology) (وكما يشير العبادي (2022)، فإن هذا التطور لم يكن مجرد "موضة" فكرية، بل كان استجابة ضرورية لمطلوبات الوصف والتفسير اللسانيين، وسعيًا نحو بناء نظرية أكثر كفاية وقدرة على تفسير الظواهر اللغوية في تعقيدها. ستركز هذه المحاضرة على محورين أساسيين يعكسان هذا التطور: أولاً، سنناقش كيفية بدء دمج الأبعاد التداولية في النموذج التوليدي من خلال تفاعلها مع المكونات التركيبية والدلالية والفونولوجية. ثانياً، سنتناول بالتفصيل خصائص "مرحلة النظرية النموذجية الموسعة" باعتبارها الإطار الذي استوعب هذه التعديلات الجوهرية.



1- إدماج المكون التداولي

في مراحلها الأولى، كانت النظرية التوليدية تركز بشكل شبه حصري على "الكفاءة" (Competence) النحوية، أي معرفة المتكلم الضمنية بقواعد لغته التي تمكنه من توليد عدد لا نهائي من الجمل النحوية. كان هذا التركيز يعني استبعاد عوامل "الأداء" (Performance)، بما في ذلك السياق والمقام والغرض التواصلية، والتي تندرج ضمن اهتمامات التداولية (Pragmatics). ومع ذلك، أصبح من الواضح بشكل متزايد أن الفصل الحاد بين الكفاءة النحوية والقدرة على استخدام اللغة في سياقات حقيقية هو تبسيط مخل (Carston, 2000) فكثير من الظواهر النحوية لا يمكن تفسيرها تفسيراً كاملاً دون الرجوع إلى وظيفتها في الخطاب.

لم تتبنَّ النظرية التوليدية التداولية كأحد مكوناتها الأساسية، لكنها اضطرت إلى التفاعل مع المفاهيم التداولية لتفسير البيانات اللغوية. لقد نشأت التداولية الحديثة جزئياً كرد فعل على محدودية النحو التوليدي في التعامل مع المعنى في سياق الاستعمال (Sauerland & Alexiadou, 2020). وبدأ اللسانيون يدركون أن القواعد النحوية ليست مجرد خوارزميات صورية، بل هي أدوات يستخدمها المتكلمون لتحقيق أغراض تواصلية، وأن اختيار بنية تركيبية معينة دون أخرى (رغم صحتها النحوية) غالباً ما يكون محكوماً باعتبارات تداولية.

أ. المكون التركيبي والتفاعل التداولي

كان يُنظر إلى المكون التركيبي (Syntactic Component) في النظرية النموذجية على أنه المحرك المركزي المستقل الذي يولد البنى العميقة ويحولها إلى بنى سطحية. ومع ذلك، أظهرت دراسات عديدة أن بعض العمليات التركيبية مقيدة بشروط تداولية. على سبيل المثال، ظواهر مثل التقديم والتأخير (Movement)، واختيار المبني للمعلوم مقابل المبني للمجهول، واستخدام أنواع معينة من الجمل (مثل جمل الصلة الموصولة)، لا يمكن تفسيرها بالكامل ضمن قواعد تركيبية بحتة.

لنأخذ مثلاً على ذلك: الاختيار بين الجملتين التاليتين:

- (أ) أكل الولد التفاحة.
- (ب) التفاحة أكلها الولد. (بنية التقديم/المبتدأ)

من منظور تركيبى بحث، كلتا الجملتين صحيحة نحويًا. لكن اختيار المتكلم للجملة (ب) بدلاً من (أ) غالبًا ما يكون مدفوعًا بعوامل تداولية، مثل الرغبة في إبراز "التفاحة" كـ "موضوع" (Topic) الحديث، أو لأنها تمثل معلومة قديمة معروفة لدى السامع، بينما يمثل "الولد" معلومة جديدة. هذا التمييز بين المعلومة القديمة (Theme/Topic) والجديدة (Rheme/Comment) هو مفهوم تداولي بامتياز، ولكنه يؤثر بشكل مباشر على البنية التركيبية التي يختارها المتكلم.

كما لاحظت مدرسة براغ الوظيفية، فإن الجملة ليست مجرد بنية نحوية، بل هي أداة لتنظيم المعلومات في الخطاب (لطرش، 2024). وقد بدأت هذه الأفكار تتسرب إلى الفكر التوليدي، وإن كان بشكل غير مباشر. فظواهر مثل "التحويل" (Transformation) "لم تعد تُرى فقط كعمليات آلية، بل كآليات تتيح للمتكلم تكييف البنية النحوية لتلائم المتطلبات التداولية للخطاب. أحد أبرز الأمثلة على هذا التفاعل هو مفهوم "التركيز" أو "البؤرة" (Focus). "التركيز هو ظاهرة تداولية تشير إلى الجزء من الجملة الذي يقدم المعلومة الأبرز أو الجديدة أو المتناقضة. هذا التركيز له انعكاسات تركيبية واضحة في العديد من اللغات. في بعض اللغات، يتم نقل العنصر المُرَكَّز عليه إلى بداية الجملة (Focus Fronting)، وهي عملية تركيبية بحتة لكن دافعها تداولي.

"تُمثِّل نظرية النحو التوليدي التحويلي لـ 'نجوم تشومسكي' تطوُّرًا حاسمًا في الدراسات اللسانية الحديثة؛ نتيجة ثورتها على المفاهيم البنويَّة التي كانت سائدة... لكن هذه الثورة نفسها خضعت لتطورات داخلية عميقة، حيث انتقلت من التركيز على الاستقلال التام للمكونات إلى الاعتراف بالتفاعلات المعقدة بينها" (قديدح، 2021، ص. 431).

وبالتالي، فإن دراسة المكون التركيبى في المراحل المتقدمة من النظرية التوليديَّة لم تعد تكتفى بالإجابة على سؤال "ما هي الجملة الصحيحة نحويًا؟"، بل امتدت لتشمل سؤال "لماذا تُستخدم هذه البنية النحوية الصحيحة في هذا السياق بالذات؟". هذا السؤال الأخير يفتح الباب على مصراعيه أمام التحليل التداولي، ويجعل من التفاعل بين التركيب والتداولية مجالاً خصباً للبحث، وهو ما مهد الطريق لظهور النظرية النموذجية الموسعة التي أعطت دوراً للبنية السطحية، وهي الأقرب للاستعمال الفعلي، في تحديد المعنى.

ب. المكون الدلالي والتفاعل التداولي

كان الخلاف حول طبيعة العلاقة بين التركيب والدلالة أحد أهم محركات التطور داخل المدرسة التوليدية. في "النظرية النموذجية"، كان الافتراض الأساسي (المعروف بفرضية كاتز-بوستال) هو أن البنية العميقة وحدها هي التي تحدد المعنى. أي أن التحويلات التركيبية التي تنتقل البنية العميقة إلى بنية سطحية لا تغير المعنى.

لكن سرعان ما تبين أن هذا الافتراض غير دقيق. فالجملتان التاليتان، اللتان يمكن اشتقاقهما من بنية عميقة واحدة، لهما معنيان مختلفان:

- (أ) كثير من الناس يقرؤون كتبًا قليلة. (المعنى: عدد الناس كثير، وعدد الكتب التي يقرؤونها قليل)

- (ب) كتبًا قليلة يقرؤها كثير من الناس. (المعنى: هناك مجموعة محددة من الكتب القليلة، وهذه المجموعة يقرؤها عدد كبير من الناس)

هذا الاختلاف في المعنى، المعروف بـ "غموض المجال" (Scope Ambiguity)، يعتمد على الترتيب الخطي للعناصر في البنية السطحية. هذا المثال وغيره أثبت أن البنية السطحية لها دور في التأويل الدلالي. هذا الاكتشاف كان له أثر كبير، حيث فتح الباب أمام فكرة أن المعنى ليس مجرد بنية منطقية مجردة (في البنية العميقة)، بل يتأثر بكيفية "عرض" الجملة في شكلها النهائي، وهو ما يقترب كثيرًا من المنظور التداولي. (Carston, 2000)

التداولية، كما تُعرّف غالبًا، هي دراسة "المعنى في السياق" أو "معنى المتكلم" (Speaker's Meaning) مقابل "معنى الجملة" (Sentence Meaning). "عندما بدأت النظرية التوليدية تعترف بأن البنية السطحية تؤثر على المعنى، كانت في الواقع تقر بأن جوانب من "كيفية قول الشيء" (المرتبطة بالبنية السطحية) تؤثر على "ما قيل" (المعنى).

علاوة على ذلك، فإن الفصل بين علم الدلالة (Semantics) والتداولية (Pragmatics) نفسه أصبح موضع نقاش. علم الدلالة التقليدي يهتم بالمعنى الحرفي، بينما تهتم التداولية بالمعنى المستلزم (Implicature) والمستنتج من السياق. لكن ظواهر مثل التركيز (Focus) تقع على الحدود بينهما. فالتركيز يغير "المعنى الحرفي" من حيث ما هو مفترض مسبقًا وما هو مؤكد، ولكنه في نفس الوقت ظاهرة تداولية تتعلق بنوايا المتكلم وتوقعات السامع.

على سبيل المثال، الجملة "علي هو من كسر النافذة" لها نفس القيمة الصدقية (Truth Value) للجملة "علي كسر النافذة"، لكنها تختلف دلاليًا وتداوليًا. الجملة الأولى تفترض مسبقًا أن شخصًا ما كسر النافذة (Presupposition)، وتؤكد أن هذا الشخص هو علي (Assertion). هذه الافتراضات المسبقة هي جزء من المعنى، لكنها تتحدد من خلال البنية السطحية وتفاعلها مع السياق التداولي.

هذا التداخل المعقد بين الدلالة والتداولية دفع بعض اللسانيين إلى اقتراح نماذج أكثر تكاملًا. على سبيل المثال، تقترح بعض الأطر الحديثة المستلهمة من الفكر التوليدي أن اللغة هي نظام "ضغط" (Compression) يقوم بتحويل بنى الفكر المعقدة إلى إشارات لغوية، مع ترك الكثير من المعلومات للسياق التداولي لاستنتاجها (Sauerland & Alexiadou, 2020). هذا المنظور يضع التفاعل بين القواعد النحوية والاستدلال التداولي في صميم عملية التواصل اللغوي، وهو ما يمثل خروجًا كبيرًا عن فكرة استقلالية المكونات التي سادت في البداية.

ج. المكون الفونولوجي والتفاعل التداولي

في النموذج التوليدي، يُنظر إلى المكون الفونولوجي (Phonological Component) على أنه المسؤول عن تحويل البنية السطحية (التي هي عبارة عن سلسلة من المورفيمات) إلى تمثيل صوتي (Phonetic Representation) يمكن نطقه. كان هذا المكون يُعتبر تفسيريًا بحثًا، أي أنه لا يضيف أي معنى، بل يطبق فقط القواعد الصوتية والصواتية. لكن هذا التصور أيضًا واجه تحديات، خاصة مع ظواهر مثل التنغيم (Intonation) والنبر (Stress). فالطريقة التي تُنطق بها الجملة يمكن أن تغير معناها بشكل جذري، ليس فقط على المستوى العاطفي، بل على المستوى الدلالي-التداولي. على سبيل المثال، لننظر إلى الجملة "سارة اشترت سيارة حمراء" وكيف يتغير معناها بتغير موضع النبر (المشار إليه بالخط العريض):

- "سارة اشترت سيارة حمراء." (وليس شخص آخر)
- "سارة اشترت سيارة حمراء." (ولم تستأجرها)
- "سارة اشترت سيارة حمراء." (وليس دراجة)
- "سارة اشترت سيارة حمراء." (وليس زرقاء)



في كل حالة، تبقى البنية التركيبية والكلمات كما هي، لكن ما يتغير هو "التركيز" أو "البؤسة" (Focus)، والذي يتم تحديده صوتيًا من خلال النبر. هذا التركيز، كما ذكرنا، هو مفهوم تداولي يتعلق بالمعلومات التي يريد المتكلم إبرازها أو تصحيحها. هذا يعني أن المكون الفونولوجي ليس مجرد "منفذ" للبنية التركيبية، بل هو أيضًا أداة حيوية لتشفير المعاني التداولية. هذا التفاعل بين الفونولوجيا والتداولية أدى إلى ظهور مجال بحثي يعرف بـ "واجهة التركيب-الفونولوجيا" (Syntax-Phonology Interface) و"واجهة الدلالة-التداولية" (Semantics-Pragmatics Interface). أصبح من المسلم به أن البنية السطحية لا تُرسل إلى المكون الفونولوجي ككتلة واحدة، بل إنها تحتوي على علامات (features) تحدد كيفية تحقيقها صوتيًا لتعكس البنية المعلوماتية (Information Structure) (للخطاب، Carston, 2000). وبالتالي، فإن فهم كيفية عمل اللغة يتطلب فهمًا لكيفية تفاعل هذه المكونات المختلفة لإنتاج رسالة متكاملة ذات معنى في سياق معين، وهو ما قادت إليه التطورات اللاحقة في النظرية التوليدية.

2- مرحلة النظرية النموذجية الموسعة (Extended Standard Theory - EST)

ظهرت النظرية النموذجية الموسعة (EST) في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات من القرن العشرين، كرد فعل مباشر على المشكلات التي واجهتها النظرية النموذجية (ST)، والتي تم تلخيصها في كتاب "مظاهر النظرية التركيبية" (1965). وكما يشير اسمها، لم تكن النظرية الموسعة قطيعة كاملة مع سابقتها، بل كانت "توسيعًا" وتعديلًا لها لاستيعاب الظواهر التي لم تستطع تفسيرها (العبادي، 2022).

التحول الأكثر جوهرية في النظرية النموذجية الموسعة كان التخلي عن "فرضية كاتز-بوستال"، التي كانت تنص على أن البنية العميقة هي المستوى الوحيد للتأويل الدلالي. وبدلاً من ذلك، اقترحت النظرية الموسعة أن المعنى يتحدد من خلال تفاعل كل من البنية العميقة والبنية السطحية (قديدح، 2021).

أصبحت بنية النحو في هذا النموذج كما يلي:

1. **المكون الأساس (Base Component):** يولد البنى العميقة (D-Structure) باستخدام قواعد بنية العبارة والمعجم. لا تزال البنية العميقة مسؤولة عن تحديد العلاقات النحوية الأساسية والأدوار الدلالية (مثل: فاعل، مفعول به).
 2. **المكون التحويلي (Transformational Component):** يطبق قواعد التحويل (مثل "انقل ألفا (Move-α) على البنى العميقة لإنتاج البنى السطحية (S-Structure).
 3. **التأويل الدلالي:** أصبح الآن يتم على مستويين. فالبنية العميقة تحدد الجوانب الدلالية المتعلقة بالأدوار الموضوعية، بينما تحدد البنية السطحية الجوانب الدلالية المتعلقة بمجال الأدوات الكمية (Scope) والتركيز (Focus) والضمان والافتراضات المسبقة.
 4. **المكون الفونولوجي:** يأخذ البنية السطحية كمدخل ويحولها إلى شكل صوتي (Phonetic Form – PF).
- هذا التعديل جعل النموذج أكثر قوة تفسيرية. فمن خلال السماح للبنية السطحية بلعب دور في الدلالة، تمكنت النظرية من التعامل مع الأمثلة التي كانت مستعصية على النموذج القديم، مثل غموض مجال الأدوات الكمية الذي نوقش سابقاً.
- إحدى الإضافات المهمة الأخرى في هذه المرحلة كانت "نظرية الأثر (Trace Theory)". عندما يتم نقل عنصر من موقعه الأصلي في البنية العميقة إلى موقع جديد في البنية السطحية (عبر قاعدة "انقل ألفا")، فإنه يترك وراءه "أثراً (trace)" غير منطوق في موقعه الأصلي. هذا الأثر يعمل كمتغير مرتبط بالعنصر المنقول، مما يسمح بالحفاظ على المعلومات الدلالية الأصلية (مثل الدور الموضوعي) في البنية السطحية.
- على سبيل المثال، في جملة الاستفهام "ماذا أكل الولد؟"، يتم نقل "ماذا" من موقع المفعول به بعد الفعل إلى بداية الجملة. الأثر (t) الذي تتركه "ماذا" في موقعها الأصلي يضمن أن "ماذا" ستُفسر دلاليًا على أنها مفعول به للفعل "أكل". هذه الآلية سمحت للنظرية بالاستغناء عن فكرة أن التحويلات يجب أن تحافظ على المعنى، مع توفير طريقة لربط البنية السطحية بالمعلومات الدلالية للبنية العميقة.

تطورت النظرية النموذجية الموسعة لاحقًا إلى ما يعرف بـ "النظرية النموذجية الموسعة المنقحة (Revised Extended Standard Theory - REST)" ، والتي أضافت قيودًا وشروطًا أكثر على التحويلات، ومهدت الطريق لظهور "نظرية الربط والعامل" (Government and Binding Theory) في الثمانينيات. بشكل عام، مثلت مرحلة النظرية النموذجية الموسعة نقطة تحول هامة في تاريخ الفكرية التوليدي. لقد كانت اعترافًا بأن بنية اللغة أكثر تعقيدًا وتفاعلية مما كان يُعتقد في البداية. فمن خلال دمج مساهمة البنية السطحية في تحديد المعنى، فتحت النظرية الباب أمام دراسة التفاعل بين التركيب والدلالة والتداولية، وهو اتجاه لا يزال يهيمن على الكثير من الأبحاث اللسانية المعاصرة (Sauerland & Alexiadou, 2020).

خلاصة

تناولت هذه المحاضرة مرحلة حاسمة من تطور النظرية التوليديّة التحويلية، وهي الانتقال من "النظرية النموذجية" إلى "النظرية النموذجية الموسعة". لقد بينّا أن هذا التحول لم يكن مجرد تعديل تقني، بل كان استجابة لتحديات تجريبية أظهرت قصور النموذج الأول، خاصة في تفسير الظواهر التي تقع عند تقاطع التركيب والدلالة والتداولية. أوضحنا كيف أن ظواهر مثل التركيز (Focus)، ومجال الأدوات الكمية (Scope)، والبنية المعلوماتية للخطاب، أجبرت النظرية على التخلي عن فكرة استقلالية المكونات، والاعتراف بالتفاعل المعقد بينها. لقد بدأ المكون التركيبي يُرى متأثرًا بالقيود التداولية، وبدأ المكون الدلالي يستمد جزءًا من تأويله من البنية السطحية، كما أصبح المكون الفونولوجي أداة لتفسير المعاني التداولية عبر التنغيم والنبر.

مثلت "النظرية النموذجية الموسعة" الإطار الذي استوعب هذه التطورات، حيث أعادت تعريف دور البنية السطحية لتصبح مساهمًا نشطًا في التأويل الدلالي، وقدمت آليات جديدة مثل "نظرية الأثر" للتعامل مع عمليات التحويل. وبهذا، وضعت هذه المرحلة الأسس لنماذج لسانية

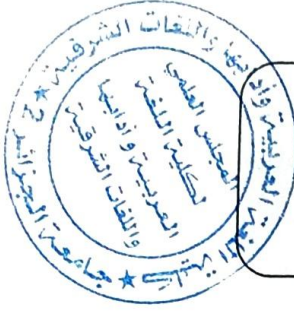
أكثر تكاملاً وقدرة على تفسير كيفية استخدام البشر للغة كأداة تواصلية فعالة في سياقات متنوعة.

أسئلة حول المحاضرة للمناقشة مع الطلبة

1. قارن بين دور البنية السطحية في "النظرية النموذجية" و"النظرية النموذجية الموسعة". ما هي الظواهر اللغوية التي دفعت إلى هذا التغيير؟
2. اشرح كيف يمكن لظاهرة "التركيز (Focus)" أن تكون مثلاً على التفاعل بين المكونات التركيبية والدلالية والفونولوجية والتداولية. قدم أمثلة من اللغة العربية.
3. ما هي "نظرية الأثر (Trace Theory)" وما هي المشكلة التي جاءت لحلها في إطار النظرية النموذجية الموسعة؟
4. هل يمكن اعتبار إدماج الاعتبارات التداولية في النحو التوليدي "تراجعاً" عن الهدف الأصلي للنظرية المتمثل في دراسة "الكفاءة" المجردة؟ أم هو تطوير ضروري؟ علل إجابتك.

قائمة المراجع

- العبادي، عبد الحق. (2022). محاضرات المدارس اللسانية. جامعة ابن خلدون/تيارت.
- لطرش، بولرباح. (2024). المدارس اللسانية. مديرية النشر الجامعي، جامعة الجلفة.
- قديح، شهرزاد. (2021). النحو التحويلي مكملاً للنحو التوليدي. مجلة جسور المعرفة، 7(3)، 430-446.
- Carston, R. (2000). The relationship between generative grammar and (relevance-theoretic) pragmatics. *Language & Communication*, 20(1), 87-103.
- Sauerland, U., & Alexiadou, A. (2020). Generative grammar: A meaning first approach. *Frontiers in Psychology*, 11, 571295. <https://doi.org/10.3389/fpsyg.2020.571295>



المحاضرة الثانية عشرة: المدرسة الوظيفية الأمريكية: نموذج سيمون ديك وأحمد المتوكل

تمهيد

تُعد المدرسة الوظيفية تيارًا لسانيًا بارزًا ينظر إلى اللغة باعتبارها أداة للتواصل الإنساني في المقام الأول. وعلى عكس المدارس الشكلية كالتوليدية التحويلية التي تركز على البنية الداخلية للغة بمعزل عن سياقها، تعتقد الوظيفية أن البنى الصوتية والقواعدية والدلالية محكومة بالوظائف التي تؤديها في المجتمعات (مرباح، 2020). ضمن هذا التيار العام، تبرز "نظرية النحو الوظيفي" التي أسس لها اللساني الهولندي سيمون ديك، والتي تُعرف أحيانًا في الأوساط العربية بـ "المدرسة الوظيفية الأمريكية" نظرًا لتأثيرها الواسع وتطويرها على يد باحثين كأحمد المتوكل الذي طبقها على اللغة العربية.

تنطلق هذه النظرية من مبدئين منهجيين أساسيين: الأول هو أن اللغة تؤدي وظيفة التواصل، والثاني هو أن بنية اللغة ترتبط بوظيفتها هذه ارتباطًا تبعية (لطرش، 2020). وعليه، فإن الهدف من دراسة اللغة ليس وصف بنيتها الشكلية فحسب، بل فهم كيف تُمكن هذه البنية المتكلمين من تحقيق أغراض تواصلية وتفاعلية في سياقات اجتماعية محددة. تسعى هذه المحاضرة إلى استعراض نشأة هذه النظرية، وتحديد مفاهيمها الأساسية، وشرح مبادئها المنهجية، وتفصيل بنيتها العامة وأنواع الوظائف التي تميزها، مع التركيز على نموذج سيمون ديك والتطبيقات التي قدمها أحمد المتوكل في إطار اللغة العربية.

1- نشأة نظرية النحو الوظيفي

تعود نشأة نظرية النحو الوظيفي (Functional Grammar) في أصولها إلى مدينة أمستردام بهولندا، حيث تأسست على يد العالم اللساني سيمون ديك (Simon Dik). ظهر الإطار العام للنظرية لأول مرة بشكل متكامل في كتابه "Functional Grammar" عام 1978، والذي وضع فيه الأسس والمبادئ العامة لنظريته (لطرش، 2020). جاءت هذه النظرية كرد فعل على هيمنة النموذج التوليدي التحويلي لتشومسكي، الذي كان يركز على "الكفاية اللغوية"

(Linguistic Competence) للمتكلم المثالي، مهملًا "الكفاية التواصلية" (Communicative Competence) التي تشمل القدرة على استخدام اللغة بفعالية في مواقف حقيقية.

انتقد ديك النموذج البنيوي والتوليدي لتركيزهما المفرط على الجانب التركيبي (Syntax) بمعزل عن الدلالة (Semantics) والتداولية (Pragmatics) ورأى أن النحو يجب أن يكون "وظيفيًا" بمعنى أنه يفسر بنية الجملة على أساس الدور التواصلية للعناصر المكونة لها (مرباح، 2020). كان طموح ديك هو بناء نموذج نحوي قادر على تفسير كيف يتم إنتاج وفهم العبارات اللغوية في سياق التفاعل التواصلية.

بعد ظهورها، استطاعت نظرية النحو الوظيفية أن تؤسس لنفسها مكانة علمية متميزة بين النظريات اللسانية المعاصرة، وأصبحت الوريث الشرعي للتيارات الوظيفية التي سبقتها، مثل حلقة براغ. وقد تطورت النظرية لاحقًا على يد ديك نفسه في نسخة موسعة عام 1989، ثم استمر تطويرها بعد وفاته من قبل تلاميذه في ما يعرف اليوم بـ "نحو الخطاب الوظيفي" (Functional Discourse Grammar).

وفي العالم العربي، لقيت النظرية اهتمامًا كبيرًا، خاصة في المغرب العربي، ويُعد اللساني المغربي أحمد المتوكل من أبرز من تبني هذا المنهج وعمل على تكييفه وتطبيقه على اللغة العربية. قدم المتوكل، من خلال مجموعة من مؤلفاته القيمة، مشروعًا يسعى إلى إعادة قراءة التراث اللغوي العربي وتفسير ظواهره في ضوء المنهج الوظيفي. وقد أضاف المتوكل بُعدًا تداوليًا واضحًا للنظرية، مما جعلها أكثر ملاءمة لتحليل النصوص والحوارات العربية، وهو ما يُعرف بـ "النحو الوظيفي التداولي" (مرباح، 2020). وبفضل هذه الجهود، أصبحت النظرية مرشحة لتكون بديلاً معاصراً للنظرية النحوية العربية التقليدية.

2- تعريف النحو الوظيفي

يمكن تعريف النحو الوظيفي بأنه "نظرية للتركيب والدلالة منظورًا إليهما من وجهة نظر تداولية" (بن عياش، 2023، ص. 41). هذا التعريف يكشف عن الطبيعة التكاملية للنظرية، فهي لا تفصل بين المستويات اللغوية الثلاثة (التركيب، الدلالة، التداولية)، بل تدرسها في إطار تفاعلها لتحقيق الهدف الأسمى للغة، وهو التواصل.

بعبارة أخرى، النحو الوظيفي هو النحو الذي لا يقتصر على وصف البنية الشكلية للجملة، بل يهدف إلى فهمها كأداة للتواصل الإنساني. يعتمد على فكرة أن البنية النحوية ليست غاية في ذاتها، بل هي وسيلة لتحقيق أغراض وظيفية في سياق التواصل. ومن هنا، يركز النحو الوظيفي على العلاقة بين الشكل اللغوي والمعنى الذي يحمله، ودور كل عنصر في تحقيق الأهداف التفاعلية للمتكلم (مرباح، 2020).

يستبدل أحمد المتوكل مفهوم "الجملة" بمفهوم "الخطاب"، ويعرّف الخطاب بأنه "كل ملفوظ منطوق أو مكتوب يشكل وحدة تواصلية تامة" (دعير ومحمد، 2022، ص. 498). هذا التحول يعكس الاهتمام بالوحدة التواصلية الفعلية التي يستخدمها الناس، والتي قد تكون جملة أو شبه جملة أو نصًا كاملاً، بدلاً من الاختصار على الجملة المنعزلة. فالمستعملون للغة لا يتواصلون بجملة منعزلة، بل يكونون منها "قطعاً أعقد وأكبر يمكن أن نطلق عليها اللفظ العام "الخطاب" (دعير ومحمد، 2022، ص. 498).

3- المبادئ المنهجية لنظرية النحو الوظيفي

تقوم المقاربة الوظيفية على مجموعة من المبادئ العامة التي توجه منهجها في دراسة اللغة. يمكن تلخيص أهم هذه المبادئ كما عرضها أحمد المتوكل استناداً إلى أعمال سيمون ديك (لطرش، 2020؛ بن عياش، 2023) في النقاط التالية:

1. أدوات اللغة ووظيفتها التواصلية: المبدأ المركزي في النظرية هو أن اللغة أداة (instrument) ووظيفتها الأساسية هي تحقيق التواصل داخل المجتمعات الإنسانية. هذا يعني أن أي تحليل لغوي يجب أن ينطلق من هذه الوظيفة ويسعى لتفسير الظواهر اللغوية بالرجوع إليها. موضوع الدرس اللساني ليس "القدرة اللغوية" المجردة، بل "القدرة التواصلية (Communicative Competence) "التي تمكن الفرد من المشاركة في الأفعال الخطابية.
2. ارتباط البنية بالوظيفة: ترى النظرية أن بنية اللغة ليست اعتباطية، بل هي مرتبطة بوظيفتها ارتباطاً تبعية. بمعنى أن الخصائص التركيبية والدلالية والصوتية للغات الطبيعية يمكن تفسيرها وفهمها بشكل أفضل عند ربطها بالوظائف التي تؤديها في عملية التواصل.

3. اللغة والاستعمال: يرتبط نسق اللغة (system) بنسق الاستعمال (usage) ارتباطاً وثيقاً. فنسق الاستعمال، أي مجموع القواعد والأعراف التي تحكم التعامل داخل مجتمع ما، يحدد في حالات كثيرة قواعد النسق اللغوي (المعجمية، الدلالية، الصرفية، التركيبية). هذا المبدأ يفتح الباب أمام الدراسات اللسانية الاجتماعية والتداولية لتكون جزءاً لا يتجزأ من التحليل النحوي.

4. أولوية الوظائف على البنية: على عكس النحو التوليدي الذي يشتق الوظائف (مثل الفاعل والمفعول) من مواقع بنوية محددة في الشجرة التركيبية، يرى النحو الوظيفي أن الوظائف (الدلالية، التركيبية، التداولية) هي مفاهيم أولية لا تشتق من البنية، بل تُسند إلى مكونات الجملة لتحديد دورها في التعبير عن المعنى وتحقيق التواصل (بن عياش، 2023).

5. الكفايات المعيارية: يهدف البحث اللساني في إطار النحو الوظيفي إلى بناء نموذج يتسم بثلاث كفايات أساسية:

◦ الكفاية التداولية: (Pragmatic Adequacy) قدرة النموذج على تفسير

كيف تُستخدم العبارات اللغوية في سياقات تواصلية لتحقيق أهداف معينة.

◦ الكفاية النفسية: (Psychological Adequacy) قدرة النموذج على أن

يكون متوافقاً مع الآليات النفسية التي يستخدمها الإنسان في إنتاج اللغة وفهمها واكتسابها.

◦ الكفاية النمطية: (Typological Adequacy) قدرة النموذج على وصف

وتفسير الظواهر النحوية في أي لغة طبيعية، والتعامل مع التنوع اللغوي بين اللغات المختلفة.

4- الوظائف الخطابية والتركيبية والدلالية: مفاهيم أولية

يميز النحو الوظيفي بين ثلاثة مستويات رئيسية من الوظائف التي تسند إلى مكونات الجملة، وهي تشكل حجر الزاوية في نموذج التحليلي. هذه الوظائف ليست مجرد تسميات، بل هي أدوات تفسيرية أساسية لفهم كيفية بناء المعنى في اللغة.

أ. الوظائف الدلالية: (Semantic Functions)



تحدد الوظائف الدلالية الدور الذي يلعبه المشاركون (الحدود) في الحالة أو الفعل الذي يلعب عنه المحمول (الفعل أو الصفة). إنها تصف "من فعل ماذا بمن" و "كيف" و "أين" و "متى".
من أمثلة هذه الوظائف:

- **المنفذ: (Agent)** الكائن الذي يبادر بالفعل عن قصد. (مثال: الولد كسر الزجاج).
- **المتقبل: (Patient/Goal)** الكائن الذي يتأثر بالفعل أو يتغير حاله. (مثال: كسر الولد الزجاج).
- **المستقبل: (Recipient)** الكائن الذي يستقبل شيئاً. (مثال: أعطيت زيدا كتاباً).
- **الأداة: (Instrument)** الشيء الذي يستخدم لتنفيذ الفعل. (مثال: قطعت الخبز بالسكين).
- **المكان: (Location)** الإطار المكاني للحدث. (مثال: جلس تحت الشجرة).
- **الزمان: (Time)** الإطار الزمني للحدث. (مثال: وصل يوم الجمعة).

هذه الوظائف تعتبر عالمية إلى حد كبير، على الرغم من أن طريقة التعبير عنها تختلف من لغة إلى أخرى (بن عياش، 2023).

ب. الوظائف التركيبية: (Syntactic Functions)

تحدد الوظائف التركيبية منظور أو وجهة النظر التي يتم من خلالها تقديم الحالة أو الفعل. إنها تحدد "زاوية الكاميرا" التي يختارها المتكلم لعرض الحدث. في نموذج النحو الوظيفي، الوظيفتان التركيبيتان الأساسيتان هما:

- **الفاعل: (Subject)** يمثل المنظور الأساسي الذي يُقدم من خلاله الحدث. غالباً ما يكون هو المكون الذي يتطابق مع الفعل في العدد والجنس.
 - **المفعول: (Object)** يمثل منظوراً ثانوياً في عرض الحدث.
- على سبيل المثال، في الجملتين "الولد أكل التفاحة" و "التفاحة أكلت من قبل الولد"، الحدث هو نفسه (فعل الأكل)، والوظائف الدلالية ثابتة (الولد هو المنفذ، والتفاحة هي المتقبل). لكن المنظور التركيبي يختلف: في الجملة الأولى، الفاعل هو "الولد"، وفي الثانية، الفاعل هو "التفاحة". هذا الاختيار يؤثر على بنية الجملة بأكملها (لطرش، 2020).

ج. الوظائف التداولية: (Pragmatic Functions)

تتعلق الوظائف التداولية ببنية الخطاب والمعلومات. إنها تحدد حالة المعلومات التي تحملها المكونات المختلفة للجملة في سياق التواصل، وعلاقتها بالمعرفة المشتركة بين المتكلم والمخاطب. هذه الوظائف تجيب عن أسئلة مثل: "ما هو موضوع الحديث؟" و "ما هي المعلومة الجديدة أو المهمة؟". أهم هذه الوظائف هي:

- **المحور (Topic):** يشير إلى الكيان الذي تدور حوله الجملة. غالبًا ما يكون معلومة قديمة أو معروفة في السياق. (مثال: "أما زيدٌ، فقد سافر أمس").
- **البؤرة (Focus):** تمثل المعلومة الأهم أو الجديدة التي يريد المتكلم إيصالها. هي الجزء الذي يجيب عن سؤال ضمني. (مثال: "من سافر؟" - "سافر زيد").
- **المبتدأ (Theme):** مكون يوضع في بداية الجملة لتحديد مجال أو إطار الخطاب.
- **الذيل (Tail):** مكون يضاف في نهاية الجملة للتوضيح أو التصحيح.

هذه الوظائف الثلاث (الدلالية، التركيبية، التداولية) تتفاعل معًا لتشكيل البنية النهائية للجملة، حيث يرى النحو الوظيفي أن الجملة تُبنى عبر طبقات متتالية، تبدأ من المستوى الدلالي وصولاً إلى المستوى التداولي والتركيبى (بن عياش، 2023).

5- البنية العامة للنحو الوظيفي

يقترح النحو الوظيفي نموذجًا لتوليد الجملة يمر عبر مراحل متتالية، حيث يتم بناء بنى مجردة تتزايد في تعقيدها حتى تصل إلى الشكل المنطوق النهائي. يمكن تمييز ثلاث بنيات أساسية في هذا النموذج، تتولد عن طريق تطبيق مجموعات مختلفة من القواعد (دعير ومحمد، 2022؛ لعناني، 2017).

أ. البنية الحملية: (Predicative Structure)

هي البنية الأساسية والأكثر تجريداً، وتمثل المستوى الدلالي للجملة. تتكون هذه البنية من "محمول (Predicate)" و "عدد من الحدود (Arguments)" التي ترتبط به.

- **المحمول:** هو نواة البنية الحملية، ويصف حالة أو حدثاً أو علاقة. يمكن أن يكون فعلاً (مثل: كتب)، أو صفة (مثل: طويل)، أو اسماً (مثل: مهندس). كل محمول يتم تخزينه في "المعجم" مع إطار يحدد عدد ونوع الحدود التي يتطلبها ووظائفها الدلالية.

• **الحدود:** هي الأدوار أو المشاركون في الحدث الذي يصفه المحمول. (مثل: محمول مثل "أعطى" يتطلب ثلاثة حدود: منفذ، متقبل، ومستقبل).

تتولد البنية الحملية من خلال "قواعد الأساس" التي تختار محمولاً من المعجم وتدرج الحدود المناسبة له. هذه البنية تمثل "القضية" (Proposition) "أو المحتوى الدلالي الخام للجملة، قبل إسناد أي وظائف تركيبية أو تداولية (لعناني، 2017).

ب. البنية الوظيفية: (Functional Structure)

بعد تكوين البنية الحملية التي توظف القضايا الدلالية، تنتزع هذه البنية لتصبح بنية وظيفية. يتم ذلك من خلال تطبيق "قواعد إسناد الوظائف" التركيبية والتداولية. في هذه المرحلة، يتم تحديد منظور عرض الحدث (عبر إسناد وظيفتي الفاعل والمفعول) وتحديد الحالة المعلوماتية للمكونات (عبر إسناد وظائف المحور والبؤرة وغيرها) (لعناني، 2017). على سبيل المثال، البنية الحملية للفعل "أكل" مع المنفذ "الولد" والمتقبل "التفاحة" يمكن أن تتحول إلى بنيتين وظيفيتين مختلفتين:

1. إسناد وظيفة الفاعل (Subject) للمنفذ "الولد"، مما يؤدي إلى جملة مبنية للمعلوم: "أكل الولد التفاحة".

2. إسناد وظيفة الفاعل (Subject) للمتقبل "التفاحة"، مما يؤدي إلى جملة مبنية للمجهول: "أكلت التفاحة".

وبالمثل، يمكن إسناد وظيفة البؤرة (Focus) لأي مكون للإشارة إلى أنه المعلومة الجديدة أو المهمة. البنية الوظيفية هي بنية تحتية مجردة تحمل القضايا الدلالية والتركيبية والتداولية للجملة (بن عياش، 2023).

ج. البنية المكونية: (Constituent Structure)

هي المرحلة الأخيرة قبل التعبير الصوتي، وفيها يتم تحويل البنية الوظيفية المجردة إلى بنية خطية ملموسة. يتم ذلك من خلال تطبيق "قواعد التعبير" (Expression Rules)، والتي تشمل:

• **قواعد صياغة الحدود والمحمول:** تحديد الشكل الصرفي للكلمات (مثل تصريف الفعل، وعلامات الإعراب للاسم).

• **قواعد الموقعة (Placement Rules):** تحديد الترتيب الخطي للمكونات في الجملة مثال: (VSO, SVO). هذا الترتيب يتأثر بالوظائف التداولية (فالمحور يميل للظهور في بداية الجملة).

• **قواعد إسناد النبر والتنغيم:** تحديد الخصائص النغمية للجملة، والتي تلعب دوراً هاماً في التعبير عن الوظائف التداولية كالבורرة. وبهذا، نرى أن النحو الوظيفي يقدم نموذجاً متكاملًا يوضح كيف تتشابك البنى الثلاث (الحملية، الوظيفية، المكونية) لتضمن نضج الجملة من فكرة مجردة إلى ملفوظ لغوي متكامل يحقق التواصل في سياق معين (لعناني، 2017).

6- أنواع الوظائف في نموذج النحو الوظيفي

كما ذكرنا، تُعد الوظائف مفاهيم أولية في النحو الوظيفي، وهي تنقسم إلى ثلاثة أنواع رئيسية تتفاعل فيما بينها لتحديد بنية الجملة ومعناها واستعمالها. يقدم أحمد المتوكل تفصيلاً لهذه الوظائف وتطبيقاتها على اللغة العربية (بن عياش، 2023؛ مرباح، 2020).

أ. الوظائف التركيبية (الفاعل والمفعول)

تختص الوظائف التركيبية بتنظيم الجملة من منظور المتكلم. في نموذج النحو الوظيفي، تقتصر هذه الوظائف على اثنتين فقط: الفاعل والمفعول.

- **الفاعل (Subject):** هو الحد الذي يُتخذ كمنظور أساسي لتقديم محتوى الجملة. لا يرتبط الفاعل بوظيفة دلالية معينة؛ فقد يكون منفذاً (الولد ضرب الكرة)، أو متقبلاً (الكرة ضُربت)، أو مستقبلاً (تلقى زيد رسالة). يتميز الفاعل في كثير من اللغات بخصائص نحوية معينة، مثل كونه محور المطابقة مع الفعل، وحمله لعلامة إعرابية محددة (حالة الرفع في العربية)، وقدرته على التحكم في الضمائر الانعكاسية.
- **المفعول (Object):** هو الحد الذي يُتخذ كمنظور ثانوي لتقديم محتوى الجملة. وكالفاعل، لا يرتبط المفعول بوظيفة دلالية ثابتة.

يرى المتوكل أن إسناد هاتين الوظيفتين ليس إجبارياً في كل اللغات أو في كل الجمل. فهناك لغات لا تميز بين الفاعل والمفعول، وهناك جمل (مثل الجمل المبنية للمجهول في بعض

. قواعد الموقعة: (Placement Rules) تحديد الترتيب الخطي للمكونات في الجملة
مثال: (VSO, SVO). هذا الترتيب يتأثر بالوظائف التداولية (فالمحور يميل للظهور
في بداية الجملة).

. قواعد إسناد النبر والتنغيم: تحديد الخصائص النغمية للجملة، والتي تلعب دورًا هامًا
في التعبير عن الوظائف التداولية كالבורرة.
وبهذا، نرى أن النحو الوظيفي يقدم نموذجًا متكاملًا يوضح كيف تتشابك البنى الثلاث (الحملية،
الوظيفية، المكونية) لتضمن نضج الجملة من فكرة مجردة إلى ملفوظ لغوي متكامل يحقق
التواصل في سياق معين (لعناني، 2017).

6- أنواع الوظائف في نموذج النحو الوظيفي

كما ذكرنا، تُعد الوظائف مفاهيم أولية في النحو الوظيفي، وهي تنقسم إلى ثلاثة أنواع رئيسية
تتفاعل فيما بينها لتحديد بنية الجملة ومعناها واستعمالها. يقدم أحمد المتوكل تفصيلاً لهذه
الوظائف وتطبيقاتها على اللغة العربية (بن عياش، 2023؛ مرباح، 2020).

أ. الوظائف التركيبية (الفاعل والمفعول)

تختص الوظائف التركيبية بتنظيم الجملة من منظور المتكلم. في نموذج النحو الوظيفي، تقتصر
هذه الوظائف على اثنتين فقط: الفاعل والمفعول.

. **الفاعل: (Subject)** هو الحد الذي يُتخذ كمنظور أساسي لتقديم محتوى الجملة. لا
يرتبط الفاعل بوظيفة دلالية معينة؛ فقد يكون منفذاً (الولدُ ضرب الكرة)، أو متقبلاً
(الكرةُ ضُربت)، أو مستقبلاً (تلقى زيدٌ رسالة). يتميز الفاعل في كثير من اللغات
بخصائص نحوية معينة، مثل كونه محور المطابقة مع الفعل، وحمله لعلامة إعرابية
محددة (حالة الرفع في العربية)، وقدرته على التحكم في الضمانات الانعكاسية.

. **المفعول: (Object)** هو الحد الذي يُتخذ كمنظور ثانوي لتقديم محتوى الجملة.
وكالفاعل، لا يرتبط المفعول بوظيفة دلالية ثابتة.

يرى المتوكل أن إسناد هاتين الوظيفتين ليس إجباريًا في كل اللغات أو في كل الجمل. فهناك
لغات لا تميز بين الفاعل والمفعول، وهناك جمل (مثل الجمل المبنية للمجهول في بعض

اللغات) قد تفتقر إلى مفعول. هذا الطرح يختلف جذرياً عن النحو التقليدي الذي يرى أن لكل فعل فاعلاً (مرباح، 2022).

إن إسناد الوظائف التركيبية هو اختيار من المتكلم للتأكيد على أهمية مشارك معين في الحدث من خلال جعله نقطة الانطلاق النحوية للجملة.

ب. الوظائف الدلالية

تصف الوظائف الدلالية (أو الأدوار الموضوعية Thematic Roles) العلاقة الدلالية بين المحمول وحدوده، أي أنها تحدد دور كل مشارك في الموقف الذي يعبر عنه المحمول. هذه الوظائف مستقلة عن التعبير النحوي. على سبيل المثال، في جملة "فتح الحارس الباب بالمفتاح"، "الحارس" هو المنفذ، و"الباب" هو المتقبل، و"المفتاح" هو الأداة.

يقترح النحو الوظيفي سلمية (hierarchy) للوظائف الدلالية، تحدد أي المشاركين هو الأنسب ليتم اختياره كفاعل. السلمية المقترحة غالباً ما تكون على النحو التالي (بن عياش، 2023):

Agent > Patient > Recipient > Beneficiary > Instrument > Location > Time

هذه السلمية تعني أن المنفذ (Agent) هو المرشح الأول لوظيفة الفاعل، وإذا لم يوجد منفذ، يكون المتقبل (Patient) هو المرشح التالي، وهكذا. هذا المبدأ يساعد في تفسير سبب كون جمل مثل "الولد كسر الزجاج" أكثر شيوعاً وطبيعية من "الزجاج كسر بواسطة الولد". لقد حاول أحمد المتوكل إيجاد مقابلات لهذه الوظائف الدلالية في النحو العربي التقليدي، حيث يمكن ربط وظيفة "المنفذ" بمفهوم "الفاعل في المعنى"، و"المتقبل" بمفهوم "المفعول به"، وهكذا، مع الإقرار بأن المفاهيم الوظيفية أكثر دقة وتنظيماً (مرباح، 2020).

ج. الوظائف التداولية (وتشمل السياقية والخطابية)

تتعلق الوظائف التداولية بتنظيم الجملة كجزء من خطاب أو حوار. إنها تربط الجملة بسياقها التواصلية، وتحدد كيفية توزيع المعلومات بين القديم والجديد، والمهم والأقل أهمية. يميز النحو الوظيفي، خاصة في نموذج المتوكل، بين وظائف تداولية داخلية (داخل حدود القضية) ووظائف خارجية (خارج حدود القضية) (بن عياش، 2023).

الوظائف التداولية الداخلية:

. **المحور (Topic):** هو المكون الذي يتعلق به القول، أي "ما نتحدث عنه". غالبًا ما يكون معلومة معطاة أو معروفة للمخاطب. في العربية، يمكن التعبير عنه من خلال التقديم، مثل "الكتاب، قرأته".

. **البؤرة (Focus):** هي المكون الذي يحمل أبرز معلومة في الجملة، أو المعلومة التي يرى المتكلم أنها الأكثر أهمية أو غير متوقعة للمخاطب. هي الجزء الذي يقع عليه الاستفهام في سؤال ضمني. يمكن تحقيق البؤرة عبر النبر القوي، أو التقديم (مثل "زيدًا رأيت"), أو استخدام أدوات القصر ("إنما").

الوظائف التداولية الخارجية:

هي مكونات تقع خارج البنية الحملية الأساسية للجملة، وتؤدي وظائف خطابية متنوعة. أضاف المتوكل بعض هذه الوظائف لتناسب خصائص اللغة العربية (بن عياش، 2023؛ دغير ومحمد، 2022):

. **المبتدأ (Theme):** يحدد إطارًا أو مجالًا للخطاب الذي يليه. مثال: "بالنسبة لامتحان، فهو سهل".

. **المنادى (Vocative):** وظيفته جذب انتباه المخاطب. اقترحه المتوكل لوصف البنى الندائية في العربية. مثال: "يا زيد، أقبل".

. **الذيل (Tail):** مكون يلحق بنهاية الجملة للتوضيح أو التعليق أو التصحيح. مثال: "لقد وصل، صديقك القديم".

هذه الوظائف التداولية هي التي تفسر مرونة الرتبة في لغات مثل العربية، حيث لا يكون ترتيب الكلمات محكومًا بقواعد تركيبية صارمة فحسب، بل يتأثر بشكل كبير بالأهداف التواصلية للمتكلم في سياق معين.

خلاصة

في ختام هذه المحاضرة، يمكن القول إن نظرية النحو الوظيفي، التي أرسى دعائمها سيمون ديك وطورها أحمد المتوكل لتطبيقها على اللغة العربية، تمثل نقلة نوعية في الفكر اللساني الحديث. فبدلاً من النظر إلى اللغة كبنية شكلية مجردة، تعيدها النظرية إلى وظيفتها الجوهرية

كأداة للتواصل الإنساني. من خلال مبادئها المنهجية التي تربط البنية بالوظيفة وتؤكد على أهمية السياق والاستعمال، تقدم النظرية إطاراً تحليلياً متكاملًا يجمع بين المستويات الدلالية والتركيبية والتداولية.

إن نموذج توليد الجملة عبر البنى الثلاث (الحملية، الوظيفية، المكونية)، والتمييز الدقيق بين أنواع الوظائف، يمنح هذه النظرية قدرة تفسيرية عالية لظواهر لغوية معقدة مثل مرونة الرتبة، والبناء للمجهول، والظواهر التداولية المختلفة. لقد أثبتت جهود المتوكل أن هذا النموذج قابل للتطبيق بفعالية على اللغة العربية، بل وقادر على تقديم رؤى جديدة تتجاوز التحليل النحوي التقليدي، مما يفتح آفاقاً جديدة في دراسة اللغة العربية وتعليمها.

أسئلة حول المحاضرة للمناقشة مع الطلبة

1. ما هو الفرق الجوهرى بين "الكفاية اللغوية" عند تشومسكي و"الكفاية التواصلية" في النحو الوظيفي؟ وكيف يؤثر هذا الفرق على موضوع وهدف الدراسة اللسانية؟
2. اشرح بمثال من عندك كيف يمكن لنفس البنية الحملية (نفس الحدث والمشاركين) أن تولد جملتين مختلفتين بنيوياً بسبب اختلاف في إسناد الوظائف التركيبية (الفاعل).
3. "مرونة الرتبة في اللغة العربية يمكن تفسيرها بشكل أفضل من خلال الوظائف التداولية". ناقش هذه المقولة، مع تقديم أمثلة توضح دور "المحور" و"البؤرة" في تحديد ترتيب مكونات الجملة.
4. كيف عالج أحمد المتوكل خصوصيات اللغة العربية ضمن إطار نظرية النحو الوظيفي التي نشأت في سياق لغات أوروبية؟ اذكر بعض الإضافات أو التعديلات التي اقترحها.
5. قارن بين مفهوم "الفاعل" في النحو الوظيفي ومفهوم "الفاعل" في النحو العربي التقليدي. ما هي أوجه التشابه والاختلاف؟

قائمة المراجع

- بن عياش، ن. (2023). محاضرات في النحو الوظيفي. المدرسة العليا للأساتذة - مسعود زغار - سطيف.
- دعير، ز. ع.، ومحمد، م. ع. (2022). تداولية الجملة في النحو الوظيفي. مجلة أبحاث ميسان، 18 (35)، 497-512.
- لعناني، ع. (2017). تشابك البنية الحملية والوظيفية والمكونية في النحو الوظيفي. الكلم، 2 (1)، 182-211.
- لطرش، ب. (2020). المدارس اللسانية. جامعة زيان عاشور بالجلفة.
- مرباح، ش. (2020). النظرية النحوية الوظيفية من سيمون ديك إلى أحمد المتوكل. مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية، 31 (20)، 70-82.

المحاضرة الثالثة عشرة: مدرسة أكسفورد

تمهيد

شهد النصف الثاني من القرن العشرين تحولاً جذرياً في مسار الفلسفة واللسانيات، حيث برزت اتجاهات جديدة تتجاوز التحليل الصوري والبنوي للغة، لتركز على استعمالها الفعلي في سياقات التواصل الإنساني. في قلب هذا التحول، تبلورت اللسانيات التداولية كحقل معرفي غزير يستمد أصوله من روافد فلسفية ولغوية متعددة (ميزاب، 2019). وتعد مدرسة أكسفورد، بفلسفتها القائمة على "اللغة العادية"، أحد أهم المنابع التي غذت الفكر التداولي، مقدمة للعالم نظرية "أفعال الكلام" التي أحدثت ثورة في فهمنا لكيفية إنجاز الأفعال من خلال الكلمات. تهدف هذه المحاضرة إلى استكشاف هذا الحقل المهم، بدءاً من نشأة مدرسة أكسفورد كرد فعل على الوضعية المنطقية، مروراً بتتبع جذور التداولية ومصادرها المعرفية، وصولاً إلى تحليل التيارات المؤسسة لها، مع التركيز بشكل خاص على نظرية أفعال الكلام عند رانديها جون أوستين وتلميذه جون سيرل. سنسعى من خلال هذا العرض إلى بيان كيف انتقلت الفلسفة من البحث في "صدق" القضايا إلى البحث في "وظيفتها" و"قوتها الإنجازية" في الخطاب (راقع، 2025).

1- نشأة مدرسة أكسفورد

نشأت مدرسة أكسفورد، التي تُعرف أيضاً بفلسفة اللغة العادية (Ordinary Language Philosophy)، في منتصف القرن العشرين، كرد فعل مباشر ونقدي للتيار الفلسفي السائد آنذاك، وهو الوضعية المنطقية. لقد اعتقد الوضعيون المنطقيون، مثل رودولف كارناب، أن اللغة الطبيعية مليئة بالغموض والالتباس، مما يؤدي إلى مشاكل فلسفية زائفة. وعليه، كانت مهمتهم بناء لغة "مثالية" أو "اصطناعية" دقيقة ومنطقية، يمكن من خلالها تجنب عيوب اللغة العادية (راقع، 2025). كان معيار المعنى لديهم هو "مبدأ التحقق"، الذي يقضي بأن الجملة لا تكون ذات معنى إلا إذا كانت قابلة للتحقق تجريبياً أو كانت تحليلية (صادقة بحكم تعريفها). أما ما عدا ذلك، كقضايا الميتافيزيقا والأخلاق، فهي مجرد "لغو فارغ".

في مقابل هذا التوجه، رأى فلاسفة أكسفورد، وعلى رأسهم جون أوستين، وجيلبرت رايل، وبيتر ستروسون، متأثرين بأفكار لودفيغ فتنغنشتاين في مرحلته المتأخرة، أن المشكلات الفلسفية لا تنبع من قصور اللغة الطبيعية، بل من سوء فهم الفلاسفة لكيفية عمل هذه اللغة. لقد جادلوا بأن اللغة العادية، بكل ثرائها وتنوع استخداماتها، هي أداة مثالية تمامًا لأغراضها، ولا تحتاج إلى إصلاح أو استبدال بلغة صورية (راقع، 2025). كانت وظيفة الفلسفة، من منظورهم، ليست بناء نظريات كبرى، بل "توضيح" منطق اللغة وفحص استخداماتها الدقيقة في سياقاتها المختلفة، وبهذا "تذوب" المشكلات الفلسفية بدلًا من أن "تُحل".

2- نشأة التداولية

لم تظهر التداولية (Pragmatics) من فراغ، بل كانت نتيجة لتطورات فكرية ومعرفية تراكمية شهدتها مجالات الفلسفة والمنطق واللسانيات. يمكن إرجاع البذور الأولى للفكر التداولي إلى أعمال الفيلسوف الأمريكي تشارلز ساندروز بيرس (Charles Sanders Peirce) في أواخر القرن التاسع عشر، والذي يُعد مؤسس "البراغماتية" كفلسفة تربط معنى المفهوم بآثاره العملية. ضمن مشروعه السيميائي (علم العلامات)، وضع بيرس أساسًا لدراسة علاقة العلامات بمؤوليتها، وهو ما سيُعرف لاحقًا بالتداولية (عبد الرضا وسماري، 2023). لكن الاستخدام الحديث لمصطلح "التداولية" يعود بشكل مباشر إلى الفيلسوف تشارلز موريس (Charles Morris) في ثلاثينيات القرن العشرين. في كتابه "أسس نظرية العلامات" (1938)، اقترح موريس تقسيمًا ثلاثيًا للسيميائية إلى ثلاثة فروع:

1. التركيب: (Syntax) ويدرس العلاقات الشكلية بين العلامات وبعضها البعض.
2. الدلالة: (Semantics) وتدرس علاقة العلامات بما تشير إليه من أشياء أو مفاهيم في العالم.

3. التداولية: (Pragmatics) وتدرس علاقة العلامات بمستخدميها (المتكلمين والمستمعين)، أي أنها تهتم بدراسة "استعمال" اللغة في سياقات تواصلية محددة.
- بهذا التعريف، فتح موريس الباب واسعًا أمام حقل جديد يركز على الأبعاد التي تتجاوز البنية والمعنى الحرفي، مثل القصد، والسياق، والاستلزام، والأفعال المنجزة بالكلام، وهي كلها مفاهيم مركزية في الدرس التداولي المعاصر (عبد الرضا وسماري، 2023).

3- مصادر اللسانيات التداولية

تتميز اللسانيات التداولية بكونها حقلاً معرفياً غزيراً يستمد مادته العلمية وتصوراتها من مصادر وحقول معرفية شتى، مما يعكس طبيعتها متعددة التخصصات. ويمكن إجمال أهم هذه المصادر فيما يلي (ميزاب، 2019):

- . الفلسفة التحليلية وفلسفة اللغة العادية: كما ذكرنا، تُعد فلسفة مدرسة أكسفورد، بأعلامها مثل أوستين وسيرل ورايل، بالإضافة إلى فتغنشتاين المتأخر، المصدر الأساسي والمباشر للتداولية. فقد قدمت هذه المدرسة مفاهيم جوهرية كنظرية أفعال الكلام، التي تعتبر نواة البحث التداولي (مطاوي وبن زحاف، 2023).
- . فلسفة تشارلز موريس وبيرس: حيث قدمت الإطار السيميائي العام الذي وضع التداولية كفرع مستقل يعنى بعلاقة العلامة بمستخدميها.
- . فلسفة بول غرايس (Paul Grice) الذي طور "مبدأ التعاون" و"المقتضيات الحوارية" (Conversational Implicatures)، وهي نظرية تشرح كيف يفهم الناس أكثر مما يُقال حرفياً، مما شكل إسهاماً محورياً في فهم المعنى غير الصريح.
- . علم النفس المعرفي: الذي يساهم في فهم العمليات الذهنية التي يقوم بها المتخاطبون لإنتاج وتأويل الكلام، مثل فهم القصد والاستدلال.
- . علم الاجتماع وعلم الإنسان (الأنثروبولوجيا): حيث تساهم هذه الحقول في فهم السياقات الاجتماعية والثقافية التي تؤثر في استعمال اللغة، مثل مفاهيم الأدب، والمكانة الاجتماعية، والأعراف التواصلية.

هذا التنوع في المصادر جعل من التداولية فضاءً مفتوحاً على معظم المعارف الإنسانية، وأداة فعالة لتحليل الخطاب في مختلف تجلياته (عبد الرضا وسماري، 2023).

4- تيارات التداولية

على الرغم من تعدد المصادر وتنوع المناهج، يمكن تمييز تيارين رئيسيين شكّلا حجر الزاوية في تأسيس التداولية كعلم مستقل له مفاهيمه وأدواته التحليلية. هذان التياران هما تيار تشارلز موريس، وتيار فلاسفة أكسفورد.



4-1- تيار تشارلز موريس

يمثل تيار تشارلز موريس (1901-1979) المرحلة التأسيسية الأولى التي أعطت للتداولية اسمها ومكانتها ضمن إطار أشمل هو علم العلامات (السيمياء). انطلق موريس من أعمال بيرس، وسعى إلى بناء نظرية علمية للسلوك الرمزي. كما أسلفنا، كان إسهامه الأبرز هو تمييزه بين ثلاثة أبعاد لدراسة العلامة (ميزاب، 2019):

- **البعد التركيبي: (Syntactics)** يهتم بالعلاقات الداخلية بين العلامات، أي قواعد النحو والصرف التي تحكم تركيب الجمل.
- **البعد الدلالي: (Semantics)** يهتم بعلاقة العلامات بالأشياء التي تدل عليها، أي دراسة المعنى بمعزل عن السياق.
- **البعد التداولي: (Pragmatics)** يهتم بالعلاقة بين العلامات ومستخدميها، أي دراسة اللغة في سياق الاستعمال، مع الأخذ في الاعتبار المتكلم، والمخاطب، والقصد، والظروف المحيطة بالخطاب.

بالرغم من أن تعريف موريس كان عامًا، إلا أنه كان ثوريًا في حينه، حيث لفت الانتباه إلى أن دراسة اللغة لا يمكن أن تكتمل بالنظر إلى بنيتها ومعناها المعجمي فقط. لقد بشر بمقاربة جديدة تعنى بالوظيفة السياقية للغة، ومهد الطريق أمام الدراسات اللاحقة التي ستملأ هذا الإطار النظري بمفاهيم تحليلية أكثر تفصيلاً وعمقاً، وعلى رأسها نظرية أفعال الكلام (عبد الرضا وسماري، 2023).

4-2- تيار فلاسفة أكسفورد

إذا كان موريس قد وضع الإطار العام، فإن فلاسفة مدرسة أكسفورد هم الذين أعطوا للتداولية محتواها الفلسفي والتحليلي الملموس. انطلق هذا التيار من نقد جذري للوضعية المنطقية التي حصرت اللغة في وظيفة واحدة هي الوصف، وحكمت على العبارات بمعيار الصدق والكذب فقط (راقع، 2025). رأى فلاسفة اللغة العادية أن هذا التحليل لا ينصف ثراء اللغة الطبيعية، فالكثير من أقوالنا لا تهدف إلى وصف العالم، بل إلى إنجاز أفعال فيه.

كان جون لانجشو أوستين (J. L. Austin) هو الرائد في هذا المجال. لاحظ أوستين أن هناك فئة كبيرة من الجمل، مثل "أعدك بالحضور غدًا"، أو "أعتذر عن تأخري"، أو "أعلنكما زوجًا

وزوجة"، لا يمكن وصفها بأنها صادقة أو كاذبة. إن التلفظ بهذه الجمل في الظروف المناسبة هو بحد ذاته إنجاز لفعل الوعد أو الاعتذار أو الزواج. أطلق أوستين على هذه الجمل اسم "الأدائية" أو "الإنجازية" (Performatives)، في مقابل الجمل "الخبرية" أو "التقريرية" (Constatives) التي تصف الواقع (مطاوي وبن زحاف، 2023). هذا التمييز، الذي سيظهره أوستين لاحقاً إلى نظرية أكثر شمولاً، شكل النواة الصلبة لـ "نظرية أفعال الكلام" والمنطلق الحقيقي للتداولية اللسانية الحديثة.

5- نظرية أفعال الكلام

تُعد نظرية أفعال الكلام (Speech Act Theory) من أهم المفاهيم المركزية في الدرس التداولي الغربي، بل هي الحقل المؤسس له. تقوم هذه النظرية على فكرة بسيطة وعميقة في آن واحد: حين نتكلم، نحن لا نصف العالم فقط، بل نقوم بأفعال. فاللغة ليست مجرد أداة للتعبير عن الأفكار، بل هي أداة للفعل والتأثير في الواقع وتغييره (مطاوي وبن زحاف، 2023).

5-1- مفهوم العمل الكلامي

العمل الكلامي أو الفعل الكلامي (Speech Act) هو كل ملفوظ لغوي يُنظر إليه ليس بوصفه بنية لغوية مجردة، بل بوصفه فعلاً اجتماعياً أو مؤسساتياً ينجزه المتكلم بمجرد التلفظ به في سياق معين. إنه "فعل" يتم إنجازه "بالكلمات". ومن أمثله الشائعة: الأمر، والنهي، والوعد، والتهديد، والسؤال، والتعيين، والإقالة، والتعزية، والتهنئة (مطاوي وبن زحاف، 2023). فقولك "أعدك" هو فعل الوعد، وقول القاضي "حكمت المحكمة" هو فعل الحكم. وبالتالي، فإن وحدة التحليل الأساسية في التداولية ليست الكلمة أو الجملة (كوحدة نحوية)، بل "الفعل الكلامي" (كوحدة تواصلية). هذا التحول في وحدة التحليل يعني الانتقال من دراسة "ماذا تعني الجمل؟" إلى دراسة "ماذا يفعل الناس بالجمل؟" (الشرقي، 2025).

5-2- نظرية أفعال الكلام عند أوستين

يعتبر الفيلسوف البريطاني جون أوستين (1911-1960) الأب المؤسس لنظرية أفعال الكلام. وقد عرض أفكاره بشكل متكامل في سلسلة محاضرات ألقاها في جامعة هارفارد عام 1955، ونُشرت بعد وفاته في كتاب بعنوان "كيف ننجز الأشياء بالكلمات" (How to Do Things with Words) عام 1962.

انطلق أوستين من تمييز مبدئي بين نوعين من الملفوظات (مطاوي وبن زحاف، 2023):

• **الملفوظات الخبرية: (Constative Utterances)** وهي الجمل التي تصف حالة

معينة من الأشياء، وبالتالي يمكن الحكم عليها بالصدق (True) أو الكذب (False). مثال: "القطة على السجادة."

• **الملفوظات الأدائية: (Performative Utterances)** وهي الجمل التي لا تصف

فعلاً بل تنجزه. هذه الجمل لا تكون صادقة أو كاذبة، بل تكون "ناجحة"

(Happy/Felicitous) أو "فاشلة" (Unhappy/Infelicitous) "اعتماداً على تحقق

شروط معينة (تسمى شروط النجاح أو الصحة). مثال: "أراهن بعشرة دولارات أن

المطر سيهطل غداً."

لكن أوستين سرعان ما أدرك أن هذا التمييز غير دقيق، فكل الملفوظات، بما فيها الخبرية، هي

في حقيقتها أفعال. فالقول "القطة على السجادة" هو أيضاً فعل "إخبار" أو "تأكيد". بناءً على

ذلك، تخلى عن هذا التقسيم الثنائي لصالح نظرية عامة وشاملة للأفعال الكلامية، حيث رأى

أن أي ملفوظ لغوي يتضمن ثلاثة أفعال مترامنة (الشرقي، 2025).

الأفعال الثلاثة المترامنة عند أوستين

في نظريته العامة، يرى أوستين أننا عند التلفظ بأي جملة، فإننا نؤدي ثلاثة أنواع من الأفعال

في وقت واحد (مطاوي وبن زحاف، 2023؛ الشرقي، 2025):

1. **الفعل القولي: (Locutionary Act)** وهو فعل التلفظ بكلمات وجمل ذات معنى

محدد وفقاً لقواعد اللغة النحوية والدلالية. إنه ببساطة "فعل قول شيء ما". على سبيل

المثال، عند قول "الجو بارد هنا"، فإن الفعل القولي هو مجرد نطق هذه الكلمات بمعناها

الحرفي.

2. **الفعل الإنجازي: (Illocutionary Act)** وهو الفعل الذي يتم إنجازه "في" القول.

إنه القصد أو الغرض التواصل للمتكلم. في مثال "الجو بارد هنا"، قد يكون الفعل

الإنجازي هو "الإخبار" بحالة الطقس، أو "الطلب" من المخاطب إغلاق النافذة، أو

"الشكوى". هذا الفعل هو جوهر نظرية أوستين، ويمثل "قوة" (Force) "الملفوظ".

3. **الفعل التأثيري: (Perlocutionary Act)** وهو التأثير الفعلي الذي يحدثه الملفوظ في المستمع (سواء كان هذا التأثير مقصودًا أم لا). إنه الفعل الذي يتم إنجازه "بواسطة" القول. في مثالنا، قد يكون الفعل التأثيري هو إقناع المستمع بإغلاق النافذة، أو إزعاجه، أو جعله يشعر بالبرد. الفعل التأثيري يقع خارج سيطرة المتكلم المباشرة. ركز أوستين بشكل أساسي على "الفعل الإنجازي" باعتباره الوحدة المركزية للتواصل، فهو يمثل ما "يفعله" المتكلم بقوله.

3-5- تصنيفات أوستين للأفعال الكلامية

في نهاية كتابه، حاول أوستين تقديم تصنيف أولي للأفعال الإنجازية بناءً على الأفعال الأدائية الصريحة (مثل: أعد، أمر، أصف). ورغم أنه اعتبره تصنيفًا مؤقتًا، إلا أنه كان له تأثير كبير. قسم أوستين الأفعال إلى خمس فئات رئيسية (الشرقي، 2025):

الفئة	الوصف	أمثلة
الحكميات (Verdictives)	أفعال تصدر حكمًا أو تقديرًا أو تقييمًا (غالبًا ما تصدر عن جهة ذات سلطة كقاضٍ أو حكم رياضي).	يُبرئ، يُدين، يُقدر، يُصنف، يحلّل.
التنفيذيات (Exercitives)	أفعال تمثل ممارسة للسلطة أو النفوذ أو الحق.	يأمر، يعين، يُقبل، يوصي، يحذر، يصوت.
الالتزاميات (Commissives)	أفعال تلزم المتكلم بالقيام بفعل ما في المستقبل.	يعد، يتعهد، يضمن، يعرض، يقسم.
السلوكيات (Behabitives)	أفعال تعبر عن مواقف وردود أفعال تجاه سلوك الآخرين أو أقدارهم (تتعلق بالسلوك الاجتماعي).	يعتذر، يشكر، يهنئ، يعزّي، يرحب، ينتقد.
العرضيات (Expositives)	أفعال توضح كيفية استخدام أقوالنا في سياق الحوار أو النقاش (تتعلق بعرض الحجج وتوضيح المواقف).	يؤكد، ينكر، يقرّ، يفترض، يجادل، يستنتج.

4-5- نظرية أفعال الكلام عند سيرل

قام جون سيرل (John Searle)، تلميذ أوستين، بتطوير نظرية أفعال الكلام بشكل منهجي ومنظم، لتصبح أكثر دقة وصرامة. انطلق سيرل من حيث انتهى أوستين، لكنه أجرى تعديلات جوهرية على الإطار النظري والتصنيفات. يمكن تلخيص إسهاماته الرئيسية في كتابه الشهير "أفعال الكلام: بحث في فلسفة اللغة" (1969) وفي مقالات لاحقة.

أولاً، شدد سيرل على أن "الفعل الإنجازي" هو الوحدة الأساسية للتواصل اللغوي، وأن إنتاجه محكوم بقواعد وشروط محددة. ثانياً، قام بتعديل التقسيم الثلاثي لأوستين، حيث دمج الفعل القولي (Locutionary) والفعل الإنجازي (Illocutionary) إلى حد ما، معتبراً أن فعل القول لا يمكن أن يتحقق دون قوة إنجازية. ورأى أن أي فعل كلامي يتكون من عنصرين (مطاوي وبن زحاف، 2023):

• **محتوى القضية: (Propositional Content)** وهو المحتوى الخبري أو المرجعي للكلام (ما يدور حوله الحديث).

• **القوة الإنجازية: (Illocutionary Force)** وهي الطريقة التي يجب أن يفهم بها محتوى القضية (كطلب، أو وعد، أو سؤال، إلخ).

على سبيل المثال، الجمل "هل سيغادر جون؟"، "جون سيغادر"، "جون، غادر!"، "ليت جون يغادر" تشترك جميعها في نفس محتوى القضية (مغادرة جون)، لكنها تختلف في قوتها الإنجازية (سؤال، تأكيد، أمر، تمن).

نقد وتطوير تصنيف أوستين

انتقد سيرل تصنيف أوستين معتبراً أنه يركز على الأفعال اللغوية الإنجليزية أكثر من اللازم، ويخلط بين أسس التصنيف المختلفة. وبدلاً من ذلك، اقترح تصنيفاً جديداً يعتمد على معايير أكثر وضوحاً ومنهجية، أهمها "الغرض الإنجازي (Illocutionary Point) "و"اتجاه المطابقة (Direction of Fit) " (الشرقي، 2025).

الغرض الإنجازي: هو الهدف أو القصد الأساسي من وراء الفعل الإنجازي. فالغرض من الأمر هو محاولة جعل المستمع يفعل شيئاً، بينما الغرض من الوصف هو تمثيل حالة معينة من العالم.

اتجاه المطابقة: يشير إلى العلاقة بين الكلمات والعالم. وله اتجاهان رئيسيان:

• **كلمات-إلى-عالم: (Words-to-World)** حيث يكون الهدف هو جعل الكلمات تتطابق مع العالم (كما في الأوصاف والتأكيدات). إذا لم يكن هناك تطابق، فإن الكلمات هي التي يجب أن تتغير.

• عالم-إلى-كلمات (World-to-Words) حيث يكون الهدف هو جعل العالم يتطابق مع الكلمات (كما في الأوامر والوعود). إذا لم يكن هناك تطابق، فإن العالم هو الذي يجب أن يتغير.

بناءً على هذه المعايير وغيرها، قدم سيرل تصنيفه الخماسي الشهير للأفعال الإنجازية، والذي يعتبر اليوم التصنيف الأكثر اعتمادًا في الدراسات التداولية (الشرقي، 2025).

تصنيف سيرل الخماسي للأفعال الإنجازية

استنادًا إلى معياري الغرض الإنجازي واتجاه المطابقة، بالإضافة إلى معايير أخرى مثل الحالة النفسية المعبر عنها، اقترح سيرل خمس فئات أساسية للأفعال الكلامية (مطاوي وبن زحاف، 2023؛ الشرقي، 2025):

الفئة	الغرض الإنجازي	اتجاه المطابقة	الحالة النفسية	أمثلة
التقريريات / الإخباريات (Assertives/Representatives)	إلزام المتكلم بصدق القضية المعبر عنها.	كلمات-إلى-عالم	الاعتقاد (Belief)	يؤكد، يصف، يخبر، يستنتج، يقر.
التوجيهيات (Directives)	محاولة جعل المستمع يقوم بفعل ما.	عالم-إلى-كلمات	الرغبة (Want)	يأمر، يطلب، يسأل، ينهي، ينصح.
الالتزاميات (Commissives)	إلزام المتكلم بالقيام بفعل مستقبلي.	عالم-إلى-كلمات	النية (Intention)	يعد، يعرض، يضمن، يتعهد، يقسم.
التعبيريات (Expressives)	التعبير عن حالة نفسية تجاه حالة أشياء محددة في القضية.	لا يوجد (الكلمات تفترض حقيقة العالم)	متغيرة (فرح، حزن، أسف)	يشكر، يعتذر، يهنئ، يعزي، يأسف.
الإعلانات (Declarations)	إحداث تغيير في الواقع بمجرد التلفظ بالقول بنجاح.	كلا الاتجاهين (يغير العالم ليتطابق الكلمات)	لا يوجد	يعلن الحرب، يعمد، يعين، يستقيل، يطلق.

يتميز هذا التصنيف بكونه أكثر تماسكًا من الناحية المنطقية من تصنيف أوستين، حيث يعتمد على أسس واضحة للتمييز بين الفئات. كما أضاف سيرل مفهوم "الأفعال الكلامية غير المباشرة" (Indirect Speech Acts)، حيث تكون القوة الإنجازية الحرفية مختلفة عن القوة

الإنجازية المقصودة. فجملة "هل يمكنك تمرير الملح؟" هي حرفيًا سؤال (توجيهي)، لكنها تُستخدم بشكل غير مباشر كطلب (توجيهي أيضًا ولكن بصيغة مختلفة وأكثر أدبًا).

خلاصة

تمثل مدرسة أكسفورد ونظريتها المركزية، "أفعال الكلام"، منعطفًا حاسمًا في تاريخ الفكر اللغوي والفلسفي. فمن خلال تحويل بؤرة الاهتمام من البنية المجردة للغة ومعناها الصوري إلى استعمالها الفعلي في سياقات التواصل، فتحت هذه المدرسة الباب أمام نشأة وتطور اللسانيات التداولية. لقد انطلقت من نقد جذري للوضعية المنطقية التي اخترلت اللغة في وظيفة الوصف ومعيار الصدق والكذب، لتكشف عن ثراء اللغة العادية وقدرتها على إنجاز أفعال لا حصر لها (راقع، 2025).

بدأ جون أوستين هذا المسار بتمييزه بين الملفوظات الخبرية والأدائية، ثم طور هذا التمييز إلى نظرية عامة ثلاثية الأبعاد (قولي، إنجازي، تأثيري)، مع التركيز على الفعل الإنجازي باعتباره نواة التواصل. ثم جاء تلميذه جون سيرل ليصقل هذه النظرية ويضعها في إطار منهجي أكثر دقة، مقدمًا تصنيفًا خماسيًا للأفعال الإنجازية أصبح هو المعتمد في الدراسات الحديثة، ومطورًا مفاهيم أساسية كالغرض الإنجازي واتجاه المطابقة والأفعال غير المباشرة (مطاوي وبن زحاف، 2023).

في المحصلة، لم تكن نظرية أفعال الكلام مجرد نظرية لسانية، بل كانت ثورة فلسفية أعادت الاعتبار للغة كفعل اجتماعي، وأسست لمنهج تحليلي جديد لا يزال تأثيره ممتدًا في حقول معرفية متنوعة، من اللسانيات وتحليل الخطاب إلى القانون والذكاء الاصطناعي والنقد الأدبي.

أسئلة حول المحاضرة لمناقشتها مع الطلبة

1. ما هو الفرق الجوهرى بين منهج الوضعية المنطقية في تحليل اللغة ومنهج مدرسة أكسفورد؟ وكيف أدى هذا الاختلاف إلى نشأة التداولية؟
2. اشرح بمثال من اختيارك الأفعال الثلاثة المتزامنة عند أوستين (القولي، الإنجازي، التأثيري). أي هذه الأفعال تعتبره الأهم في عملية التواصل؟ ولماذا؟

3. قارن بين تصنيف أوستين وتصنيف سيرل للأفعال الكلامية. ما هي المعايير التي اعتمدها سيرل لتطوير تصنيفه، وهل تعتبره أكثر دقة من تصنيف أوستين؟ علل إجابتك.

4. حلل الجملة التالية "النافذة مفتوحة" في ثلاثة سياقات مختلفة، مبيّناً كيف يتغير الفعل الإنجازي (القوة الإنجازية) في كل سياق رغم ثبات الفعل القولّي.

5. إلى أي مدى يمكن تطبيق نظرية أفعال الكلام على تحليل نصوص من التراث العربي (مثل الخطب السياسية، أو نصوص الفقه، أو الشعر)؟ أعط أمثلة.

قائمة المراجع

- راقع، أحمد. (2025). مدرسة أكسفورد قراءة نقدية في التحليل اللغوي عند الوضعيّة المنطقيّة (أنموذجاً). مجلة المقدمة للدراسات الإنسانية والاجتماعية، 10(1)، 283-295.
- الشرقي، سارة منصور. (2025). الأفعال الكلامية بين أوستن وسيرل دراسة نظرية مقارنة. مجلة كلية اللغة العربية بآبائي البارود، 38(2)، 1801-1820.
- عبد الرضا، اسراء معطي، وسماري، جواد كاظم. (2023). التداولية: النشأة والمفهوم المعاصر. مجلة آداب الكوفة، 55(2)، 375-355.
- مطاوي، نجاة، وبن زحاف، يوسف. (2023). نظرية الأفعال الكلامية بين جون أوستين وجون سيرل وأهميتها في اللسانيات التداولية. المدونة، 10(1)، 221-213.
- ميزاب، اسمهان. (2019). الأصول الإستمولوجية للسانيات التداولية. القارئ للدراسات الأدبية والنقدية واللغوية، 2(2)، 19-7.

المحاضرة الرابعة عشرة: المدرسة الخليلية

تمهيد

تُمثّل "المدرسة الخليلية الحديثة" أو "النظرية الخليلية" مشروعًا فكريًا ولغويًا ضخماً، أسّس له العالم اللساني الجزائري عبد الرحمن الحاج صالح (1927-2017). تهدف هذه المدرسة إلى إعادة قراءة التراث النحوي العربي، وتحديدًا فكر الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت. 175هـ) وتلميذه سيبويه (ت. 180هـ)، بعيون لسانية معاصرة، والكشف عن الأصالة والعمق العلمي والمنطقي-الرياضي الذي قامت عليه أسس النحو العربي الأول. إنها ليست مجرد عودة إلى الماضي، بل هي محاولة جادة لبعث هذا التراث وربطه بأحدث ما توصلت إليه اللسانيات الحديثة، وتقديمه كنموذج نظري متكامل وقادر على تحليل اللغة العربية تحليلًا دقيقًا وموضوعيًا (بوشموخة، 2021).

يُطلق على هذا التوجه أحيانًا "المدرسة" وأحيانًا أخرى "النظرية". ويشير الدكتور لطرش بولرباح إلى أن مصطلح "النظرية" يكون أكثر ملاءمة عندما يغلب على المقاربة اللسانية "التصدّر المنهجي، والمثابرة الإجرائية"، وهو ما ينطبق تمامًا على المشروع الخليلي الذي يتميز بصرامته المنهجية وأدواته الإجرائية الدقيقة (لطرش، 2020، ص. 4). وعلى هذا الأساس، فإن النظرية الخليلية الحديثة تعتبر امتدادًا مباشرًا لنظرية النحو العربي الأصلية، وتأويلًا علميًا لها، حيث يرى الحاج صالح وأتباعه أن "النحو العربي الذي وضعه النحاة الأولون يبنى في جوهره على تصور منطقي رياضي" (الحاج صالح، كما ورد في بوقرة وجغبوبة، 2019، ص. 168).

لقد جاءت هذه النظرية كرد فعل على حالة الانبهار بالنماذج اللسانية الغربية التي هيمنت على الدرس اللغوي العربي الحديث، والتي أدت في كثير من الأحيان إلى تطبيق مناهج ومفاهيم غريبة عن بنية اللغة العربية وروحها. لذا، شدد الحاج صالح على ضرورة "أن يعتمد في تحرير الأنماط النحوية، وخاصة التركيبية منها، على نحو الخليل وسيبويه والنحاة الأولين، وتراجع كل المفاهيم والتحديدات التي جاءت في كتب المتأخرين في ضوء المدرسة الخليلية

التي هي أقرب إلى ما تتطلبه العلوم اللسانية الحديثة "(الحاج صالح، كما ورد في موقع Aleph، 2024).

تهدف هذه المحاضرة إلى استعراض الأسس والمفاهيم الجوهرية التي قامت عليها النظرية الخليلية الحديثة، وبيان كيف أعاد الحاج صالح صياغة هذه المفاهيم التراثية الأصيلة في قالب علمي دقيق، مما يجعلها قادرة على مواكبة الفكر اللساني المعاصر وتقديم إسهام عربي أصيل في هذا المجال.

المفاهيم الأساسية للنظرية الخليلية

اعتمد الخليل بن أحمد وتلاميذه، وعلى رأسهم سيبويه، على مجموعة من المفاهيم والمبادئ الإجرائية التي شكلت الهيكل الأساسي للنحو العربي. وقد عمل الحاج صالح على إبراز هذه المفاهيم وتوضيح طبيعتها العلمية الدقيقة، مؤكداً أنها لا تقل أهمية، بل وتفوق في بعض جوانبها، المفاهيم التي جاءت بها اللسانيات الغربية. ومن أبرز هذه المفاهيم:

أ- الاستقامة

يعد مفهوم "الاستقامة" من المفاهيم المحورية التي تبرز مدى دقة التحليل اللغوي عند النحاة الأوائل. فالاستقامة لا تقتصر على الصحة النحوية (Grammaticality) بمعناها الضيق، بل تتجاوزها لتشمل جوانب دلالية ومنطقية واستعمالية. وقد ميّز سيبويه في "الكتاب" بين أنواع مختلفة من الكلام بناءً على هذا المفهوم، وذلك في قوله الشهير في باب "الاستقامة من الكلام والإحالة:"

"فمنه مستقيم حسن، ومحال، ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح، وما هو محال كذب. فأما المستقيم الحسن فقولك: أتيتك أمس، وسأيتك غداً. وأما المحال فأن تنقض أول كلامك بآخره فتقول: أتيتك غداً، وسأيتك أمس. وأما المستقيم الكذب فقولك: حملتُ الجبل، وشربتُ ماء البحر. وأما المستقيم القبيح فأن تضع اللفظ في غير موضعه نحو قولك: قد زيداً رأيتُ، وكى زيداً يأتيتك. وأما المحال الكذب فأن تقول: سوف أشرب ماء البحر أمس." (سيبويه، الكتاب، ج1، ص. 25-26، كما ورد في غرزة، د.ت، ص. 1).

من خلال هذا النص، يتضح أن سيبويه يحلل الكلام وفق محورين متقاطعين: محور القياس (النظام اللغوي الداخلي) ومحور الاستعمال (الواقع الفعلي للكلام)، بالإضافة إلى محور



الصدق والكذب المنطقي. ويمكن صياغة هذه الأنواع كما أوضحها الحاج صالح على النحو التالي (غرزة، دت.):

. **المستقيم الحسن:** هو السليم في القياس (النحو) والاستعمال (مقبول لدى الناطقين) والمعنى (منطقي).

. **المستقيم القبيح:** هو السليم في القياس، لكنه غير سليم في الاستعمال، أي أنه يخالف المؤلف في كلام العرب، مثل تقديم المفعول به على فعله المتصرف دون دواع بلاغية ("قد زيداً رأيت").

. **المستقيم الكذب:** هو السليم قياساً واستعمالاً، ولكنه غير سليم من حيث مطابقته للواقع الخارجي ("حملتُ الجبل"). وهذا يوضح الفصل المبكر بين سلامة البنية اللغوية وصحة محتواها الخارجي.

. **المحال:** هو الذي يناقض فيه المتكلم نفسه، حيث يكون التركيب سليماً من حيث القياس والاستعمال، لكنه يحمل تناقضاً منطقياً داخلياً ("أتيتك غداً").

هذا التصنيف الدقيق يسبق بأكثر من ألف عام تمييز تشومسكي الشهير بين الجمل النحوية وغير النحوية، ويضيف إليه أبعاداً دلالية وتداولية، مما يدل على وعي عميق بطبيعة اللغة ووظائفها (بوزياني، 2017).

ب- الأصل والفرع

تُعتبر ثنائية "الأصل والفرع" حجر الزاوية في الفكر النحوي العربي القديم، والعمود الفقري الذي بُني عليه القياس والتعليل والتصريف. يرى الحاج صالح أن "النظام اللغوي كله عند الخليل وسيبويه أصول وفروع" (الحاج صالح، كما ورد في academia-arabia.com ، 2021). هذا المبدأ ليس مجرد تصنيف، بل هو أداة إجرائية ومنهجية لتحليل بنى اللغة على جميع المستويات: الصوتية، والصرفية، والتركيبية، والدلالية.

يُعرّف "الأصل" بأنه "ما يُبنى عليه ولم يُبنَ على غيره" (موقع Aleph ، 2024). إنه الحالة الأولى، أو الصورة الصفرية للوحدة اللغوية، التي تكون غير موسومة بعلامة ظاهرة، وتتميز بالاستقلال والاكتفاء الذاتي. أما "الفرع"، فهو ما يُبنى على الأصل ويتفرع عنه، ويتميز بوجود زيادة أو تحويل أو علامة لفظية تميزه عن أصله. على سبيل المثال:

• في الصرف: الفعل الماضي (فعل) أصل، والمضارع (يُفعل) والأمر (افعل) فروع عنه.

• في التركيب: الجملة الفعلية التي يتقدم فيها الفعل هي الأصل، بينما تقديم الفاعل أو المفعول هو فرع. الرفع هو علامة الإعراب الأصلية للفاعل، والنصب والجر علامتان فرعيتان.

• في الإعراب: الإعراب بالحركات (الضمة، الفتحة، الكسرة) هو الأصل، والإعراب بالحروف (في الأسماء الخمسة والمثنى والجمع) هو الفرع.

إن العلاقة بين الأصل والفرع هي علاقة تحويل وتوليد. فالانتقال من الأصل إلى الفرع يتم عبر عمليات قياسية مضبوطة (كالزيادة، أو الحذف، أو القلب). كما أن فهم بنية الفرع لا يتم إلا برده إلى أصله. هذه العملية التي يسميها النحاة "رد الشيء إلى أصله" هي جوهر ما يعرف بالتحليل التوليدي في اللسانيات الحديثة (موقع Aleph ، 2024).

من أهم خصائص هذا المبدأ هو ارتباطه بمفهوم "العلامة العدمية". فالأصل غالباً ما تكون علامته "عدمية" (أي غياب العلامة اللفظية)، بينما الفرع تكون له علامة "لفظية" ظاهرة. فالفعل المضارع المجزوم بالسكون (لم يكتب) هو الأصل في حالة الجزم، أما جزمه بحذف النون (لم يكتبوا) أو حذف حرف العلة (لم يسع) فهو فرع، وعلامته ظاهرة (زاوي، 2006). هذا التصور يمنح "العدم" أو "الغياب" قيمة وظيفية في النظام اللغوي، وهو تصور رياضي ومنطقي متقدم جداً.

ج- الانفراد

ينطلق التحليل اللغوي في المدرسة الخليلية من مبدأ إجرائي في غاية الأهمية، وهو ما يسميه سيبويه "ما ينفصل ويبتدأ". وقد أعاد الحاج صالح صياغة هذا المفهوم تحت مصطلح "الانفراد" أو "الانفصال والابتداء" (بوزياني، 2017). والمقصود به هو تحديد الوحدة اللغوية الدنيا القابلة لأن تُنطق بمفردها وتؤدي معنى، وتكون منطلقاً للتصرف والتحليل.

هذه الوحدة ليست بالضرورة "الكلمة" كما تُفهم في اللسانيات الحديثة (word)، بل هي أقرب إلى "اللفظة" التي قد تكون كلمة مفردة مجردة من أي لواصق، مثل "كتاب"، أو كلمة مع

لواصقتها التي تحدد معناها أو تخصصها، مثل "الكتاب"، "بالكتاب"، "كتاب زيد" (الحاج صالح، كما ورد في موقع Aleph ، 2024).

إن نقطة الانطلاق في التحليل هي قطعة من الكلام يمكن أن تشكل جوابًا تامًا ومفيدًا، مثل "كتاب" في جواب "ما في يدك؟". هذه القطعة "لا يمكن أن تتحل إلى ما هو بمنزلتها"، أي لا يمكن تقسيمها إلى وحدات أصغر منها قادرة على الانفصال والابتداء بنفسها. لكنها في المقابل، يمكن أن "تتصرف بزيادة كل الزوائد الممكنة يمينًا وشمالًا" (الحاج صالح، كما ورد في موقع Aleph ، 2024).

هذا المبدأ يمثل منهجًا وصفيًا وتجريبيًا موضوعيًا، حيث يبدأ المحلل اللغوي من الوحدة الملموسة في الخطاب، ثم يقوم باستكشاف إمكانياتها التركيبية والتصريفية عبر عمليات الإضافة والحذف والاستبدال. فهو يحدد "حد اللفظة" من خلال قدرتها على الانفراد في النطق، وقابليتها لدخول العوامل والزوائد عليها. هذا المنهج يختلف جذريًا عن المناهج التي تنطلق من مفاهيم مجردة مسبقة، ويؤسس لتحليل بنيوي تفريعي ينطلق من الواقع اللغوي الملحوظ. لقد مكن هذا المبدأ النحاة الأوائل من تحديد الوحدات الأساسية للتحليل (الاسم، الفعل، الحرف) بدقة متناهية، وتصنيفها بناءً على خصائصها التوزيعية، أي ما يقبل أن يدخل عليها من عوامل وعلامات وما لا يقبل.

الموضع والعلامة العدمية

يُعد مفهوما "الموضع" و"العلامة العدمية" من أعمق المفاهيم التي كشف عنها الحاج صالح في بنية النظرية الخليلية، وهما مرتبطان أشد الارتباط بمبدأ الأصل والفرع.

مفهوم الموضع (Position)

"الموضع" في الفكر الخليلي ليس مجرد مكان فيزيائي في سلسلة الكلام، بل هو مفهوم مجرد، أشبه بالخانة أو الموقع الوظيفي (Slot) الذي يمكن أن تشغله وحدة لغوية معينة أو يُترك فارغًا. إنه "المكان الذي تظهر فيه بعض العناصر اللغوية" (بغداد، 2019). ففي جملة مثل "جاء زيد"، هناك موضع للفاعل يشغله "زيد". وفي جملة "زيد جاء"، فإن موضع الفاعل قبل الفعل يعتبر فارغًا، ويُقدّر فيه ضمير مستتر.

هذا المفهوم يسمح بتفسير العديد من الظواهر النحوية مثل التقدير، والحذف، والاستتار. فخلو الموضوع من الكلمة لا يعني أنه غير موجود، بل يعني أن له وجوداً تقديرياً. وهذا التصور يمنح البنية اللغوية عمقاً تجريدياً، حيث يتم التمييز بين البنية السطحية المنطوقة والبنية العميقة المقدرة.

مفهوم العلامة العدمية (Zero Mark)

العلامة العدمية هي مفهوم منطقي-رياضي بالغ الأهمية، ويعني أن "غياب" العلامة اللفظية هو في حد ذاته علامة لها دلالة ووظيفة في النظام اللغوي. إنها "علامة" من خلال العدم، وتقابل العلامة الظاهرة المادية (اللفظية). وقد أشار الحاج صالح إلى أن هذا المفهوم موجود بكثرة في "الكتاب" لسيبويه (بوزياني، 2017).

ترتبط العلامة العدمية ارتباطاً وثيقاً بـ "الأصل". فالأصل، كما ذكرنا، هو الحالة غير الموسومة، وبالتالي فعلامته عدمية. أما الفرع، فهو الحالة الموسومة بعلامة لفظية ظاهرة.

• مثال: الاسم المفرد "كتاب" هو الأصل، وعلامة إفراده عدمية (لا توجد لاحقة تدل على الإفراد). أما المثنى "كتابان" والجمع "كتب"، فهما فرعان، وعلامة التثنية (ان) وعلامة الجمع (تغير البنية) هما علامتان لفظيتان.

• مثال آخر: الفعل المضارع المرفوع "يكتب" هو الأصل، وعلامة رفعه عدمية (لأنه لم يسبقه ناصب أو جازم). أما المنصوب "أن يكتب" والمجزوم "لم يكتب"، فهما فرعان، وعلامتهما (الفتحة والسكون) لفظية ناتجة عن دخول العامل.

إن إدراك النحاة الأوائل للقيمة الوظيفية للصفر (العدم) يمثل سبقاً علمياً هائلاً، ويقرب منهجهم من المنطق الرياضي الحديث الذي يعطي للصفر قيمة محورية. فـ "خلو الموضوع من الكلمة شبيه بالخلو من العلامة، أو ترك العلامة" (مزارى، 2019، ص. 45). وهذا يثبت أن التحليل الخليلي لم يكن مجرد وصف سطحي، بل كان غوصاً في البنى التجريدية العميقة للغة.

مفهوم العامل (The Operator)

شكلت "نظرية العامل" العمود الفقري للنحو العربي التقليدي، وقد تعرضت في العصر الحديث للكثير من النقد، بل والدعوات إلى إلغائها. غير أن عبد الرحمن الحاج صالح يرى أن مفهوم العامل عند الخليل وسيبويه يختلف جوهرياً عن الفهم التبسيطي الذي شاع لدى المتأخرين.

فالعامل في النظرية الخيلية الحديثة ليس مجرد "كلمة" تؤثر فيما بعدها، بل هو مفهوم أكثر تجريدًا وعمقًا (مزاري، 2019).

في تعريفه التقليدي، العامل هو "ما أوجب كون آخر الكلمة على وجه مخصوص". أي هو المحدث للإعراب. لكن الحاج صالح، من خلال قراءته العميقة لكتاب سيوييه، يرى أن العامل هو علاقة بنوية، أو "هيمنة" (domination) "بين مكونات التركيب. فالعامل هو "المهيمن" والمعمول هو "المهيمن عليه". هذه الهيمنة هي التي تحدد الوظيفة النحوية والعلامة الإعرابية. يميز الحاج صالح بين أنواع مختلفة من العوامل بناءً على تحليل فكر الخليل:

1. **العامل اللفظي:** وهو العامل الظاهر في الكلام، مثل الفعل الذي يرفع الفاعل وينصب المفعول، أو حرف الجر الذي يجر الاسم بعده. وهذا هو النوع الأكثر شيوعًا في كتب النحو.

2. **العامل المعنوي:** وهو عامل غير ملفوظ، يُفهم من سياق التركيب. وأشهر مثال عليه هو "الابتداء" الذي يعتبر عاملاً معنويًا يرفع المبتدأ. وكذلك "التجرد" من الناصب والجازم الذي يعتبر عاملاً معنويًا يرفع الفعل المضارع.

3. **العامل الأصلي (العامل الصفري):** وهو مفهوم دقيق يرتبط بالأصل والعلامة العدمية. فالحالة الأصلية للكلمة (مثل رفع المبتدأ أو الفاعل) لا تحتاج إلى عامل لفظي ظاهر ليبررها، فعاملها هو "الأصالة" نفسها، أي كونها في موضعها الأصلي. وهذا يقابل مفهوم "العلامة العدمية".

بهذه القراءة، يعيد الحاج صالح الاعتبار لنظرية العامل، وينقلها من كونها مجرد تعليل سطحي إلى كونها نظرية بنوية تفسر العلاقات الوظيفية داخل الجملة. فالعامل ليس سببًا خارجيًا، بل هو تجلٍ للعلاقات الداخلية التي تحكم النظام اللغوي. ويرى مزاري (2019) أن الحاج صالح أعاد قراءة نظرية العامل "قراءة رياضية"، حيث أصبحت العلاقات بين العوامل والمعمولات شبيهة بالعلاقات بين الدوال والمتغيرات في الرياضيات.

إن هذا الفهم العميق للعامل يجعله متوافقًا مع المفاهيم البنوية الحديثة مثل "التحكم" (Government) في نظرية تشومسكي، بل ويتفوق عليها في بعض الجوانب من حيث قدرته على تفسير الظواهر المتعلقة بالأصالة والعدم.

الحركة (Movement/Vowel)

يُعد مفهوم "الحركة" من المفاهيم التي أسيء فهمها كثيرًا في الدراسات اللغوية الحديثة التي تناولت النحو العربي، حيث غالبًا ما تُترجم بشكل تبسيطي إلى "vowel" يوضح الحاج صالح أن مفهوم الحركة عند الخليل أعمق وأشمل من ذلك بكثير، فهو ليس مجرد صائت، بل هو وحدة صوتية-زمنية أساسية (غرزة، دب.).

فالحركة عند القدماء هي "أقل الأصوات في تأليفها"، وهي أساس النطق. يقول الرماني في شرحه لكتاب سيبويه: "الحركة تمكن من إخراج الحرف، والسكون لا يمكن من ذلك" (2012، almajma3.blogspot.com). فالحرف الساكن لا يمكن النطق به إلا مسبقًا بحرف متحرك. من هذا المنطلق، يتكون المقطع الصوتي العربي من عنصرين أساسيين:

• الحركة: وهي الوحدة الزمنية الأصغر.

• الحرف الساكن: وهو أطول زمنيًا من الحركة.

وبناءً على ذلك، فإن "المتحرك" (أي الصامت متبوعًا بحركة، مثل "ب") هو أطول من الساكن، لأنه يتألف من "حرف وحركة". هذا التحليل الدقيق للبنية المقطعية والصوتية للغة العربية هو أساس علم العروض الذي ابتكره الخليل بن أحمد، والذي يعتمد على تحويل الكلام إلى سلسلة من المتحركات والسواكن.

إذًا، الحركة ليست مجرد علامة إعراب، بل هي مكون أساسي في بنية الكلمة الصوتية والصرفية. إنها تمثل الحد الأدنى من الطاقة النطقية اللازمة لتحقيق الصوامت، وتشكل معها الوحدات الإيقاعية الأساسية للكلام. هذا الفهم العميق للحركة كمفهوم صوتي (phonetic) ووظيفي (phonological) هو ما مكن الخليل من بناء نظريته العروضية المتكاملة، وهو ما تغفل عنه الكثير من الدراسات الحديثة.

المثال (The Schema/Generative Pattern)

يُعتبر مفهوم "المثال" من أكثر المفاهيم أصالة وإبداعًا في النظرية الخليلية، وهو مفهوم عربي خالص لا مقابل دقيق له في اللسانيات الغربية، على حد تعبير الحاج صالح. وقد وصفه بأنه "حد إجرائي (processive definition) و"مفهوم منطقي رياضي محض" (الحاج صالح، كما ورد في موقع Aleph، 2024).

"المثال" ليس مجرد "وزن صرفي" أو "قالب"، بل هو "مخطط توليدي" (schème (générateur). يصف البنية الكاملة لوحدة لغوية (كلمة، لفظة، أو تركيب)، متضمناً جميع العمليات المحتملة التي يمكن أن تطرأ عليها. إنه يحدد:

1. المكونات الأصلية والزائدة: يحدد الحروف الأصلية للكلمة (الجذر) والزوائد التي يمكن أن تلحق بها.

2. المواضع: يحدد المواقع التي تشغلها هذه المكونات.

3. الحركات والسكنات: يحدد البنية الصوتية والمقطعية للكلمة.

4. العمليات الممكنة: يحدد إمكانية دخول العوامل، والعلامات الإعرابية، وغيرها من التحويلات.

على سبيل المثال، "مثال" كلمة مثل "ضَرَبَ" لا يصف فقط وزن "فَعَلَ"، بل يصف بنية مجردة تتضمن الجذر (ض ر ب)، وإمكانية تصريفها إلى مضارع (يَضْرِبُ)، وأمر (اضْرِبْ)، واسم فاعل (ضَارِبٌ)، واسم مفعول (مَضْرُوبٌ)، وإمكانية اتصال الضمائر بها، وتغيير حركتها الإعرابية بتغيير موقعها في الجملة. إنه بمثابة برنامج رياضي يولد جميع الأشكال الممكنة للكلمة في الخطاب (الحاج صالح، كما ورد في موقع Aleph ، 2024).

ينطبق مفهوم المثال على كل مستويات التحليل اللغوي. ففي مستوى التركيب، يمكن الحديث عن "مثال الجملة الفعلية" الذي يحدد المواضع الممكنة (فعل، فاعل، مفعول به...) والعلاقات بينها، والتحويلات التي يمكن أن تطرأ عليها (كالتقديم والتأخير، والحذف، والتقدير).

هذا المفهوم الإجرائي والتوليدي يجعل من النحو الخليلي نحوًا ديناميكيًا، لا يكتفي بوصف البنى القائمة، بل يصف الآليات التي تتولد بها هذه البنى. وهو بذلك يقترب كثيرًا من أهداف النحو التوليدي التحويلي، ولكنه ينطلق من أسس ومنطلقات عربية أصيلة ومختلفة.

الباب (The Chapter/Category)

في الفكر الخليلي، لا يُقصد بـ "الباب" مجرد قسم من أقسام الكتاب لغرض الترتيب التعليمي، بل هو مصطلح علمي دقيق له دلالة منطقية-رياضية. فالباب هو "مجموعة من العناصر اللغوية التي تشترك في بنية واحدة أو تخضع لنفس المثال" (الخالدي، 2020). إنه يمثل فئة

(class) في المنطق الرياضي، تضم كل العناصر التي تحقق خاصية معينة أو تنتمي إلى نفس "الحد" أو "النظير".

على سبيل المثال، "باب الفاعل" لا يضم فقط تعريف الفاعل وأحكامه، بل يضم كل التراكيب الممكنة التي يظهر فيها الفاعل (سواء كان اسمًا ظاهرًا، أو ضميرًا متصلًا، أو ضميرًا مستترًا)، وكل التحويلات التي تطرأ عليه. وبالمثل، "باب إن وأخواتها" هو مجموعة كل الجمل التي تخضع لـ "مثال" واحد، وهو دخول هذه الحروف الناسخة على الجملة الاسمية وتأثيرها فيها.

لقد أوضح الحاج صالح أن استخدام سيبويه لمصطلح "الباب" كان استخدامًا علميًا دقيقًا لتصنيف الظواهر اللغوية بناءً على بنياتها التجريدية المشتركة. فالباب هو تطبيق عملي لمفهوم "المثال". فإذا كان "المثال" هو القاعدة التوليدية المجردة، فإن "الباب" هو المجموعة الفعلية للعناصر التي تتولد عن هذا المثال (الخالدي، 2020).

هذا الفهم لمفهوم "الباب" يكشف عن الطبيعة المنهجية الصارمة التي بُني عليها "الكتاب"، ويؤكد أنه ليس مجرد تجميع للمسائل النحوية، بل هو بناء نظري متكامل قائم على أسس منطقية ورياضية، حيث تمثل الأبواب فئات تصنيفية مبنية على علاقات التشابه والاختلاف (النظائر) بين البنى اللغوية.

خلاصة

تمثل المدرسة الخليلية الحديثة، كما صاغها وقدمها عبد الرحمن الحاج صالح، مشروعًا نهضويًا في مجال الدراسات اللغوية العربية. إنها ليست مجرد تكرار للتراث، بل هي قراءة علمية عميقة تكشف عن الأسس المنطقية والرياضية التي قام عليها صرح النحو العربي في عصوره الأولى على يد الخليل وسيبويه. لقد أثبت الحاج صالح أن المفاهيم التي استخدمها هؤلاء العلماء الأوائل، مثل الاستقامة، والأصل والفرع، والموضع، والعلامة العدمية، والعامل، والمثال، والباب، لم تكن مفاهيم تعليمية بسيطة، بل كانت أدوات تحليلية وإجرائية بالغة الدقة والتجريد.

لقد سعت هذه النظرية إلى تحقيق هدفين رئيسيين: أولاً، إثبات أصالة الفكر النحوي العربي وقدرته على بناء نظرية لسانية متكاملة ومستقلة عن التأثيرات الأجنبية. وثانياً، تقديم هذا الفكر

في ثوب معاصر، وربطه بأحدث ما توصلت إليه اللسانيات الحديثة، وبيان أوجه التشابه والسبق في كثير من الأحيان.

من خلال إعادة الاعتبار لهذه المفاهيم، تقدم النظرية الخيلية بديلاً منهجياً لدراسة اللغة العربية، بديلاً ينبع من صميم طبيعة هذه اللغة وبنيتها، ويتجنب الإسقاطات المنهجية الغربية التي قد لا تتلاءم معها. إنها دعوة إلى العودة إلى الأصول، ليس للتفوق فيها، بل للانطلاق منها نحو بناء درس لساني عربي حديث وأصيل في أن واحد.

أسئلة حول المحاضرة لمناقشتها مع الطلبة

1. قارن بين مفهوم "الاستقامة" عند سيوييه ومفهوم "الصحة النحوية" (Grammaticality) عند تشومسكي. ما هي أوجه الاتفاق والاختلاف؟
2. كيف يمكن لمبدأ "الأصل والفرع" أن يساعد في تفسير ظواهر التطور اللغوي في اللغة العربية؟ أعط أمثلة.
3. يرى الحاج صالح أن مفهوم "المثال" هو مفهوم عربي خالص. هل تجد له مقابلاً في النظريات اللسانية الغربية (مثل البنية العميقة، أو القوالب الصرفية)؟ وضح إجابتك.
4. تعرضت "نظرية العامل" لنقد شديد في الدراسات الحديثة. كيف استطاعت قراءة الحاج صالح أن تعيد الاعتبار لهذه النظرية وتكشف عن عمقها البنوي؟
5. ما هي القيمة الإجرائية لمفهوم "العلامة العدمية" في التحليل اللغوي؟ وكيف يبرهن على الطبيعة الرياضية للفكر الخيلي؟
6. إلى أي مدى يمكن توظيف مفاهيم النظرية الخيلية الحديثة في تطوير مناهج تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها؟

قائمة المراجع

- بوزياني، خ. (2017). النظرية الخيلية الحديثة في النحو العربي مع البرفسور عبد الرحمن الحاج صالح. مجلة المجمع الجزائري للغة العربية، (1) 13، 337-350.
- بن بناجي، أ. (2021). مبادئ النظرية الخيلية ومفاهيمها عند عبد الرحمن الحاج صالح. مجلة المجمع الجزائري للغة العربية، (1) 17، 217-232.
- الخالدي، ح. (2020). دور المنطق الرياضي في النظرية الخيلية (مفهوم الباب أنموذجاً). مجلة التواصلية، (1) 6، 120-144.
- لطرش، ب. (2020). المدارس اللسانية: كتاب بيداغوجي. مديرية النشر الجامعي، جامعة زيان عاشور بالجلفة.

- مزاری، ع. ر. (2019). العامل النحوي في النظرية الخليلية الحديثة لعبد الرحمان الحاج صالح (دراسة وصفية تحليلية). مجلة دراسات وأبحاث، (4) 11، 39-54.



المصادر والمراجع

المراجع العربية:

- دي سوسير، فردينان (1985). دروس في الأسس العامة (ص. القرمادي، وآخرون، مترجمون). الدار العربية للكتاب (العمل الأصلي نشر في 1916).
- روزنبرج، ألكسندر (2015). فلسفة العلم: مقدمة معاصرة (ترجمة عبد النور عبد المنعم السماحي وفاطمة إسماعيل الشيخ). المركز القومي للترجمة. (العمل الأصلي نشر في 2000).
- ليلي، أحمد (2016). علم الاجتماع وبناء النظرية الاجتماعية. مكتبة الأنجلو المصرية.
- راقع، أحمد (2025). مدرسة أكسفورد قراءة نقدية في التحليل اللغوي عند الوضعية المنطقية (أنموذج). مجلة المقدمة للدراسات الإنسانية والاجتماعية، 10(1)، 283-295.
- الشرقي، سارة منصور (2025). الأفعال الكلامية بين أوستن وسيارل دراسة نظرية مقارنة. مجلة كلية اللغة العربية بباتي البارود، 38(2)، 1801-1820.
- عبد الرضا، اسراء معطي، وسماري، جواد كاظم (2023). التداولية: النشأة والمفهوم المعاصر. مجلة آداب الكوفة، 55(2)، 375-355.
- مطاوي، نجاة، وبن زحاف، يوسف (2023). نظرية الأفعال الكلامية بين جون أوستن وجون سيارل وأهميتها في اللسانيات التداولية. المدونة، 10(1)، 213-221.
- ميزاب، اسمهان (2019). الأصول الإبيستيمولوجية لللسانيات التداولية. القارئ للدراسات الأدبية والنقدية واللغوية، 2(2)، 19-7.
- بوزياني، خ (2017). النظرية الخيلية الحديثة في النحو العربي مع البرفسور عبد الرحمان الحاج صالح. مجلة المجمع الجزائري للغة العربية، 13(1)، 337-350.
- بن بناجي، أ (2021). مبادئ النظرية الخيلية الحديثة ومفاهيمها عند عبد الرحمن الحاج صالح. مجلة المجمع الجزائري للغة العربية، 17(1)، 217-232.
- الخالدي، ح (2020). دور المنطق الرياضي في النظرية الخيلية (مفهوم الباب أنموذج). مجلة التواصلية، 6(1)، 120-144.
- لطرش، ب (2020). المدارس اللسانية: كتاب بيداغوجي. مديرية النشر الجامعي، جامعة زيان عاشور بالجلفة.
- مزاري، ع. ر (2019). العامل النحوي في النظرية الخيلية الحديثة لعبد الرحمان الحاج صالح (دراسة وصفية تحليلية). مجلة دراسات وأبحاث، 4(11)، 39-54.
- عبادي، أ (2022). محاضرات المدارس اللسانية. جامعة ابن خلدون، تيارت.
- بنفنيست، إميل (1971). الذاتية في اللغة. في: مشكلات في اللسانيات العامة (المجلد 1، ص 223-230). مطبعة جامعة ميامي.
- بن عياش، ن (2023). محاضرات في النحو الوظيفي. المدرسة العليا للأساتذة - مسعود زغار - سطيف.
- دكير، ز. ع، ومحمد، م. ع (2022). تداولية الجملة في النحو الوظيفي. مجلة أبحاث ميسان، 18 (35)، 497-512.
- لعناني، ع (2017). تشابك البنية الحملية والوظيفية والمكونية في النحو الوظيفي. الكلم، 2 (1)، 182-211.

[%D8%A7%D9%84%D9%88%D8%A7%D8%AD%D8%AF%D9%8A%D8%A9-%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%B9%D8%AF/](https://bahethoarabia.com/saussure/)

- باحثو اللغة العربية. (د.ت.). فرديناند دي سوسير: ثنائيات اللغة وتأسيس علم اللسانيات. تم الاسترداد من

<https://bahethoarabia.com/saussure/>

- بوجلينغ، ص. (2024). نظرية دي سوسير اللغوية: حقيقتها وصلتها بالنحو العربي. مجلة دراسات في علوم الإنسان والمجتمع

<https://www.asjp.cerist.dz/en/article/239493>

- الدرس الثاني: اللسانيات البنوية ومفاهيمها الأساسية. (2017، 5 يناير). Linguistique-gafsa.

<http://linguistique-gafsa.blogspot.com/2017/01/blog-post.html>

- الدلالة اللغوية: اعتباراتها وقيمتها عند دي سوسير. (2017، 13 ديسمبر). شبكة الألوكة

https://www.alukah.net/literature_language/0/123664/

- اللغة واللسان والكلام عند فرديناند دي سوسير. (2017، 29 نوفمبر). شبكة الألوكة

https://www.alukah.net/literature_language/0/123194/

- اللسانيات الحديثة مفهومها/موضوعها/مجالاتها: (الأنية والزمنية). (2023، 11 ديسمبر). UDBKM E-learning.

<http://moodle.univ-dbkm.dz/mod/page/view.php?id=13741>

- مدارس لسانية 4. (د.ت.). UDBKM E-learning. تم الاسترداد من

<http://elearning.univ-dbkm.dz/course/view.php?id=6698>

- ملخص كتاب دي سوسير: محاضرات في اللسانيات العام. (2024، 9 ديسمبر). ملخص كتاب

<https://mulakhaskitab.com/ملخص-كتاب-دي-سوسير-محاضرات-في-اللسانيات/>

- موضوع. (د.ت.أ). فرديناند دي سوسير (عالم لغوي). تم الاسترداد من

[https://mawdoo3.com/فرديناند-دي-سوسير-\(عالم-لغوي\)](https://mawdoo3.com/فرديناند-دي-سوسير-(عالم-لغوي))

- موضوع. (د.ت.ب). ثنائية الدال والمدلول عند دي سوسير. تم الاسترداد من

<https://mawdoo3.com/ثنائية-الدال-والمدلول-عند-دي-سوسير/>

- ويكيبيديا. (2024، 25 أغسطس). فرديناند دو سوسور

https://ar.wikipedia.org/wiki/فرديناند_دو_سوسور

- العبادي، ع. (2022). محاضرات مقياس المدارس اللسانية [محاضرات جامعية]. قسم اللغة والأدب العربي، جامعة ابن خلدون - تيارت. تم الاسترجاع من:

[http://fl.univ-](http://fl.univ-tiaret.dz/pdf/cours/اللسانية%2003%20ليسانس%20العبادي%20عبد%20الحق)

[tiaret.dz/pdf/cours/اللسانية%2003%20ليسانس%20العبادي%20عبد%20الحق](http://fl.univ-tiaret.dz/pdf/cours/اللسانية%2003%20ليسانس%20العبادي%20عبد%20الحق)

- الصميدعي، ق. ع. (2021). نظرية المورفيم في العربية (دراسة تحليلية تطبيقية). مجلة البحوث والدراسات الإسلامية، (64)، 483-510.

<https://iasj.rdd.edu.iq/journals/index.php/islamic/article/view/2580>

- بن خميس، ت. (2022). محاضرات في المدارس اللسانية [محاضرات جامعية]. كلية الآداب واللغات، جامعة باتنة 1. تم الاسترجاع من:

<https://dspace.univ-batna.dz/items/e12a54e5-66ab-473d-9503-962936c3ab0a>

- بن سعيد، م.، وقادري، ك. (2022). تأثير ليونارد بلومفيلد في المدرسة الأمريكية واللسانيات التوزيعية. مجلة المزهر
أبحاث في اللغة والأدب، 6، 92-77.

<https://www.asjp.cerist.dz/en/article/191371>

- لطرش، ب. (2020). المدارس اللسانية. مديرية النشر الجامعي، جامعة زيان عاشور بالجلفة. تم الاسترجاع من:

https://fla.univ-djelfa.dz/wp-content/uploads/2024/12/book1_latreche_boulerbah.pdf

المراجع الأجنبية:

- Carston, R. (2000). The relationship between generative grammar and (relevance-theoretic) pragmatics. *Language & Communication*, 20(1), 87-103.
- Jakobson, R. (1960). *Linguistics and Poetics*. In T. A. Sebeok (Ed.), *Style in Language* (pp. 350-377). MIT Press.
- Galan, F. W. (1985). *Historic structures: The Prague School project, 1928–1946*. University of Texas Press.
- Mathesius, V. (1975). A functional analysis of present day English on a general linguistic basis (J. Vachek, Ed.). Mouton/Academia.
- Nekula, M. (1999). Vilém Mathesius. In J. Verschueren, J.-O. Östman, J. Blommaert & C. Bulcaen (Eds.), *Handbook of Pragmatics* (pp. 1–14). John Benjamins Publishing Company.
- Trubetzkoy, N. S. (1969). *Principles of phonology* (C. A. M. Baltaxe, Trans.). University of California Press. (Original work published 1939)
- Bache, C. (2010). Hjelmslev's Glossematics: A source of inspiration to Systemic Functional Linguistics? *Journal of Pragmatics*, 42(9), 2562–2578.
- Garvin, P. L. (1954). Review of *Prolegomena to a Theory of Language* by Louis Hjelmslev. *Language*, 30(1), 69–96.
- Hjelmslev, L. (1961). *Prolegomena to a Theory of Language* (F. J. Whitfield, Trans.). University of Wisconsin Press. (Original work published 1943).
- Siertsema, B. (1965). *A Study of Glossematics: Critical Survey of its Fundamental Concepts* (2nd ed.). Martinus Nijhoff.
- Trabandt, J. (1987). Louis Hjelmslev: Glossematics as General Semiotics. In M. Krampen, K. Oehler, R. Posner, T. A. Sebeok, & T. von Uexküll (Eds.), *Classics of Semiotics* (pp. 89–108). Springer.
- Firth, J. R. (1957). *Papers in Linguistics, 1934-1951*. Oxford University Press.
- Malinowski, B. (1923). The problem of meaning in primitive languages. In C. K. Ogden & I. A. Richards (Eds.), *The Meaning of Meaning* (pp. 296-336). Kegan Paul.



- Palmer, F. R. (Ed.). (1968). *Selected Papers of J. R. Firth, 1952-59*. Longman.
- Martinet, A. (1962). *A Functional View of Language*. Oxford: Clarendon Press.
- Mounin, G. (1974). *Histoire de la linguistique des origines au XXe siècle*. Paris: Presses Universitaires de France.
- Chomsky, N. (1957). *Syntactic Structures*. Mouton de Gruyter.
- Chomsky, N. (1965). *Aspects of the Theory of Syntax*. MIT Press.
- Radford, A. (2004). *Minimalist Syntax: Exploring the Structure of English*. Cambridge University Press.
- Sauerland, U., & Alexiadou, A. (2020). Generative grammar: A meaning first approach. *Frontiers in Psychology*, 11, 571295. <https://doi.org/10.3389/fpsyg.2020.571295>
- Erlich, V. (1973). Russian Formalism. *Journal of the History of Ideas*, 34(4), 627–638. <https://doi.org/10.2307/2708893>
- Radunović, D. (2017). The Emergence of Modern Scientific Communities in Late Imperial and Early Soviet Russia: The Case of the Moscow Linguistic Circle. *The Slavonic and East European Review*, 95(1), 1–29. <https://doi.org/10.5699/slaveasteurorev2.95.1.0001>
- Britannica, T. Editors of Encyclopaedia (2025a, November 28). Prague school. In *Encyclopedia Britannica*. Retrieved December 25, 2025, from: <https://www.britannica.com/topic/Prague-school>
- Britannica, T. Editors of Encyclopaedia (2025b, November 24). Linguistics: The Prague school. In *Encyclopedia Britannica*. Retrieved December 25, 2025, from: <https://www.britannica.com/science/linguistics/The-Prague-school>
- Britannica, T. Editors of Encyclopaedia (2025c, November 28). Vilém Mathesius. In *Encyclopedia Britannica*. Retrieved December 25, 2025, from: <https://www.britannica.com/biography/Vilem-Mathesius>
- Drescher, B. E. (2019). *N. S. Trubetzkoy's Grundzüge der Phonologie*. University of Toronto. Retrieved from: <https://drescher.artsci.utoronto.ca/talks/Trubetzkoy-COLMEX.pdf>

الفهرس

الصفحة	المحاضرات
01	مقدمة
03	المحاضرة 01: مدخل الحلقة، المدرسة، النظرية
13	المحاضرة 02: اللسانيات دي سوسير Ferdinand de Saussure
26	المحاضرة 03: حلقة موسكو اللغوية
35	المحاضرة 04: مدرسة براغ (1)
46	المحاضرة 05: مدرسة براغ (2)
56	المحاضرة 06: مدرسة كوبنهاغن أو المدرسة الغلوسيماتية
66	المحاضرة 07: المدرسة الوظيفية الفرنسية
79	المحاضرة 08: النظرية السياقية
89	المحاضرة 09: المدرسة التوزيعية
99	المحاضرة 10: المدرسة التوليدية التحويلية (1)
109	المحاضرة 11: المدرسة التوليدية التحويلية (2)
118	المحاضرة 12: المدرسة الوظيفية الأمريكية
129	المحاضرة 13: مدرسة أكسفورد
140	المحاضرة 14: المدرسة الخليلية
152	المصادر والمراجع
157	الفهرس